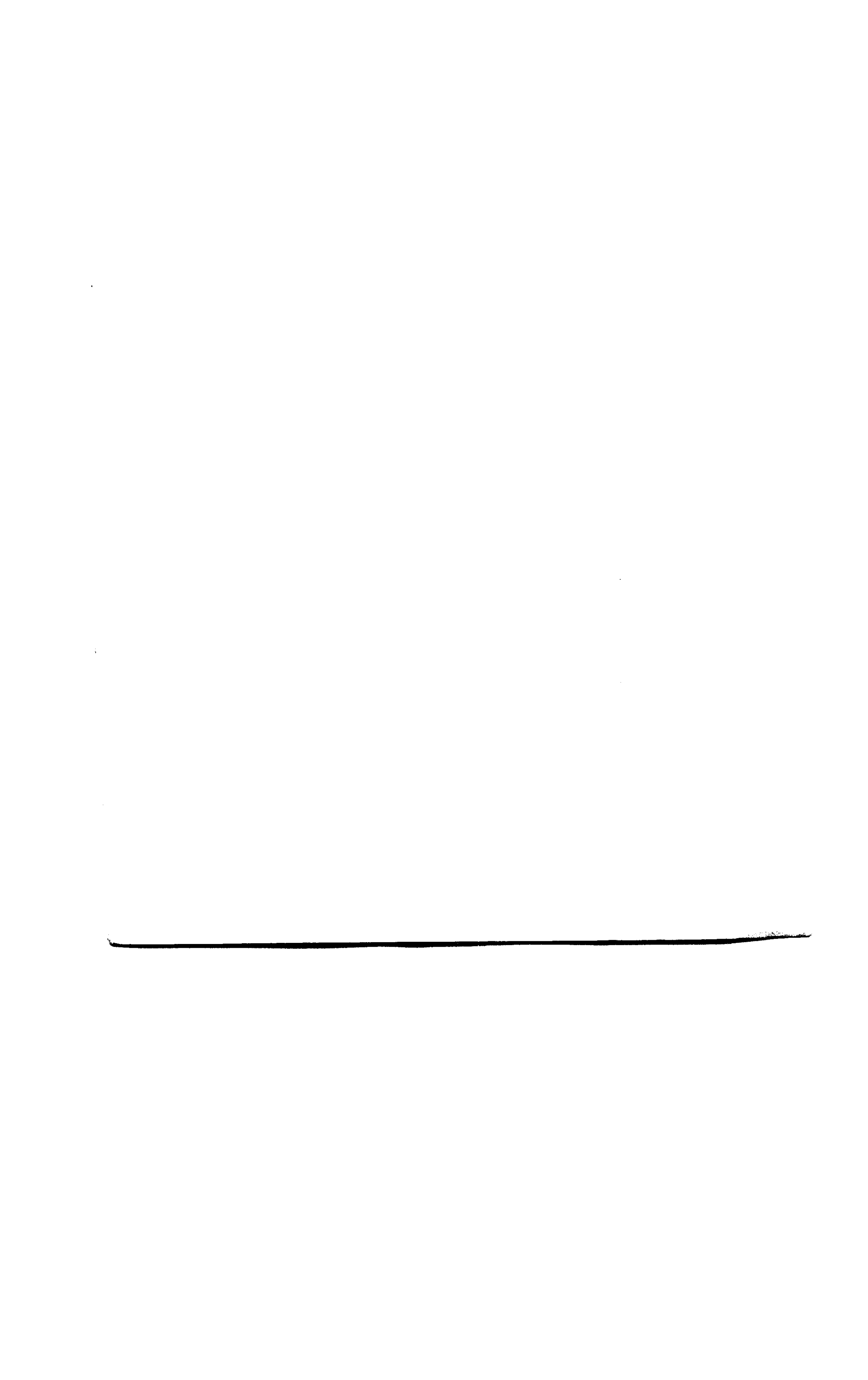
الـوان مـن
« القصة اليمنية المعاصرة »



ألوان
من القصّة اليمنيّة المعاصرة

اختيار وتقديم
الدكتور عبد الحميد ابراهيم

دار العودة - بيروت

الطبعة الاولى
١٩٨١/٣/١

دار العودة ـ بيروت كورنيش المزرعة ـ بناية الريفيرا سنتر
تلفون : ٣١٨١٦٥ ـ ٣١٠٨٤٠
تلكس AWDA ٢٣٦٨٢ LE

مسيرة القصة اليمنية

بقلم
الدكتور عبد الحميد ابراهيم

١ — بدأت القصة اليمنية مسيرتها في أواخر الثلاثينات ، وظهرت بذورها في مجلة « الحكمة اليمانية » [١] ، ممثلة فيما كان يكتبه أحمد البراق ، وزيد بن علي عنان [٢] ، ويحيى حمود النهاري .

ان هذه البذور كانت مجرد أسلوب قصصي طريف ، لتوصيل الفكرة الى القارىء ، لقد كانت تخضع للمفهوم القديم للقصة ، والذي يربطها

---

(١) صدرت في ذي القعدة سنة ١٣٥٧هـ (ديسمبر سنة ١٩٣٨ / يناير سنة ١٩٣٩م) وقد راس تحريرها في أول الامر احمد عبد الوهاب الوريث ، وبعد ان تخلص منه الإمام يحيى راس تحريرها أحمد المطاع ويذكر الجاوي أنها استمرت سنتين ثم توقفت ، أي صدر منها ٢٤ عددا ، ولكن الباحث عبد الله الحبشي يضيف أربعة اعداد اخرى . اما « الحكمة » الجديدة ، والتي هي امتداد للحكمة اليمانية ، فقد صدرت في ابريل سنة ١٩٧١م بعدن ، ولا تزال تصدر ، ورئيس تحريرها الآن هو عمر الجاوي .

(٢) ولد بصنعاء سنة ١٣٢٦هـ ، اشتغل فترة في سوق البز (القماش) والتحق بالكلية العسكرية بصنعاء لمدة خمس سنوات ثم عمل بالجيش لمدة اربع سنوات ، حتى اختير على راس البعثة الثانية الى العراق . وهناك التحق بدار المعلمين ، ثم عاد الى اليمن ليعمل في التدريس . وعند قيام ثورة سنة ١٩٦٢م عين مديرا عاما بوزارة المعارف ، وحاليا يشغل وظيفة وكيل الهيئة العامة للآثار ودور الكتب .

بالوعظ [1] والاصلاح ، وينقصها الاحساس بذلك العرق الخفي جدا ، والذي يفصل بين القصة كجنس أدبي ، له مفهـوم قائم بذاتـه ، وبين الاسلوب القصصي ، والذي هو مجرد حلية خارجية لنقل المراد . كما كان يفعل الجاحظ ، أو أبو حيان التوحيدي .

ان قصة « أنا سعيد » لا يمكن أن تخضع للمقاييس النقدية الحديثة التي تتحدث عن الحبكة والعقدة ولحظة التنوير والوحدة العضويـة ، وغير ذلك من مقاييس استقرت وأصبحت لها مدرسة معينة .

ان تلك القصة لا تخرج عن المفهوم القديم للقصة ، فهي عبارة عن حوار مع صديق ، في عدد من الايام ، يتحدثان فيه عن موضوعات شتى ، عن العمل الصالح ، والسعادة النفسية ، واعانـة المحتاجين والفقـراء ، وأهمية البن اليمني ، ويقتبسان شعـرا لميخائيل نعيمه يتضمن وصفـا للطبيعة والجداول والانهـار ، ويستشهدان بأحاديث نبوية ، وبعبارات دينية تدعو الى التآلف والتعـاون ، ويحرصان على الاسلوب المتساوي الاجزاء ، والمزخرف المسجوع مثل « العلم وضاح للخير ، فضاح للشر . يولد في النفوس حرارة ، وفي الرؤوس شهامة . العلم يرفع الغبـاوة ، ويزيل الغشاوة » . وكان يمكن لهذه القصـة ان تطول ، الى الف ليلة وليلة ، فهي تفتقد الوحدة العضوية والموضوع الواحد ، وتتخذ محورها من شخصين يتحاوران كلما يلتقيان في يوم من الايام .

وفضلا عن ذلك فان تلك البذور القصصية قد أجهضت ، ولم يعد لها تأثير في مسيرة القصة اليمنية ، فقد كانت البيئة في تلك الفترة غير معدة للترحيب بهذا الشكل الجديد ، وكانت ثقافة القائمين على المجلة حينذاك ذات طابع تقليدي ، تهتم بالشعر وبالتاريخ العربي وبالمسائل الاسلامية .

---

(1) يجعل الزمخشري في كتابه « أساس البلاغة » من المعاني الحقيقية لمادة « قصص » ، ذلك المعنى الذي نلمحه في قوله « والقصاص يقصون على الناس ما يرق قلوبهم » .

ومن هنا نشرت تلك المحاولات القصصية في نهاية العدد ، ولم تجد تعليقا، من قارىء أو ناقد ، ولا احساسا بأن هناك فنا جديدا ، يهتم به العالم ، ويمكن بقدر من التشجيع والتقويم أن تتطور تلك المحاولات ، وأن تلحق بغيرها .

* *

٢ — انما أتيح لهذه البذور أن تنمو ، حين انتقلت الى « فتاة الجزيرة » [1] فقد كانت البيئة معدة لاستقبال المولود الجديد ، وبدأ الحماس له يظهر على صفحات تلك الصحيفة ، وكان صاحبها محمد علي لقمان [2] ذا ثقافة عصرية وأفق متفتح ، فأخذ ينشر القصص المترجمة ، ويشجع التأليف القصصي ، وظهرت أسماء تحاول كتابة القصة بالمفهوم الجديد مثل : حامد خليفة ، وحمزة علي لقمان ، ومحسن حسن خليفة ، بل وبدأت بوادر النقد القصصي ممثلة فيما كتبه علي محمد لقمان [3]

---

(١) أول صحيفة يمنية اسبوعية مستقلة ، وكانت تصدر كل احد بعدن ، ورئيس تحريرها هو محمد علي ابرهيم لقمان المحامي ، ومديرها خالد علي لقمان ، صدرت اول سنة ١٩٤٠م « وكان رئيس تحريرها أول من ادخل الافكار الحديثة بالنسبة لعلاقة الرجل بالمرأة ، وبعضا من افكار الثورة البورجوازية في فرنسا ، وشعارات العدل والمساواة والحرية » كما يقول عمر الجاوي في مقال نشره بمجلة الحكمة (يناير سنة ١٩٧٤م).

(٢) هو المؤسس للنهضة الادبية بعدن ، وكان العامل الاكبر في تأسيس نادي الادب العربي ، ثم نوادي الاصلاح الاسلامية ، يجيد الانجليزية، ويحسن الفرنسية ، ويتكلم الهندية والصومالية ، ويحمل شهادة من جامعة كمبردج واخرى من ليدز .

(٣) من مواليد ١٦ أغسطس سنة ١٩١٨م ، عمل مديرا لصحيفة « فتاة الجزيرة » الاسبوعية ، وبقي مديرا لها بعد أن تحولت الى يومية ، واستقال من ادارتها في يوليو سنة ١٩٦٢م. اصدر صحيفته الاسبوعية « القلم العدني » ، واستمر يرأس تحريرها منذ سنة ١٩٥٣م ، الى ان أنشأ داره المستقلة فحولها الى صحيفة يومية باسم « الاخبار » ، والتي ظلت تصدر عن دار الاخبار حتى يونيو سنة ١٩٦٧م ، أصدر ثمانية دواوين شعرية ، وخمس مسرحيات شعرية ، وديوان زجل شعبي ، وكتابا منثورا ، وكتيبا باللغة الانجليزية .

تحت عنوان « تعليقات عابر سبيل » ، وفيه يدعو الى الاهتمام بتحليل الشخصيات ، والغوص داخلها ، والتنبه الى نوازعها النفسية •

ومن هنا يصح لنا أن نلتمس البذور الحقيقية للقصة اليمنية على صفحات « فتاة الجزيرة » ، فقد أخذت القصة تمتاح من المفهوم العالمي ، وتتجه نحو الشكل الاوروبي ، الذي يتخلص من المباشرة والوعظية وتعدد الموضوعات والاسلوب المحفوظ والعبارات المتداولة •

ان قصة « إنس في عالم الجن » والتي نشرت على حلقتين تشي ببداية الاتجاه نحو المفهوم العالمي للقصة ، فهي قد تخلصت من الاستطراد ، ومن العبارات الوعظية المباشرة ، وسلكت نحو هدفها أقصر الطريق وبأسلوب سهل ، وفي محاولة للكشف عن نفسية الشخصيات والتجسس على نوازعهم وخواطرهم • حقا تبدو تلك المحاولة ملصقة وخارجية وبطريقة يستعرض فيها المعلومات حول طبيعة الرجل والمرأة ، ولكنها على أي حال تلفت النظر الى الاهتمام بداخل الشخصيات ، دون الوقوف عند المظهر الخارجي فقط • وتحاول أن تكتسب شيئا من انجازات القصة الحديثة ، تظهر في بدايتها المشوقة ، والتي تصف دار « شواهي » وصفا جذابا ، وفي نهايتها التي تكشف عن الغرائز الانسانية وميول السيطرة • وفي جو التشويق الذي يحيط بالشخصيات ، وبالغرض من الرحلة ، والذي لا يتكشف الا قطرة قطرة •

ولم يكن هذا الاقتراب ممثلا في الشكل فحسب ، بل وفي المضمون بطبيعة الحال • فانها في عمومها دعوة للتحضر ، وتقليد السلوك الاوروبي المهذب ، ان وصف دار « شواهي » في أول القصة ، هو وصف لدار أوروبية حديثة ، تضاء بالكهرباء، وتزين جدرانها بالصور الفنية والرسوم الزيتية ، وان مجتمع الجن هو شبيه بالمجتمع الاوروبي ، الذي يستخدم

اللاسلكي والاختراعات العلمية ، ويكون الغرض في نهاية الامر ، هو دعوة العدني لكي يسلك السلوك الاوروبي المهذب ، ولكي يبتعد عن الخشونة وقسوة المعاملة •

* *

٣ — ولم يمض وقت طويل حتى تكاملت القصة اليمنية ، فقد اختصر القاص المسيرة ، وقفز حواجز كبيرة من الزمن ، ليصبح في مصاف المعاصرين له من القصاص العرب • ان النماذج التي اخترناها لمحمد عبد الولي ، وأحمد محفوظ عمر ، وعبد الله سالم باوزير ، وزيد مطيع دماج ، وعلي محمد عبده ، ومحمد الزرقة ، وزين السقاف ، وحسين سالم باصديق — تمثل انجازات هذا الجيل الوسط ، والذي استطاع أن يتملك الشكل القصصي ، وأن يؤصله في الادب اليمني •

فلم تعد القصة شيئا موزعا بين الشعر والمقالة والرواسب الشعبية ، بل أصبحت جنسا قائما بذاته ، له شخصيته التي أصبح الفنان يعيها ، ويعرف أنه بدونها تتحول الى شيء هلامي ، الى مجرد «قنطرة» لتوصيل فكرة دينية ، أو غرض اصلاحي •

فقصة « الحذاء » تتنامى نحو غرضها تدريجيا ، وتطور شعور القارىء خطوة خطوة ، وبطريقة تعتمد على خفة الروح ، المغلفة بشيء من السخرية بالذات ، انها تبدأ بحوار مع زوجته حول الساكن الجديد للشقة العليا • انه جندي من الجيش ، يثير الفزع بخطواته العنيفة التي تهز جدران السلالم ، وبالضجة التي يحدثها وهو يخلع حذاءه • ثم يتسلل المؤلف من هذه الاحداث الخاصة والمواقف اليومية ، الى فكرة عامة ، تثير البغض للحرب ، والكراهية للعنف ، وتدعو الى حياة السلام والطمأنينة • حقا ان النهاية كانت « خيبة أمل » ، كما هي عادة المؤلف في

قصصه ، ولكنه لم يفعل ذلك الا وقد أثار فينا أحاسيس عارمة . جعلتنا تتعاطف مع هؤلاء المضطهدين ، وتشير الى ذلك « الحذاء » المصلت فوق رؤوسهم ، وهم له مذعنون وان كانوا كارهين •

وفي ميدان المضمون لم يكتف القاص بالسطح الخارجي ، ولم تشغله شخصية طريفة فيرسمها ، أو حادثة صحفية فيعلق عليها ، أو ظاهرة سياسية فينفعل معارضا أو مؤيدا • لقد أصبح يغوص وراء السطح ويبحث عن الاسباب •

فقصة « زمن بلا تراجع » لا تكتفي بتسجيل الحروب بين الجمهوريين والملكيين ، ولا بالحديث عن حصار صنعاء ، ثم بتأييد فريق من خلال عبارات هتافية • بل انها ترتد الى الجذور ، وتشير الى المصالح المادية ، والى الصراع الطبقي • فربما لاول مرة في القصة نلتقي بتلك الصراحة التي يقولها اسماعيل لوالده « أنا أعرف هواجسك وأفكارك يا أبي ، ومكانتنا في المجتمع تتحدد من خلال أعمالنا وقدراتنا ، لا من خلال انسابنا وأحسابنا ، فتلك قيمتها عند الله ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، واني بصراحة أعطف على الناس الذين يعيشون بعمل ، ويكسبون بالكد ، بالعقول والسواعد ، وجارنا الدباغ يستحق كل تقدير ، وكذلك الدباغون والصناع جميعا » •

حقا ان هذا الحوار كان على لسان فرد من الطبقة الثرية ، وحقا انه كان فورة من الفورات ، سرعان ما تفثأت حين نال اسماعيل مأربه من مريم ، ثم خضع بعد ذلك لتقاليد تلك الطبقة ، ولكن يكفي أن المؤلف تنبه الى الجذور ولو بطريق غير مباشر ، فالحرب ترتد في النهاية الى صراع بين أسرة الدباغ ، وهي أسرة فقيرة تعمل في صباغة الجلود ، وبين أسرة السيد اسماعيل ، وهي أسرة غنية يعمل صاحبها حاكما بوزارة العدل • ويكفي أنه حلل واقعه بدقة ، فالفترة كانت فترة اضطراب ، جعلت المفاهيم غير محددة ، وجعلت مشاعر مريم غير واضحة ، تحب صلاح ثم

لا تجد مانعا من أن تسلـم نفسها لاسماعيل ، ويكفي أنه حلل مشاعـر الطبقة الثرية بصدق يفضـح كل زيف ، فهي لن تستجيب للاصـلاح ، والاصلاح عندها ــ وعلى أحسن الفروض ــ مجرد شقشقة ، تذوب عند أول امتحان حقيقي • انما الاصلاح يأتي من المعاناة ، من صلاح والدي ــ على الرغم من الاحباطات التي لاقاها حتى في حبه ــ يتجاوز كل شيء ، ويغفر لمريم ويحتضن الطفل ، ويسميه « عادل » ، اشارة الى العدالة التي لن يطول انتظارها •

* *

٤ ــ ثم كان الجيل الجديد (جيل السبعينيات) ، ممثلا في النماذج التي اخترناها لمحمد صالح حيدرة ، وأحمد غالب الجرموزي ، وميفـع عبد الرحمن ، ومحمد مثنى ، وحسن اللوزي ، وسعيد عولقي ، وعبـد الفتاح عبد الولي ، وكمال الدين محمد ، وحمزه هب الريح ، وعبد الله الامير ، وعبد الرزاق محسن الرميحي ، وأحمد الزبيري، وعلي الاسدي، وشفيقه زوقري •

وهو بحق جيل التمرد على كل شيء ، تمرد على الاوضاع الاجتماعية، وعلى الاشكال الادبية القديمة ، وهو ليس تمردا هادما . ولكنه يهدف الى الجديد ، ويؤمن بسنّة التطـور وحركة التاريخ ، ويتسم بالتصميم والعزم •

ان أحمد غالب الجرموزي في قصة « ضربة في الرأس » يتحول الى مسيح من نوع جديد ، انه يطير الى مدينـة الغبار ، يبصق على أهلهـا فيتبدلون من أقزام الى عمالقة ، ويضرب بقدميه الارض فتتحـول من جرداء الى أشجـار خضراء ، ويتبول فتنفجر الينابيع والانهـار ، لقد استطاع بمعجزاته أن يحول مدينة الغبار ، الى مدينة ذات خضرة وغناء

وحسان ، يهتف به أهلهـا « بوركت يا بن الخضرة وتعاليت ، ليتمجـد اسمك في الآبدين ، وليخلد ذكرك فينا نحن الشاكرين والذاكرين » .

وعلى الرغم من قسوة المصاعب ، ممثلة في ذلك المجنون الذي ضربه من الخلف ، ضربة في رأسه جعلته يترنح ويصاب بالغيبوبة ، الا أنه في النهـاية يتفاءل ، فهو قد خطا خطوة الى الامـام ، وقد جعل المدينـة « تحف بالرفيف والخضرة من كل جانب » . أما هو فبكل تأكيد سيعود الى بلقيس ، وسيسألها عن الوديعة التي تركها في أحشائها في تلك الليلة، التي لن ينساها أبد الدهر .

وحسن اللوزي في قصته « العطش » يصور بأسلوب شاعري ، ذلك الظمأ الذي يستبد بهذا الجيل « كالكلب في مضاء الصيف ألهث، أتشقق كالارض عطشا ، كالصحراء ، أتفتت في ريح النهار » ثم يواجه هذا التيار المندفع ، بتلك الحواجز ممثلة في التقاليد البالية ، والتي ينبىء عنها هذا الحوار :

« ـ قال النبي : التمس ولو خاتما من حديد .

ـ نحن الآن في عصر البلاتين والماس .

ـ النبي زوج بعض أصحابه بآية أو سورة من القرآن .

ـ أنا لا أزوج ابنتي الا كما زوج جاري ابنته بخمسة عشر ألف ريال .

ـ يمكنني أن أدفع لك خمسة آلاف ريال .

ـ ما يخورجنيش » [1] .

---

(١) اي لا يكفي .

ومن هنا يثور هذا الشاب ، ويندفـع بطريقـة مأساوية يلاقي فيها حتفـه .

وعبد الفتاح عبد الولي في قصـة « الشمس تغطس في المحيـط » يلخص ظروف هذا الجيـل ، فقد ولد والرعد يجلجـل ، والبرق يشق السماء ، والرياح تقتلع الاشجار ، والمطر ينهمر غزيرا . وشب وقد هدمت الرياح كوخه ، وانتزعت سترته ، وأممت قناة السويس ، وقامت الحرب في بورسعيد ، وأعدم الثلايا واللقيه في تعز . وكبر وقد التهمت الدودة كل أوراق القطن ، ورحل طابور طويل من العرايا نحو الجبال ، وطاردت الاسماك الكبيرة الاسماك الصغيرة .

ولكن على الرغم من كل ذلك فهناك نغمـة أخرى ، في موازاة تلك النغمة ، ويتبناها المؤلف في هدوء وصبر نادرين . فروح التصميم تبدو من خلال تلك العقبات ، بل ان تلك العقبات تشحذها وتستثيرها ، كتلك السنبلة التي تشق طريقها بين الصخور ، أو كذكر النحل الذي يطـارد الملكة في الطبقات العليا من الجو ، او كهؤلاء الاحياء ، الذين ينتظـرون فجرا جديدا بعد أن غطست الشمس في المحيط .

وعبد الرزاق محسن الرميحي في قصة « البرعة الاخيرة » ينتهي الى انتصار الجديد ، من خلال ذلك الطفل ، الذي ظل يرقص في الحلبـة ، ويثير الاعجاب ، ويتحدى القديم وينتصر عليه . نحن الآن في ميدان عام، والشمس تطلق سعيرها ، والاصوات تتعالى ، وقد تحلـق الجميع حول حلقة للرقص ، وها هو عجوز يتحدى ويرقص ، وينتصر على الحاضرين ، ويزهو ببراعته الى أن يتقدم طفل في العاشرة من عمره ، وينافس العجوز. وظلا يرقصان ويدوران ، وكل منهما يريد أن ينتصر على الآخر ، وطال الرقص واشتد ، ولكن البقـاء للجديد كما هي سنة الحياة ، فقد ظهر الاعياء على العجوز وفقد توازنه « وأغلق عينيه ووقف يهتز في مكانه ،

فعجزت قدماه عن الاستمرار في حمله ، فتثنى جسمه شيئا فشيئا ، وهبط من أعلى قامته الفارعة الطول ، حتى سقط على الارض فاردا ذراعيه ورجليه ، كل في جهة • وجسده المديد يستحوذ على نصف الدائرة ، بينما استمر الطفل في أدائه دون مبالاة بما يحدث حوله ، متباهيا مفتخرا ، فاغرا فاه عن ابتسامة نصر عريضة ، ابتهاجا بتغلبه على خصمه » •

لقد أراد المؤلف أن يعلن انتصار الجديد دون ضجة ولا افتعال ، فمن خلال رقصة شعبية ، ومن خلال ايقاع « البرع » المثير ، ومن خلال الجو المشحون بالحرارة والانفعال ، ومن خلال أحداث حية نعيشها ونتأثر بها ــ استطاع أن يصل الى غايته •

وأما قصة علي الاسدي، فهي أيضا تتطلع الى انتصار الجديد والثورة على القديم ، وليس عبثا أن العنوان كان « القادمون الى الجبل الاخضر » انها تترقب القادم الجديد ، بغض النظر عن ذلك الفارس الذي لقي حتفه في الطريق • ان القصة تمثل الصراع بين القراصنة ، الذين يقتلعون الزهور ، ويسملون العيون ، ويسفكون الدماء ، وبين الناس الطيبين ، الذين يزرعون ، ويقلمون الاغصان ، ويمنحون الزهور •

وعلى الرغم من أن القصة سردية ، ترشح المؤلف لحكايات الاطفال ، الا انه منحها جوا أسطوريا ، وكاد يرتفع بها الى ملحمة ، تصور الصراع الابدي بين الخير والشر ، وتلتمس العون من القدر او الآلهة « أيتها السماء من أجل الحياة الطيبة الهانئة ، من أجل الحب ، من أجل الزهور ، من أجل بني الانسان جميعا ، امنحي هذا الصبي حنانك ورحمتك ، ومدي اليه مساعدتك ، واشمليه بالرعاية والعطف » •

ومع ان السماء كانت خرساء تلك المرة ولم تستجب لتوسلات الراوي، فان هذا الصبي الذي ذهب لكي يجلب حليب الصقور لم يعد ، الا أن

القصة تنتهي بنهاية تشير الى انتصار الخــير ، والى أن ملحمة الحيــاة تخضع لهذا القانون الذي لا يتخلف ، وان بدا بطيئا ... ان أخاه يكبر ويلتقي بفتاة « يكسو بشرة وجهها لون أخضر غير طبيعي » ، وهي أيضا ضحيـــة لملك القراصنة ، الذي قتـــل أباها وأمها وأخاها ، ويتزوجـــان وينتظران أن يملأ الكـــوخ صبيانا وبناتا « وكانت الفرس مـــع ابنهـــا يشاركانهم الفرحة ، وقد انقشعت ملامـــح الحزن من ملامـــح الفرس ، وأخذت تداعب ابنها وكأنها تقول له : سننتظر الصغار القادمين لتحملهم ليأتوا بحليب الصقر الرابض فوق الجبل الاخضر » .

ولكن الامر ليس بمثل هذه الصورة عند جميع كتاب الجيل الجديد فان التحدي يدفع بالكثير منهم الى المباشرة ، والقاء عبارات اللوم والقذف باللعنة أمام كل من يقف في طريقهم .

ان الحكم على هذا الجيل أمر سابق لاوانه ، فهو لما يتكامل بعد . ان الزمن بلا شك كفيل بتهدئة الانفعال ، وتوجيهه وجهة بناءة ، ان ثورة هذا الجيل لا تقلق على أي حال ، فانها في عمومها دلائـــل صحة ، فهي ضيق بواقع ، يريدون له وضعا أفضل .

* *

٥ ــ وقد أصبح القاص يتملك الآن الشكل التقليدي ، من خلال مسيرة بدأت في أوائل الاربعينيات ، وكان في كل مرحلة يكتسب انجازا ويضيفه الى تاريخ القصة، فمرة يكتسب البعد النفسي وتحليل الشخصيات وثانية يتعلـــم ألا يقف عند الظواهر الفردية وألا ينشغل بالتفصيـــلات الجزئية . ان من يقارن بين النماذج المعاصرة ، والنماذج التي كانت تنشر على صفحات « فتاة الجزيرة » ، يحس بمكاسب القصـــة ، لقد أصبـــح الشكل التقليدي الآن مؤصلا في تاريـــخ القصة اليمنيـــة ، وله كتّابـــه ومتذوقوه ومفهومه المستقر .

وقد شملت ثورة الجيل الجديد الشكل الادبي أيضا ، فأرادوا أن يضيفوا الى الشكل التقليدي ، مزيجا من الافكار المعاصرة ، وقد شغفوا بنوع خاص ، بهذا الشكل الذي يمتاح من اللاشعور ، ويرسم الحركة النفسية الداخلية ، ربما لان النفس اليمنية ذات جذور عميقة مع الشعر ، والشعر على العموم تجربة وجدانية ، تجتر العواطف ، وتعايش الداخل ، وتستثير الهموم الذاتية .

وهنا مكمن الخطر ، فهذا الشكل ليس هو الشعر ، وان كان يستخدم امكانياته . ان الثورة على الجديد لا تعني الاختلاط ولا الهلامية ، وهي لها ما يبررها في بلادها ، فحين ثار العالم الاوروبي على الشكل التقليدي ، كان هذا نابعا من احساس شديد وعام ، بأن هذا الشكل أصبح جامدا ، وذا تقاليد كانت نتيجة لمجتمع بورجوازي يعيش في ظل مسلمات مستقرة . اما الآن فقد تغير العالم ، وبدأ الناس يطرحون الشك وبحدة ، في كثير من المفاهيم القديمة ، فتزلزل كيان المجتمع ، وكان طبيعيا ان يتزلزل كيان الشكل التقليدي ، وأن يحس الادباء في بلادهم ، انه لا يستطيع ان يفي بالتجربة المعاصرة .

ولكن هذا لا يعني الاختلاط ولا الهلامية كما قلت . حقا قد يضيق الجديد بالانضباط الشديد في الشكل القديم ، ولكنه بكل تأكيد يستجيب لتصميم من نوع آخر « فالتغيير لا يعني السديمية ، وليس معنى ان بيكاسو قد انتهك الابعاد التي كان يستخدمها « رافاييل » في رسومه ، أنه قد وقع في الفوضى ، وكل ما هنالك ان تصميما قد حل محل تصميم ، وأن منطقا قد حل محل منطق . ان التصميم في القصة الحديثة أمر حيوي ، انها تقدم أساسا للقارىء كمشروع ، ولا بد لكل مشروع من تصميم ، قد يختلف عما سبقه ، وقد يخفى على الكثير ، ولكن له وجوده على أي حال . لقد اختفت العقدة ــ حجر الاساس في المشروع القديم ــ

ليحل محلها حجر أساس من نوع جديد • ان فوكنر ــ على الرغم من أنه يبدو منساقا وراء موضوعاته لا يتحكم فيها كما قال « هاو » ــ الا ان هناك تصميما مجهدا وراء أعماله ، بحيث تبدو رواياته في صورة « بحث دائم من أجل الوصول الى نظام فني » ••

« ولكن هذا التصميم الجديد والخفي ، الذي يتحرك من خلاله عباقرة هذا الشكل ، قد أفلت عند كثير من شبابنا ، ان تأليف قصة على النحو الكلاسيكي أمر ميسور ، بل يمكن أن يكون أمرا حرفيا ، يعتمد على المهارة والخبرة الزمنية ، أما الشكل الجديد فلا يزال طريقا مجهولا، ولم يدخل بعد مرحلة التنظير والتقعيد ، ونقاده العارفون به قليل ، ثم هو يحتاج الى نوع من الموهبة ، التي تعتمد على حرية الفنان والثقةبمواهبه• فالنغمة التي تسري في عروقه عند بعض الفنانين ، وتقوم مقام الوحدة العضوية ، نغمة طائرة متحركة ، تبدو سهلة وميسورة في نظر الكثيرين ، فيفلت منهم القياد ويضيع المنهج • فلقد أغرى هذا الشكل في القصة الكثيرين ، وتصوروا أن مجرد التحطيم كاف ، فقدموا لنا مشروعات مجهضة ، ليست فيها خبرة حرفية ولا موهبة فنية ، فهي اما غامضة هلامية ، غموض مشاعر مؤلفها • وهي اما مجرد ثرثرة أقرب الى ثرثرة الحياة اليومية ، والتي تحدث فوق المقاهي ، خلت حتى من عنصر الانتقاء •••

« والتصميم قد يضيع من بعض فنانينا ، بسبب سوء فهم لطبيعة هذا الشكل ، فقد يريد أن يستخدم الشعر فيفشل ، وتظهر نتيجة هذا الفشل على الشكل غموضا قاصرا غير فني • ان الغموض بمعناه الفني عند القاص الحديث ، لا يكون بسبب قصور في التعبير • ولكنه غموض معاناة ، وهنا سر « الغليان » الذي نجده فيالقصة الحديثة، انه اضطراب فيه الكثير من اضطراب التجربة ، صور متداخلة ، وألفاظ متضاربة ،

وأصوات يحطم بعضها بعضا . وكل هذا حتى يمكن التعبير عن الحالة الجديدة ، التي يحسها القاص . ولكنه ومع كل تلك الوسائل التي يبتكرها ، يحس أن هناك أشياء كثيرة وغامضة ، عجز عن التعبير عنها ، وهذا حق ، فالانسان وهو في حالة شعورية يكون في موقف غير عادي ، كله خصوبة وحياة . ويكون التعبير نوعا من القيد والتحديد ، ويجد صعوبة في الوصول بأدواته الى مستوى هذه الحالة ، التي تظل دائما تناوئه ، ويظل الفنان الحقيقي في قلق ازاءها ، وتتراءى له « كمثال » ، يحاول أن يقترب منه ، ولا يمل المحاولة ، وهو في كل محاولة يرسم أمامنا المعاناة والترقب والبدء من جديد ...

« ولكن والغموض فهم عند شبابنا فهما قاصرا ، لم يكن غموضا واعيا بغموض التجربة ، وما تقتضيه من عمق . ولكنه كان غموضا بسبب اختلاط المفاهيم ، وسوء الفهم لما يقتضيه الشعر كشعر ، وما تقتضيه القصة حين تستخدم الشعر . حقا ان القصة بوجه عام قد حققت اقترابا في المرحلة الاخيرة من جوهر الشعر . ولكن نقطة البداية لا تزال تختلف عند كل . الالفاظ في الشعر كائنات مستقلة ، وعالم قائم بذاته ، تتولد من تجاورها عملية جمالية . أما في القصة فهي مجرد معبر وليست مقصدا ، انها « كوبري » لتجسيد حالة شعورية ، انها تستخدم الشعر ، ولكن كوسيلة مع وسائل أخر ، للوصول الى حالة نفسية غير عادية ، وفي الوقت نفسه تحتفظ بطبيعة القصة » [1] .

وذلك التشخيص لظروف التجديد في العالم العربي ، ينسحب بكل ما فيه على وضع القصة في بلاد اليمن ، فالتجديد كما نرى في النماذج التي اخترناها لعبد الله الامير ، وحمزة هب الريح ، وأحمد الزبيري ،

(١) الاقتباسات السابقة من كتاب لي تحت الطبع ، بعنوان « القصة الجديدة والبحث عن شكل » .

يخلو من القلق والمعاناة والمبرر ، ويتحول الى نفثــات شعرية تتأبى عن التصميم الفني لشكل القصة الجديد •

ان قصة « انسحاب الارض » ، على الرغم من أسلوبها الشاعري ، وحركتها السريعة ، والامل الذي يتراءى في نهايتها ، الا ان التجديد في مفهومها يتخذ أسلوبا استعراضيا ، يتبــاهى بذكر الارقــام المسلسلة ، ويكدس العناوين الجانبية ، مثل (تهميشه ــ مدخل رقم / ١ ــ مدخل رقم / ٢ ــ مدخل رقم / ٣ ــ مدخل رقم / ٤ ــ مدخل رقم / ٥ ــ مدخل رقــم / ٦ ــ فلاش باك ــ الخــروج رقــم / ١ ــ الخــروج رقم / ٢ •••) •

ان هذا الاستعراض لا يخدم التصميم الفنــي ، ولا ينمي حركــة القصة ، فلن يضيرنا الامر في شيء ، لو حذفنا أحد هذه العناوين ، أو لو وضعنا الخروج مكان المدخل •

وقصة « ماذا تعني هذه المقابر » نفثة ضيــق من واقع عفن ، يشبه المقابر ، وحلم ان تتحول هذه المقابر ، الى منازل عامرة ، وأطفال يلعبون، ومصابيح مضاءة ، وبالقــدرة على أن يمارس المرء الحب علانية وبدون تردد ، حقا انها مليئة بالاسئلة الكبيرة واللجوجة ، ولكنها أسئلة طافيــة فوق سطح القصة ، تصدر عن نفس حانقة وجلة ، تريد ان تعرف ، وان تتحدى الاموات الذين يعرقلون رغباتها ، اكثر مما تصدر عن احساس كوني ، ومعاناة فلسفية •

وقصة « من لغو الصمت » نفثة عن لحظة ضيق ، بالواقع اليمنــي الذي يتعرض فيه للرشوة والاغراء ، ويسلك فيه المرء الطريق المعوج اذا ما أراد النجاح والاموال ، فيقرر الهجرة الى عالم بعيد ، يستطيع فيه ان يعيش بطريقة طبيعية ، انه يلغو في مقدمــة طويلــة ، يتحــدث فيها عن

تضاريس اليمن ، وجمال وديانها ، وجبالها الشاهقة ، ويلاحظ التناقض الحاد بين تلك التضاريس المهيبة ، وبين ذلك الانسان الضئيل ، فيجعله هذا يثور ، ويستخدم عبارات ذات شحنات انفعالية هائجة (يا قوم هذا خراب وتخريب لا أستطيع المشاركة فيه الا اذا استطعت أن ألغي عقلي ـ أهكذا ترضى الامور ان تسير فكيف يكون الجحيم اذن ـ هل هذا عذر يكفي لسلب الآخرين قلوبهم) •

ان هذه النماذج ينقصها الاحساس الكوني ، وتقترب الى ان تكون انفعالا مباشرا ازاء أوضاع تثير ، وتعبيرا عن حالة نفسية شخصية ، لم ينتظر الفنان عليها ، لكي تنضج وتسلك في عمل فني •

وربما كانت قصة « هوامش وأبعاد » ، أكثر تطورا من هذه الزاوية، فصاحبها أحمد محفوظ عمر يحاول أن يربطها ـ كما هي عادته ـ بأشياء كونية قدرية ، ممثلة في تلك اليد الطويلة المجهولة ، والتي هي مسؤولة عن مأساته « لا شك أنها كانت يدا طويلة ، سبحت في الفضاء من مسافة بعيدة ، حيث لم يتمكن من التنبــه لها أثناء الاقتراب من ظهره » ، انه بذلك يخلص القصة الى حــد ما من الاحاسيس الذاتيــة والانفعالات المباشرة •

وأقول الى « حد ما » لان القصة لا تزال مليئة بالعبارات الناقمة ، والالفاظ المباشرة ، التي تحمل شحنات غاضبة « هدهم يا ليل الازمان ، علّمهم يا خالق الانسان بمآسي العصر القائم ، فأنا بريء ولكن أحدا لا يسمع أحدا في الاجواء المبهرجة الصاخبة ، وكان عرس لاعراس وكان هو هناك حقيقة تناوىء الزيف والاوهام » • فضــلا عن ذلك الاستعراض الطويل للكوابيس والاحلام المزعجة والصورة المنفرة ، مما أصاب القصة بالترهل وحولها الى آلة عرض للمتاعب والهموم •

وربما كانت قصة « المايسترو البدين » هي أفضل النماذج التي اخترناها لتصور الوضع الراهن للحركة التجديدية في القصة اليمنية ، فقد سيطر عليها صاحبها كمال الدين محمد ، ووجهها كمشروع ، من خلال حركة أعطتها وحدة، وحمتها من التسيب والاستطراد، فهو يريد أن يعبّر عن الملل والركود ، لا بطريقة منفعلة ولا بعبارات مباشرة ، ولكن بصور تستثير ذلك الجانب ، وتجسد الركود ، وتثير التقزز ، انه يبدؤها بقوله «كان اللحن يزحف ببطء» وقف المايسترو البدين بسترته الضيقة السوداء، حتى ليكاد كرشه يندلق من بين أزرارها ، يلوح بعصاه السوداء القصيرة ببطء ، زحفت الانامل على الآلات الموسيقية ببطء ، بدأت الآذان تسترخي على مقاعد الصالة ، ذات الظهور الضيقة وتنام بالتدريج وببطء . أقعت المرأة ذات المؤخرة الضخمة كملكة نحل ، فاشخة فخذيها ، وبالت حزنا وكآبة » .

ان المؤلف يتبنى هنا نغمة بطيئة مسترخية ، تثير الملل والرتابة ، ولكن فجأة تعنف هذه الحركة وبطريقة هستيرية ، فان رد الفعل لهذا الاسترخاء أن تنفجر الامور ، وتفلت من أيدي أصحابها ، وفعلا ينفلت اللحن ويسرع « صاعدا سلم الغضب الاحمر ، والعصا القصيرة البدينة تركض لاهثة اثره ، وهي تنشف العرق الغزير بكم سترتها الضيقة ، محاولة اللحاق باللحن ، واللحن يصعد ويصعد متسلقا النجوم الى السماء » .

ثم تعود الحركة فتبطىء من جديد ، ويسيطر الملل والرتابة « عادت الايدي والافواه لتزحف في سراديب الآلات الموسيقية ببطء ببطء ، وعلى أرض الصالة المعتمة ، فشخت المرأة ذات المؤخرة الملكية ساقيها وبالت حزنا وكآبة ، واسترخت الكروش المنتفخة بالغازات على الحشايا الوثيرة، ثم انسحبت ببطء ونامت تحت مؤخرة المرأة الضخمة حيث الدفء (ستبيض عندئذ المرأة بيضات ملونة ، وستوزعها على الكروش في عيد

النسيم . وستغني جوقة المغنين « آمان ... آمان » ...) . انها صور ومواقف غير مباشرة يستثير بها المؤلف حالات الاسترخاء والرتابة ، دون أن ينجرف الى اللعنات المباشرة ، والعبارات المشحونة .

تلك هي النماذج التي اخترناها لتوضيح الحركة التجديدية ، الا ان هنـاك نماذج كنا في حل من اختيارهـا ، لانها لا تصل الى مستـوى الفن ، فهي مجرد اضطراب ، نتيجة ظروف شخصية ، ان لم نقل نتيجـة « أمراض نفسية » ، وينقصها بكل تأكيد الحس الكوني ، والعطر الفني أيضا ، انها مجرد هلوسة ، يتستر صاحبهـا وراء التجديد ، وهي حتما ستزول حينما تزول الحالة النفسية .

* *

٦ ــ ان المسؤول عن ضعف الاحساس الكوني هو قلـة الثقافة ، فالفنان اليمني ــ أو العربي بوجه عام ــ لا يغامر في أجواء فلسفية ، ولا يلقي بنفسه في معمعة التجارب ، ولا يصافح وجها لوجه ألغاز الحياة . انه يكتب أكثر مما يقرأ ، ويتفلسف دون أن يجرب ، ويميل الى الغموض دون أن يتعامل مع ألغاز الكون .

اننا نلتقـي بهذا السبب في كثير من المواقف ، التي لما تكتمـل ، ان الفنان اليمني يحوم ولا يرد ، فقد كتب زيد مطيع دماج قصصا عن مخاطر الجبل ، وأجاد جدل « لحظة اللقاء » مع الخطر ولكنه لم يفلسف مواقفه ولم تثر لديه القلق من رعب الحيـاة أو خطر الكون ، كما كان يفعـل الكتّاب الامريكيون أمثـال فوكنر . وعبد الله سالم باوزير تعـرض للصدفة ، ولكنها كانت صدفـة مثل التي تجري مع أي انسان في الحياة العادية ، لم يفلسفها كل فعل سارتر ، ولم تهزم لكي يتساءل عن طبيعـة الحياة . ولم يكن على الاقل مثل المازني ، يرتفع بخيبة الامل الى سخرية

من الذات ، تكاد تقترب في مرارتها من قلق الفلاسفة • وعلي محمد عبده كتب عن مجتمع العمال الكادحين ، واستمد من واقــع تجربته ، ولكنه أسرف في تعداد صور المعاناة ، ولم يتغلغل داخل التركيبة النفسية ، ولم يتجسس على الملامح الداخلية كما كان يفعل جوركي ، أو لم يرتفع بهذه الصور الى مواقف فلسفية كما كان يفعل كامي •

* *

٧ ـــ وهذا الموقف نفسه نلتقي به في القصص التي تعرضت لغربة اليمني ، فان القاص أسرف في وصف مجتمع المهاجرين ، وما يقاسونه من متاعب وعقبات ، ولم يرتفع بقصصه الى مجــال فلسفي • ان موضوع الغربة محوط بالانفعال ، ويمس وترا حساسا في نفس اليمني ، ومن هنا نراه يسكب انفعالاته بسرعة ، تستثير الوجدان ، وتحرك العواطف •

ان المتتبع للقصص التي دارت حــول هذا الموضوع ، يستطيع أن يستشف نظرة اليمني ، نحو أهم مشكلة تعترض مجتمعه ، وتطور تلك النظرة •

لقد كان الجيل الاول يتعرض لهذا الموضوع ، من منطلق انه واحد من هؤلاء المهاجرين ، فقد كان يتحدث عن أصالتهم وطموحهم وتحديهم للمصاعب ، ويتعاطف مع تجربتهم ، ويكشف عن الجوانب الانسانية التي يحرصون عليها في مجتمعهم الغريب •

ان قصة « بائع الموز » تحصي المتاعب ، التي يتعرض لها عامل مهاجر ترك بلاده لانه لا يجد فيها قوتا ولا أرضا ، وأتى الى المهجر هو وأسرته سعيا وراء الرزق ، ان المؤلف يكدس المصائب حول هذا العامل « الغضون تملأ وجهه رغم صغر سنه ، وكرشه منتفخ يدفعه أمامه بمشقة ، وجسده

نحيل لا يكاد يقوى على حمل ذلك الكرش المنفوخ » ، انه بذلك يريد أن يستثير العطف والشفقة ، ازاء هذا المكافح الذي لا يجد الرحمة ، لا من صاحب العمل ولا من « الشاويش » ولا من كل الظـروف ، والتي تحطم أقوى الابطال ، ولكنه مع ذلك صابر ، يقول كلما ألمت به مصيبة « الله كريم سأبحث عن عمل » .

تلك هي عادة علي محمد عبـده في قصصـه ورواياته ، يميـل الى استعراض حياة العمال المهاجرين ، ويحصي متاعبهم ، فهو كواحد منهم يجد متعة ذاتية في اجترار الذكريات والتغني بالكفـاح ، ولو كان ذلك على حساب فنية القصة التي تضيق باستعراض المواقف المتشابهة ، وتفضل تصوير العلاقات بين الشخصيات المختلفـة ، ورسم الصراع الذي يحتد نتيجة تضارب تلك العلاقات .

ولكن الجيل الجديد أخذ يحلل قضية الغربة من أساسها ، لقد مرت فترة زمنية كافية ، ونشأ جيـل جديد في المهجـر ، وتعرض لظروف لم يتعرض لها الجيل السابق ، لقد بدأت نتائج الهجـرة تتجسد في تكوين هذا الجيل ، الذي أخذ يحس بالضياع والتمزق ، انه لا يشعر أنه يمني كامل اليمنية ، ولا حبشي كامل الحبشية مثلا ، فأخذ يثـور ، ويناقش قضية الغربة من أساسها ، ويواجه الجيل السابق .

ان قصة « مومس » تتعرض لفتاة من أب يمني وأم حبشية ، مـات أبوها في الهجرة ولم يترك لها شيئا ، انها تحس بالضياع وتغير اسمها ، ودينها وتحمل الصليب ، وتود لو تغير لونها لو استطاعت ، حتى لا يعرف أحد أنها مولدة ، ان المؤلف يصورها في لحظة هيجان نفسي ، تثور خلالها على هذا الاب الذي أتى « ليزرعني ويموت كالكلب ، أو وجوده كله لوجود هذا الشقاء » . ويمر عليها وهي في ذروة انفعالها شبح يترنح ، انه واحد من جيل الآباء ، كان كبيرا ، وربما مضت عليه سنون لا تحصى،

وكان يلهث ورائحة قذرة تفوح من فمه ، رائحة خمر رخيصة ومتعفنة »٠

ان المؤلف يضعنا مباشرة أمام نموذجين يجسدان نتائـج الغربـة ، نموذج هذا العجوز المترنح والذي يعيش مع الذكريات ، ونموذج تلك المومس التي فقدت كل شيء حتى الذكريات ، انهما ضائعان كتلك الانجم التي تضيع في السماء ٠

ان تلك النبرة التي ترتفع ضد جيل الآباء ، تمثل ـ على الرغم من عنفها ـ بداية الطريق الصحيح ، انها نظرة واقعية وتحليلية ، أنضجهـا البعد الزماني الكافي ، والنتائج العينية لموقف المهاجرين الاوائل ، لم يعد الامر أمر عواطف تراق ، أو ذكريات تجتر ، بل أصبح المطلوب هو اعادة النظر في القضية من أساسها ٠

ان هذا يطرح موضوع « العودة » ، بدلا من موضوع الغربة ، ولا شك أنه هو الطريق الصحيح ، لبناء المجتمع اليمني من الداخـل ، على الرغم من صعوبة هذا الطريق ومتاعبه ٠

* *

٨ ـ وتلك الملاحظة تنسحب على « قصة السياسة » فقد كانت ـ في معظـم الاحيان ـ انفعالية مبـاشرة ، وكأنها التعليق على خبـر ، أو « المانشيت » الذي يستثير القارىء ، لا تتعمق الاحداث ، ولا تفلسف الامور ، ولا تعالج القضايا بهدوء وصبر ٠

اننا نسجل للقصة في اليمن أنها استطاعت أن تعكس المشكلة الاولى في مجتمعها ، باعتبار أن ذلك النوع من الفن يرتبط بهموم واقعه ، وله من موضوعية النظرة ، ما يمكنه من الاستجابة السريعـة لقضايا واقعه ،

انه فن مرتبط بالصحافة وبالناس ، ليس من طبيعته أن يكتفي باجترار الهموم ولا بالتحليق في قضايا ميتافزيقية .

لقد عكست القصة هموم الناس في الشمال ازاء مشكلة الغربة . وأيضا فان القصة في الجنوب اهتمت بالمشكلة الاولى ، وهي نفوذ الاستعمار الاجنبي في البلاد .

كان ذلك منذ أن بدأ هذا المجتمع يعرف القصة فيأوائل الاربعينيات، وارتفعت تلك النغمة في الخمسينيات مع ارتفاع المد القومي ، وظل ذلك مستمرا حتى اليوم .

ان القصة السياسية هي المسيطرة في الجنوب ، بحيث استقر في الاذهان — وبنوع خاص في فترة الخمسينيات — أن مفهوم القصة يرتبط بالمعركة ، ويكون مقابلا فنيا أو فكريا للمدفع والبندقية وأساحة الميدان، يقول أحمد سعيد باخبيرة وهو يقدم مجموعة « الانذار الممزق » [1] .. « ان شعبنا اليوم يخوض معركته من أجل التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي والوحدة ، وفي سبيل انجاز هذه المهمات يجب أن نجند كل قوانا ووسائلنا وامكانياتنا ... والفكر وسيلة خطيرة في أيدينا من جملة الوسائل التييجب أن نلقي بها في المعركة». ويشيد أحمد شريف الرفاعي بهذه المجموعة على غلافها الاخير لانها « صورة من صور الكفاحالبطولي، الذي يستبسل ضد قوى الطغيان ، وترخص فيه الروح . في سبيل أن

(١) وهي المجموعة الاولى لاحمد محفوظ عمر ، وقد صدرت سنة ١٩٦٠م بعدن . وقصة الانذار الممزق التي سميت المجموعة باسمها ، عن شيخ القرية الذي رفض انذار المستعمر بتسليم قريته ، ثم مزقه . وقد تعرضت القرية بسبب ذلك لقصف المدافع والطائرات ، ودكت لأن البقاء — كما يقول القاص — « لمن يقتل نفوسا اكثر ويدمر كل عامر » .

ينتصر الشرف ، حتى وان قهرتـه القوى المادية ، فهو يضرب للاجيـال القادمة مثلا رائعا ، هو أنشودة الثار من قوى العار » .

وفي ظل ذلك المفهوم كانت القصة السياسية في الجنوب ، جزءا من الاحداث السريعة ، تتميز بالانفعال والتوتر والانتقال المفاجيء واختفاء الصراع ، والاحتفاء بالمثالية والبطولية الخارقة ، وارتفاع صوت القاص وكأنه يخطب في محفل ، أو ينشد أنشودة بطولية .

ففي قصة « وراء جسر الذكريات » يقارن حسين سالم باصديق بين الماضي والحاضر ، لقد كان جيله القديم يجلس في المقاهي ، ويهدر طاقته في الشغب واللعب ، أما الجيل الحالي فقد وجد طريقه ، وها هو يتدرب في الميليشيا الشعبية ، ويكافح الامية ، ويستغل وقته ، فعلى الرغم من ان هذه القضية تعتبر خطوة في تملك الشكل بعد أحمد البراق وكتاب « فتاة الجزيرة » ، الا انها لم تتملكه تماما، فهي تنتقل من موضوع الى موضوع، ويحدث التحول في شخصية علي بطريقـة غير مبررة وغير ممهد لها في ثنايا القصة ، فقد كانوا يلقبونه وهو صغير بالشيخ علي ، وقد رباه والده على التزمت والعزلة ، وفجأة يتحول الى قائـد من قواد الميليشيا ، دون أن يصاحب ذلك صراع نفسي وتحول داخلي ، ان المؤلف يجنح في مواطن كثيرة الى استخدام الادوات التي تحمل شحنات انفعاليـة ، مثل « وان كان الانسان لا يعرف شيئا ، فلا بد أن يتعلم ويتـدرب لكي يعـرف ، ويعرف الكثير ، تلك التقاليـد التي أرهقت الماضي بكواهـل ثقيلة قد جرفتها السيول بعيدا ، بعيدا ، بعيدا ـــ هذا واجب على الكل يا رفاق ومن أثبت جدارة يثبتها بطموحاته وجده ـــ حنانيك ـــ أبهذا المثل الاعلى طموحات الانسان لا تقف عند حد ، أصبح الانسان ينوؤه أن يرى نفسه خلف المسيرة » .

أما قصة « القوي والاقوى » فهي ذات شكل متقدم ، ان صاحبها

يعتمد على « تكتيك » السيرة الشعبية ، لكي يجعل من بطل‌قصته أنشودة على لسان الشعب ، فخميس العفيفي وجيشه الصغير كان « كابوسا مزعجا يقض مضاجع ضباط القيادة العليا البريطانية في مستعمرة عدن » كما يقول • وتحركت الامبراطورية لمحاربته ، وحين هزمته وقبضت عليه أصبح سيرة يلهم بها « عبده تشوته » في مجالس السمر ، وجعل يضخم بطولاته ويضفي عليه الخوارق ، والناس يصغون ويتحمسون ، وتحركت القوى الاستعمارية مرة أخرى ، وألقت القبض على « عبده تشوته » ولكن حل محله راو آخر هو « مهدي » ، الذي جعل يقرأ على الحاضرين رسائل عبده ، يرسلها خفية من سجنه •

وعلى الرغم من هذا الامتداد والتنوع في العرض ، فان المؤلف لم يصعد فوق الاحداث ، ولم يفلسف المواقف ، ولم يتخلص كلية من الالفاظ المباشرة والقاء النصائح •

ان القوي في العنوان هو الامبراطورية الانجليزية ، ولكن الاقوى هو عبده تشوته الذي تعلم « كيف يفهم قدر نفسه ، وكيف يفهم حدود قدرته ، وكيف يكيف نفسه للدوران داخل هذه الحدود دون أن يتجاوزها ، ومع ذلك كثيرا ما حاول أن يتجاوز هذه الحدود » • انه في نهاية القصة يصرخ في الجند : « لا ، أنا أقوى منكم ، صحيح انكم تملكون القدرة على قتلي بسهولة ، ولكن ليس هذا دليلا كافيا على قوتكم ، بل ربما كان دليلا على العكس ، تستطيعون قتلي ، نعم ، لكنكم لا تستطيعون قهري ، تلك هي القضية ، لذلك فأنا أقوى منكم ، بل أنا أقوى ممن هم أقوى منكم » •

ولم يتغير الوضع بعد الاستقلال ، فقد ظلت القصة السياسية تكتب من منطلق أن الادب سلاح في المعركة ، وقد تلبس روح هذه الفترة

الكاتب الشاب « ميفع عبد الرحمن » ، الذي جند نفسه لخدمة القضايا الجديدة ، ومناصرة الجماهير ، ولكن بالحماسة الشديدة نفسها ، فجعل يسب الاستغلاليين بدلا من الاستعماريين ، والمدير البورجوازي بدلا من المدير الاجنبي ، ويصفهم بأنهم كلاب وخنازير ، وجعل يشيد بالتعاونيات والتنظيـم الجديد ، ويدعو الى حمل السلاح ، وعدم مهادنة الخونة ، وتتحول بعض قصصه الى منشور يدافع فيه عن حقوق العمال، فشخصية كامل في قصة « يرفضون الحياة في الظل » [1] لم تظهر في أول القصة ، الا لتلقي كلاما عن العمال ومعسكرات الشباب ، شبيها بمقالة صحفية أو خطبة سياسية ، ثم اختفت ولم نجد لها ظلا حتى نهاية القصة ، لانها أدت دورها بالمفهوم السياسي للادب .

ولكنه في قصة « الوضع الآن جاد جدا » كان أكثر ادراكا لظروف واقعه ، ان الامر ليس أمر نظريات تطبـق ، أو تحمسا لقضايا مجردة ، ولكنه واقع يجب أن يفهم وأن يبدأ منه ، ان ميفـع هنا يشخص بدقـة الظروف التي تمر بها الشعوب عقب الاستقلال، ان الوضع حينذاك يكون جادا جدا فالجمهورية تتحول الى مجرد علم وسلام جمهـوري ومكتب لوزير ومعسكر لعقيد ، وتظهر طبقـة جديدة يكون همها الصعود الى كراسي الحكم ، واستغلال النفوذ ، والاستئثار بالمصالح ، بينما الطبقة الشريفة العاملة تعاني من الاهمال والحاجة والاضطهاد « مرميون هنا في المطبعة على الارض ، نسبح في بركـة من القيء ، وفوقنـا أسراب من الصراصير والذباب تأكل من لحمنا » .

ولكنه على الرغم من التحليل الدقيق لواقعه ، وعلى الرغم من تملكه للشكل وقدرته على التراوح بين الداخل والخارج ، وعلى الرغـم من أسلوبه السريع والمتحرك ــ على الرغم من كل ذلك كان منفعلا ومتضايقا

(١) الحكمة (سبتمبر ١٩٧٤م) .

لدرجة كبيرة « فحبال الثورة طويلة والعمر قصير » كما يقول . مما جعل القصة تتحول الى صدام بين فريقين ، الفريق الذي قفـز الى الحكم ، والفريق الآخر الذي يطمـح الى التغيير . يقـول الفريق الاول للثاني (مواطن ملوث مستورد ــ زمانه الآن في جهنم يعتذر لماركس وانجلز عن فشله ــ شيوعيون كلاب أينما تذهب تجدهم ، سنصفي الارض منكم ونصفيكم منها) . ويقـول الفريـق الثاني للاول (أنت واهم اذا كنت تحسب أن اليمن ستكون وطنا لابن شيخ قبيلة رصع الانجليز أكتافـه بالشارات العسكرية ــ خسئت شعرة واحدة من رأس رفيق منزوعـة بأيديكـم سننزع عليها حناجركم واحدا واحدا ــ سنرى من سيصفي الآخر ، عساكر أوباش يضيع كل شيء على أيديكم ، سنصفيكم صبـاح يوم ما) .

وبسبب هذا الانفعال الذي تشي به عبارات السباب السابقة ، عاش المؤلف أسير واقعه ، ورهين الظروف الخارجية ، فلم يصعد فوقها ، ولم يحلل النفسيات ، ويعمق دوافعها .

* *

٩ ــ ولكن القصة اليمنيـة استطاعت في مسيرتهـا ، أن تعبر عن جوهـر الشخصية اليمنيـة ، وأن تشير الى « قاسم مشترك » يحفظ اليمنيين من التذبذب والضياع ، ويغرس في نفوسهم الثقـة والامل ، في ظل أوضاع قد تكون قاسية ومثبطة .

وهي لم تصل الى ذلك دفعة واحـدة ، بل تطورت نحوه بطريقـة منطقية فقد كانت القصة في أول الامر وعند جيل الرواد ، تلتقط شخصية من الواقع ، لها اسم معين ، وملامح جسدية ، ومشغوليات ذاتية ، وتركز عليها المصاعب من كل جانب ، وبطريقة تستثير العطف والاشفاق .

ان قصة « خاتمة العم مسفر » هي من بقايا ذلك الاتجـاه ، فهي تستعرض تاريخ حياة شخصية يمنية ، هي العم مسفر ، تستثير القارىء بطرافتها وتميزها ، ثم تكدس عليها المصائب ، حتى انتهت حياتها بطريقة ساخرة فكهة خففت من سردية القصة ، تماما كما كان يفعل محمود تيمور يلتقط من واقعه شخصيات غريبـة وشاذة ، ثم يصورها وكأنها طرفـة من الطرف •

ثم أخذت القصة تصعد خطوة أخرى ، فبدأت تصور « نموذجا » ، قد يرمز الى أسرة ، أو طائفة ، أو حتى الى المجتمـع كله ، فانتقلت من الذاتية التي تصور شخصا ، يحمل — في كثير من الاحيان — ظلالا من حياة المؤلف ومتاعبه ، الى الموضوعية التي تصور شريحة ما •

ان قصة « السفينة » تصور لحظة خطر ، تختبر نوايا الرجـال ، ان الذي يهب لانقاذ السفينة في تلك اللحظة الحرجة ، هم فئة الكادحين من أبناء البلد نفسها ، اننا نجد المصري المتحذلق ، والرأسمالي صالح الشيخ مدير المؤسسة الحديثة ، يستبد بهما القلق ، ويقتلان الوقت في التدخين ، ولا تمتد أيديهما الى العون لانقاذ السفينـة ، انهما يكتفيان بعبـارات التشجيع وبتقديم سجاير « البلمونت » ، والشاي في أقداح مذهبـة ، بينما أسرعت قوارب الصيادين وأنقذت السفينة من الغرق •

ولكن القصة — على الرغم من مواقفها الشعريةولوحاتها الطبيعية — لا ترتفع فوق الشخصيات ولا فوق الغضبة الشخصية ، ولا تتبنى موقفا جوهريا • انها تكتفي بالاشارة الى هؤلاء اليمنيين الكادحين ، لتغرق في السخرية من الآخرين ، من ذلك المصري الذي تبدو ابتسامته كالزيت في اسنانه الصفراء ، ومن ذلك البورجوازي المتكلف •

وربما كانت قصة « السفينة العرجاء » ذات نظـرة أعمـق من هذه

الناحية ، انها تصور أيضا لحظة خطر ، ولكن تلك اللحظة يعانيها انسان مثقف مهموم ، فتحس من أول جملــة بالقلق الذي يجتاحه ، ويظل هذا القلق يصحبه في ثنايا القصة وحتى نهايتهــا ، فمن هنا تميزت بالحركــة وبالاسلوب الذي يعبــر عن المعاناة ، ولم يكن هذا القلق بسبب أمــر ميتافزيقي ، بل بسبب احساس بأن السفينة توشك أن تغرق .

ان السفينة هنا هي رمز للمجتمع الغافل البليد ، وان المتكلم هو رمز للنبي أو الداعية أو المثقف أو الشاعــر الذي يحس بالخطــر ، فهو قلق ويتحرك من أعلى السفينة الى أسفلها حتى يستطيع أن يجد من يتجاوب مع دعوته ، لقد تجــرأ مرة وباغتهــم بهذا السؤال « الى أين نسير أيها السادة ؟ » ، ولكن الرؤوس عادت الى وضعها الطبيعي « واختفت العيون النشوانة تتلألأ كعقد ذهبي على نهد فتاة في وهج نهار قائظ » .

ان اللحظة هذه يمكن أن تتكرر ، ويمكن أن تغرق السفينة في احدى المرات ، ما دام المجتمع غافلا عن صوت الخطر ، الممثل في التناقض الحاد بين « الاجساد الناحلة والعظام البارزة والوجوه الصفراء المخيفة » وبين « الاجساد المغطاة بأطنان اللحم والشحم المنتفخة الاوداج » .

ان المؤلف لا يقف عند حد اصطياد شخصية طريفــة ، أو عند حــد التغني بفئة الكادحين ، ولكنــه يسقط مباشرة على المجتمع . ويحــذر بطريقة مهمومة قلقة من الاخطار التي تحدق به . حقا ان ضمير « الانا » يقفز بين الحين والحين ، ولكن الحركة الدائبة بين الواقع وهموم المؤلف ، والحرارة في التعبير ، يخففان بعض الشيء من ثقل هذا الضمير ، فنشعر بأن هذا الضمير يطل علينا بدافع من الخوف على مجتمعه ، وليس بدافع من يريد أن يفرض نفسه ويتباهى بالقاء النصائح .

ثم أخذت القصة تصعد الخطوة الاخيرة ، انها لم تعد تكتفي باصطياد

فرد ، أو بالحديث عن فئة ، أو حتى عن المجتمـــع ، بل أخـــذت تتشبث بالجوهر والاصالة ، من خلال شخصيات هي رمز لليمن كلها .

ان قصة « رحلة » هي النمـــوذج الدال على ذلك ، فقد تخطى زيد مطيع دماج قصصه السابقة مثل « الزماري » [1] و « فتاة مدبرة » [2] ، والتي كان يصور فيها ملامح نفسية من واقع مجتمعه ، وأراد في قصتــه « رحلة » أن يتشبث بشيء جوهري يحفظه من الضياع والتشتت .

تبدأ الرحلة في جو مليء بالغبار والقيء والاتربة ، والجبال القاحلة ، والشخصيات التي تثير الاعصاب ، والاحاديث المملة حول المشارعة [3] والرعاة [4] الغلاظ ، والمشاجرات التي لا تنتهي .

ان من يقف عند الظاهر يثور ويرمي الشعب بالجهل والتخلف ، وقد حدث هذا بالفعل من الرجل المهندم البدين ، الذي يلبس نظارة طبيـــة ، غاليـــة الثمن ، « وكرافتة » من لون البدلة ، فقد أخـــذ يسب ويسخط ويلعن هذا الشعب « شعب لا يعرف أحد ماذا يريد ، اذا قمت بالاصلاح قيل طغيان ، اذا سعيت له بالسلام قيل استسلام ، اذا جلبت له العـــون والمساعدات قيل ارتماء في أحضان الرجعية والامبريالية ، شعب يريد أن يظل بحيرة تتصارع فيها الامواج الهائلة » .

ولكن المؤلف لا يقف هذه المرة عند الظاهر ، ويكتفي باثارة السخط

---

(١) مجموعة « طاهش الحوبان » ص ١٠٠ ، وقد صدرت هذه المجموعـة سنة ١٩٧٣م (القاهرة ــ دار الهنا) .
(٢) الحكمة (اغسطس ١٩٧٥م) .
(٣) القضايا التي يشترعون حولها في المحاكم .
(٤) الفلاحين .

كما فعل أحمد محفوظ عمر في قصة « الدحداح » [1] ، فقد ترك الحافلة ساخطا وضرب في أعماق الصحراء .

أما زيد هذه المرة فقد تبنــى شخصيتين ، تظهران وسط هذا الجو الحالك ، فتبشران بالخير ، وتحفظان المرء من السقوط ، احداهما شخصية الرجل ذي الكوفية الخيزران ، والاخرى شخصية الفتاة المشرشفة .

فالرجل ذو الكوفية هو اختصار لتاريخ اليمن ، هاجر الى أمريكـا وعمل هناك وأنجب الاولاد ، ثم عاد الى اليمـن ، واشترك في حروبها ، واعتقل اكثر من مرة . انه على الرغم من قلة ثقافته الرسمية ، يمثل الخبرة والتجربة والحضارة المترسبة في أعماق اليمني ، انه لا يقف عند الظواهر، فهو يسخر من حديث الرجل المهندم ، ويعيب على المثقفين لانهم يتمسكون بقشور التاريـخ ، وهو في أحلك الظـروف التي تمر بها الرحلة يتشبث بعبارته الشهيرة « الشعب اليمني حضاري بطبعه » .

ان المؤلف في النهاية ، وبعد أن تصل الحافلة الى صنعاء ، يبحث عن تلك الشخصيـة ، فيفاجأ بأن أناسا كثيرين يلبسون الكوافي الخيزران ، حتى الصبي الصغير الذي كان يقـود « الموتور » [2] كان يلبس أيضا كوفية خيزران أكل العرق نصفها الاسفل .

أما الشخصية الاخرى فهي رمز لليمنـي الحديث ، لقد كانت فتـاة مشرشفة [3] ولكنها جريئـة وصريحة ، ووقفت مواقف لا يقفها الرجال أنفسهم ، فهي التي نهرت الصبي الذي كان يتفوه بوقاحـة « ما كل قلة

(١) الأجراس الصامتة ، ص ٦٠ ، وهي المجموعة الثانيـة لأحمد محفوظ عمر وقد صدرت سنة ١٩٧٤م (بيروت ــ دار ابن خلدون) .
(٢) الدراجة البخارية الصغيرة ، وهي كثيرة في شوارع صنعاء وتستخدم للاجرة .
(٣) تلبس الحجاب اليمني .

الادب هذه يا ولد ، اجلس والا أنزلناك من الباص هنا وفي هذا القاع »، وهي التي صاحت في المشارعين بأن المستقبل « سينهي كل تلك الاوراق البالية ويريح الكثير من أمثالكما » ، وهي التي أنهت حصار العساكر ، وصفعت أحدهم صفعة اهتز لها ، وجعلتـــه يعيد مسجلهـــا والذي كان يشدو بأغنيتها المفضلة •

* *

١٠ ـ ان صورة تلك الفتاة المشرشفة ، هي انعكاس لتغير صورة المرأة في الفترة الاخيرة ، فقد كانت قصص الرواد الاوائل تصور المـــرأة في فلك الرجل ويشكلها حسب رغبته ، أو كانت تخلو تماما من صـــورة المرأة •

ان رواية سعيد [١] لمحمد علي لقمان تصور الزهراء مريضة ومعقدة نفسيا ، بسبب الكبت والحرمـــان ، حتى اذا ما هداها سعيد لنفسهـــا ، أخلصت له وجعلت تدافع عن مبادئه •

وقصص علي محمد عبده تخلو من صورة المرأة ، فهي قصص تدور حول مجتمع العمال وما يقاسيه ، وتخلـــو من النسمـــة الرقيقة واللمسة الحانية ، قد تظهر فقط في صورة أم ، ليلة وداع ابنها الصغير ، والذي بدأ يهاجر ، ولكنها ـ حتى في مثل هذا الظرف ـ تخفـــي عواطفها بكل قوة ، حتى لا يتأثر ذلك الابن ويلين أمام العقبات ، التي حتما تنتظره •

ولكن صورة المرأة قد بدأت تتغير في قصص الجيـــل الجديد ، فهي عند « ميفع » تثور على التقاليد ، وتتحدى البيت • وتبدأ قصة « ليكن جحشا المدعو حبيبي » [٢] بعبارات نارية « الآن لم يعـــد أمامي الا ان

(١) أول رواية يمنية ، وقد صدرت في عدن سنة ١٩٣٩م على ما ارجح .
(٢) بكارة العروس ، ص ٥٥ ، وقد صـــدرت هذه المجموعـــة القصصية سنة ١٩٧٠م (عدن ـ مؤسسة ١٤ اكتوبر) .

أشعل النار داخل بيتنا بكل ما فيه من الكلاب الكبيرة والصغيرة » .

والمرأة في قصص أحمد غالب الجرموزي ثائرة على المجتمع ، وتجابه مواقفه المتزمتة بمواقف متطرفة ، فهي في قصة « الحمار » [1] تنتقم ، لان المجتمع زوّجها من رجل كبير فتستغفله ، وفي قصة « الجوع » [2] تسعى لارضاء حرمانها بأية طريقة . وفي قصة « مذكرات خنفوسة يمنية » [3] تتحدى المجتمع وتخرج سافرة ، وفي قصة « هذه بتلك » [4] تنتقم من زوجها الخائن فتجلب « عباسا » الى منزلها ، وحين يكتشف الزوج أمرها لا تزيد على أن تقول له « هذه بتلك » .

حقا .. ان الكثير من التطرف في موقف الجيل الجديد ، ولكنه رد فعل للجانب المقابل والمتزمت ، ومن الطبيعي أن يصحب البداية الكثير من العثرات والمبالغة ، ان دلالة هذا كله ، على الرغم مما فيه من تطرف، ان المرأة قد بدأت تتغير في المجتمع اليمني ، وانها لم تعد تكتفي بدور الغائب عن اللعبة ، أو بدور التابع على أحسن الحالات .

ان هذا ايذان بتغير مركز المرأة في واقع الحياة ، وفعلا نرى المرأة الجديدة تساهم في الميادين التعليمية والوظيفية ، وتحاول بكل همة أن تستعيد الكثير مما فاتها .

وفي ميدان القصة بدأت المرأة تساهم بدورها ، وبرزت في الآونة الاخيرة ، أسماء كثير من القاصات ... حقا ان قصصهن لا تخلو من

---

(١) الحراس (يوليو سنة ١٩٧٥م) . وهي مجلة شهرية تصدر عن وزارة الداخلية بصنعاء .

(٢) الحراس (اغسطس ١٩٧٥م) .

(٣) الجيش (يونيو ١٩٧٥م) . وهي مجلة شهرية جامعة ، تصدر عن القوات المسلحة اليمنية ــ صنعاء .

الثورة (٦ــ١ــ١٩٧٦م) وهي صحيفة يومية تصدر بصنعاء وقد تأسست سنة ١٩٦٢م.

مسحة ذاتية ، ومن تضخيم للمآسي ، ومن اراقة للدموع ولو بدون مناسبة . ولكنها الخطوة التي لا بد منها ، انه ليس بالهين أن تبدأ المرأة تستشعر همومها ، وتحلل عواطفها ، وتفكر في مآسيها ، انها الخطوة التي لا بد منها ، لوضع اللاشعور تحت منظار المراقبة ، والتفتيش فيه ، وهي الخطوة التي ستمهد بلا شك الى الموضوعية والموقف الايجابي .

ان مساهمة المرأة في هذا الميدان ستكسب القصة نغمة جديدة ، حانية وتخفف من عالم الكآبة وتلطف من الغضبات الشرسة التي تنسكب في القصة ولو بدون مناسبة .

وقد اخترت قصة « الثائر الصغير » كمثال للقصص النسائي ، وعلى الرغم من انها كتبت فيما يبدو لطلاب وطالبات الصف السادس الابتدائي، وللمسابقة التي أجراها المجلس الاعلى لرعاية الطفولة ، الا أنها لا تختلف من حيث المستوى الفني عن كثير من القصص الاخرى التي تكتبها المرأة اليمنية .

لقد سبق لي ان قلت في هذا الصدد « انه لشيء ثقيل للغاية أن تعالج هذه البدايات بمنظار النقد الموضوعي ، بل ربما يكون ذلك معرقلا للمسيرة ، وخاصة أن المرأة في ظل تلك الظروف حساسة ، ويمكن أن تتوقف لادنى سبب ، يكفي اننا نحس في هذه البدايات بعطر جديد . ولا شك لو انها لقيت التشجيع من جانب ، ثم التصميم من الجانب الآخر ، فسنطلع على عوالم خفية ، لا يستطيع الرجل وحده أن يعبّر عنها لسبب بسيط ، وهو أنه لا يعرفها » [١] .

* *

(١) القصة اليمنية المعاصرة، ص ١١٦ ، (بيروت ـ دار العودة ـ منشورات دار الكلمة اليمنية) .

١١ ــ فاذا ما سئلت أخيرا عن مستقبل القصة اليمنية ، فان ذلك مرهون بتنشيط الحركة النقدية ، ان القاص اليمني يعمل في غيبة تكاد تكون تامة عن رقابة النقد •

فالنقد في الشمال مع ندرته ، يكون اما تعليقا خفيفا ، او مقدمة لمجموعةقصصية، ومقدمات الكتب ــ كما يقول الدكتور حسين فوزي ــ كفئران السفن تغرق بغرقها •

والنقد في الجنوب قد انحرف عن النواحي الفنية ، ليقيس الادب بكمية ما يحتوي من مضامين سياسية وثورية ، فمنذ مقال « الطبقة الكادحة في يوميات ميرشت » [1] ١٩٥٦ ، وحتى مقدمة رواية «مرتفعات ردفان » [2] ١٩٧٦ ، والناقد يفهم القصة على أساس أنها سلاح من أسلحة المعركة ، ويقيسها بمقاييس خارجية ، دون أن يتلبسها من داخلها ، ويكشف عن سر حركتها الذاتية •

وقد بدا لي أن أقوم بتجربة طريفة ، فترصدت القصص التي نشرت في صحيفة الثورة ، فكانت قصتين سنة ١٩٧٣ ، واثنتا عشرة قصة سنة ١٩٧٤ ، وخمسين قصة سنة ١٩٧٥ • ثم ترصدت النقد القصصي ، الذي نشر في تلك الصحيفة وفي الاعوام نفسها ، فكان مقالين سنة ١٩٧٣ ، وثلاثة مقالات سنة ١٩٧٤ ، وثلاثة مقالات سنة ١٩٧٥ •

---

(١) كتب هذا المقال «أحمد شريف الرفاعي» ، ونشره في صحيفة «اليقظة» (٢٩ ابريل سنة ١٩٥٦م) ، وهو يتعرض بالنقد لرواية « يوميات ميرشت » التي نشرها الطيب أرسلان في أوائل الاربعينيات .

(٢) كتب المقدمة « سالم عمر بكير » ، وهذه الرواية من تأليف حسين صالح مسيبلي ، وقد نشرت في عدن (مؤسسة ١٤ أكتوبر ــ سنة ١٩٧٦) ، وهي عن الحروب في جبال ردفان لمقاومة الانجليز .

ان دلالة تلك التجربة أن القصة تتكاثر في حركة غير موازية للنقـد وقد كانت لذلك نتائج خطـيرة ، أهمها أن الكثـير من تلك القصص لا تستكمل النواحي الفنية ، وان هذا التكاثر كمي فقط ، كتكاثر الاعشاب البرية ، فليس مهما أن تقفز حركة النشر من قصتين الى خمسين ، ولكن الاهم هو الاضافة الفنية لتلك الحركة ، ان الكثير من تلك القصص لا يختلف عن الاحداث اليومية ، او الحوادث الصحفية ، او ثرثرة العجائز، أو حديث الاصدقاء .

ان القاص اليمني كالجندي المجهول ، يكتب ويطبع ويوزع ، ثم لا يجد من يلتفت اليه . ان أخشى ما أخشاه في ظل تلك الظروف ، التي لا تمد يد التشجيع ، أن يقف القاص اليمني ولا يتطور ، أو يصاب بأسلوبه بالتلكؤ ، أو ينتهي الى الصمت . وتلك حالات قد حدثت بالفعل ، فهناك من صمت كصالح الدمان ، وهناك من فتـر حماسه كعلي محمد عبده ، والكثيرون يدورون في حلقة مفرغة ولا يتطورون الى الامام ، والقصـة الاخيرة عندهم لا تختلف عن القصة الاولى الا في العنوان .

ان كل أمنيتي ان تنتقل تلك الخشيـة بكل أبعادهـا الى الكتّاب اليمنيين ، وهم والحمد لله كثيرون ، ومرهفو الحس لدرجـة كبيرة ازاء قضايا واقعهم ، وشديدو التنبه لمشكلاته الفنية .

* *

١٢ ــ وبعد ... فقد حان الوقت ، لكي أدع القارىء يبدأ رحلته مع النماذج التي اخترتها ، لكي تمثل مسيرة القصة اليمنيـة في مختلف مراحلها ، ان تلك النماذج تمثل الجانب التطبيقي لكتابي « القصة اليمنية المعاصرة » . وهذا يعني أن بعضها قد يبدو هابطا من الناحية الفنيـة ، ولكنه ذو دلالة من الناحية التاريخية ، فهو يطلـع القارىء ــ وبصورة تطبيقية ــ على الخط البياني لمسيرة القصة اليمنية .

أنا سعيد

« قصة موضوعة »

بقلـم
احمد البراق (١)

ان لي صديقا ألازمه ملازمة الظل للانسان وكثيرا ما أزوره في بيته ويزورني في بيتي ••• وتتجاذب أطراف الحديث في جلوسنا وسيرنا وهو مثقف وأديب يتقد غيرة ووطنية •••

وقد زارني ذات يوم كعادته وفاجأني بعد ان تصافحنا بقوله :

« أنا سعيد » فعجبت من هذه المفاجأة وسألتـه قائلا : أرجوك ان تتفضل وتخبرني بماذا أنت سعيد ؟ وهل ظفرت اليوم بأكلة حلوية عند أحد الاخوان ؟ ــ لان صديقي هذا كان يحب الحلويات جدا ــ فضحك وقال :

---

(١) تلقى احمد البراق تعليمه بمدرسة الايتام ، ثم سافـر سنة ١٩٣٨م الى لندن مع الحسين بن الامام يحيى ، ورجع بعد بضعة اشهر . وكان يقوم بالتدريس في المدرسة الثانوية ، ثم رحل مع ابراهيم بن الامام يحيى الى أسمره وعاد معه الى عدن وعمل معه في تنظيم حزب الاحرار ، حتى عاد الى صنعـاء بعد ثورة سنة ١٩٤٨م ، له مشاركة قليلـة في الشعر . توفي سنة ١٩٤٨م ضربا بالسيف بمدينة حجه . وقصتـه « أنا سعيد » نشرت بمجلة الحكمة اليمانية (شوال سنة ١٣٥٩هـ) .

ليست السعادة في الاكل والشرب ... ولا في الحلويات والمرطبات ... ولكني سعيد لاني شعرت الآن بالمسؤولية الملقاة على عاتقي ... وقد حالفني السهاد البارحة وأنا أفكر في العمل الذي أقوم به نحو بلادي وبني شعبي لاخفف ما على عاتقي من حمل ثقيل .

شعرت بأن الواجب الوطني مقسم على جميع أفراد الشعب الكبير والصغير الغني والفقير ... الامير والمأمور ... التاجر والصعلوك ...

شعرت ان لي ضميرا حيا يدفعني اذا مر يومي ولم أقم بخدمة ما أو أقدم أي مساعدة لمن يحتاجها .

شعرت ان لي نفسا ترى الناس كأسنان المشط لا فضل لاحدهم على الآخر الا بالتقوى ... ترى الناس كالجسد اذا اشتكى عضو منه تداعت له سائر الاعضاء بالحمى والسهر ...

ترى انه لا يتم اسلام المرء حتى يحب لاخيه ما يحب لنفسه ...

ترى ان المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يثلمه وان من قضى حاجة ـ حاجة مسلم قضى الله حاجته .

صديقي قد سمعت حديثك وفهمت كلامك ... فاعلم ان الامر سهل ما دمت تحمل هذا الضمير الحي ... وهذه النفس الشريفة ... وما عليك الا ان تتعلم كثيرا لتنفع بلادك كثيرا ... لان العلم وضاح للخير . فضاح للشر . يولد في النفوس حرارة وفي الرؤوس شهامة ... العلم يرفع الغباوة ويزيل الغشاوة ... العلم يوسع العقول ويعرف الانسان ما هو الانسان وما هي حقوقه ؟.. بالعلم تنال الامة حياة رضية هنية... حياة رخاء ونماء ... حياة عز وسعادة .

العلم أيها الرفيق يزيل الشقاء ويجعل الناس في نعيم مقيم وعز كريم وفي أوج الرفعة وأعلى مراتب الكمال ...

فلماذا لا نوجه اليه أكبر اهتمامنا وعنايتنا لماذا نشكو من الجهل ونحن لا ننفق على التعليم نصف ما نصرف على التدخين ؟

نشكو الفقر ولا سبب له غير كسلنا وقعودنا ... فشكرني صديقي على نصيحتي ووعدني بأنه سيواصل طلبه للعلم ومطالعته الكتب المفيدة ... وودعني وانصرف .

وفي اليوم الثاني ذهبت لرد زيارته ولما وصلت الى باب غرفته وقبل ان اقرع عليه الباب استأذن بالدخول سمعته يقول :

أيتها النفس الشريرة ... أيتها النفس الشقية ... هل خلقت لتموتي أم وجدت لتعيشي ؟

أنت المسيطرة على الشعور فان انقاد لك أغويته وان عصاك نجا ... أيتها النفس لِمَ لا تروين لنا أخبار السلف الصالح الذين كانت أنفسهم شريفة وقلوبهم طاهرة وأفكارهم متوقدة وأفئدتهم نيرة ؟

لِمَ لا تروين لنا جليل أعمالهم وشريف أخلاقهم وعظمة مجدهم وطول باعهم وبسالتهم وخدمتهم بلادهم ..؟

حدثينا عن أجدادنا الاول الذين بنوا الدور وشيدوا القصور ولكن ليس من أموال اليتامى والمساكين بل مما كسبته أيديهم وسعت للحصول عليه أجسامهم وأفكارهم .

قرعت الباب فأذن لي صديقي بالدخول فحييته وحياني ورحب بي

أجمل ترحيب ••• ولما تم لنا الجلوس قدم لي فنجانا من القهوة قائلا : ان هذه البن « مطري » والبن المطري هو النوع الجيد في اليمن فقلت له نعم يا صديقي ان البن اليمني بأجمعه مشهور بجودته وهو أحسن بن في العالم • وهو معروف في جميع أقطار العالم بجودته ولقد شاهدت في احدى مقاهي « لندن » عندما زرتها في سنة ١٩٣٦م لوحة معلقة على احدى القاعات مكتوب عليها ما مفاده :

« البن المخاوي » نسبة الى المخاء ••• وقد نسبوه الى المخاء لانه كان قديما أشهر ميناء لليمن ولولا ان بعض التجار « بعدن » الذين لا ذمة لهم يغشون البن اليمني بأن يشحنوا كميات كبيرة من البن الجبشي أو البن البرازيلي ويبيعونه كبن يماني بعد أن يجعلوا العينة من البن اليماني ، أو يمزجوا اليمني بالحبشي أو البرازيلي • ويبيعونه كيمني لولا هذه المزادات شهر بننا ••• فتعجب صديقي وصمت برهة فدعوته وسألته ماذا ألم بك ؟ فقال :

ويحك لعلك كنت واقفا وراء الباب عندما كنت أناجي نفسي ••• فقلت نعم ولماذا ؟•• فقال : لا تلمني يا صديقي العزيز فقد تركتك البارحة وأنا مغمور بالاحزان ••• فخرجت الى احدى المنتزهات في ضواحي العاصمة لاروض النفس وأنزهها علها تستريح من الهموم الثقيلة وقد تجولت وانتهى بي المطاف الى حديقة غناء ذات أشجار كثيرة قد كساها الربيع ثوبا قشيبا ••• وتزينت بالازهار الجميلة • فجلست تحت احدى الدوحات وكنت أعرف ان هناك جدولا صغيرا يمر باستمرار • ولكن سرعان ما اندهشت عندما رأيت الجدول قد جف ولم يبق الا بعض الأعشاب الخضر والازهار الشاخصة بأبصارها الى السماء كأنها تطلب السحاب أن تجود عليها بقطرات من المطر •

فساءني ذلك وصرت أقرأ قطعا من الرجز في النهر المتجمد « لميخائيل نعيمه » فطلبت منه أن يسمعني اياها فقال :

يا نهر هل نضبت مياهــك فانقطت عن الخرير
أم قد هرمت وخار عزمك فانثنيت عن المسير
بالامس كنت تسير لا تخشى المواقع في الطريق
واليوم قد هبطت عليك سكينة اللحد العميق
بالامس كنت مرنما بين الحدائق والزهور
تتلو على الدنيا وما فيها أحاديث الدهور
بالامس كنت اذا أتيتــك باكيــا سليتنــي
واليــوم صرت اذا أتيتك ضاحكا أبكيتنــي
ماذا جرى لك بعدما قد كنت تهزج في الصباح
هل أخمدتك كآبتي وسمعت ندبي والنــواح
ماذا جرى لك بعدما قد كنت تنشد في المساء
هل داهمتك مصائب مثلي فأخرسك الاسى
.. ها حولك الصفصاف لا ورق عليه ولا جمال

* *

فأعجبتني القطعة وقلت له وماذا عملت بعد ذلك ؟ فقال :

عدت الى البيت وبينما أنا في طريقي اذ أوقفني أحد المارة وقبل أن يتكلم سكب دموعه فسألته ما بالك تبكي أيها الرجل ؟ فقال :

ان لي أولادا وبناتا وامرأة قد وضعت بطفل الآن وليس لي ما يقوم بحاجتها ... ولا حاجة أولادها فهل يرجى خيرك ؟ وهل تجود عليّ بما ألهمك الله فأدخلت يدي في جيبي وأعطيته كل ما كان معي من نقــود فقلت لصديقي :

نعم انك سعيد كما قلت بالامس . والسعــادة في مساعــدة الفقراء والمحتاجين ... واستمر في حديثه قائلا :

ولم أمش غير بضع خطوات حتى رأيت عجوزا حولها ثلاثة أطفال عليهم ثياب رثة تظهر أكثر أجسامهم من خروقها فتألمت لما شاهدت وفكرت ــ والالم قد أخذ مني مأخذه فيماذا أعمل لهؤلاء المساكين فأخرجت مذكرتي وسحبت ورقة منها [الى] أمير المؤمنين أيده الله ، وأعطيت المرأة على أن ترسلها بين المراجعات والشكايات التي تقدم الى الحضرة الشريفة أعلى الله شأنها يوميا .

ولم تمر يومان الا وقد رجعت رقعة العجوز وأطفالها . وقد أمر جلالة مولانا الإمام ــ أيده الله ــ بادخالهم في بيان الصدقة فدعوت الله أن يطيل في عمر جلالة مولانا الإمام وأن يسعد اليمانيين بأيامه فقلت لصديقي :

نعم انك سعيد كما قلت والسعيد من ساعد البائسين والمحتاجين عندئذ نظرت الى ساعتي فرأيت ان وقت الزيارة قد كمل فاستأذنت من صديقي وتواعدنا أن نجتمع في الغد فسرت الى منزلي ولما ذهبت للنوم تلك الليلة وبعد أن وضعت رأسي على وسادتي هجمت عليَّ الافكار . واستعرضت أعمال صديقي في ذلك اليوم وقلت في نفسي :

لو كل الناس يعملون كعمله لما بقي بائس ولا محتاج .

وفي اليوم الثاني قابلت صديقي وبعد أن تبادلنا التحية الاخوية تعاهدنا على أن نعمل سوية لصالح المجتمع ونسعى في الخير قدر استطاعتنا ... والله ولي التوفيق .

انتهت

إنسي في عالم الجن

١ ـ شواهي ذات الدواهي (١)

بقلـم
دنـدان

دار بيضوية الشكل منارة من الداخل بنور كهربائي أزرق . تهويتها صناعية ، باردة ، يسود أرجاءها الهدوء وتزين جدرانها الصور الفنيــة والرسوم الزيتية والالــوان ، فرشت أرضها بالقطيفــة الخضراء وأثثت جوانبها بالسرر المصنوعة من البلور النقي والى جوانبها مقاعد وثيرة من دواليب واسعة مليئة بالكتب وموائد ومكاتب .

يجلس الجن كبارهم وصغارهم يتحادثون بأصوات خافتة اذا كانوا ملتفين حول مائدة وأما اذا أراد أحدهم أن يخاطب انسانا بعيداً عنه فانه يبعث اليه رسالة عقلية أي انه يؤثر على عقــل من يريد مخاطبته عن بعد بغير أن يكون له به صلة مباشرة وهم طبقات منهم الذين تتكون أجسادهم من رؤوس كبيرة على هيكل بدون أرجل وهؤلاء هم أصحاب الفكــر ومنهم العمالقة ذوو الابدان الضخمة وهؤلاء عادة هم العمال .

ومنهم الذين يشبهون البشر بأشكالهم وصورهم ولبعضهم أجسام شفافة .

---

(١)فتاة الجزيرة (٣٠ سبتمبر سنة ١٩٤٥م) .

مررت مع « ضوء المكان » بين رهط من الجن فلم يلتفت الي أحد ولم يحقق نظره في شخصي سوى طفـل صغير السن ابتسم لما شاهدني ولكنهسرعان ما التفت الىلعبه ورفاقه. أدركالقوم بثاقب الفكر ما يجول في نفسي من الخوف وبما أشعر به من الغربة وعرفوا أن أقل حركة مفزعة قد تهد كياني وتزعزع ثقتي بنفسي وتقتلني فلزموا الهدوء ولم يعيروني التفاتهم لئلا يؤثر ذلك على ثباتي أو يقلق بالي فأتعثر في سيري .

تذكرت وأنا أمشي الى جانب « ضوء المكان » يوما ماطرا انزلقت فيه قدمي في مدينة عدن ووقعت على وجهي فما كان من القوم الا ان ضجوا سرورا وبهجة وفرحا بما حدث لي وتذكرت كيف أن القوم في تلك المدينة يطاردون المجنون ويثيرونه ويتواجدون فرحا بسبابه وشتائمه وتذكرت كيف يهتم العدنيون بالاساءة الى كل شخص يعرفـون ضعفه حتى لقد ذهب أحدهم الى وضع ثعبان ميت لانسان يخاف الثعابين في كيس نومه فكان في ذلك القضاء المبـرم على ذلك الشخص بعد مرض قصير تسبب عن الخوف الشديد الذي أصابه ـ يسلك عقـلاء الجن وأطفالهـم كما وصفت ونحن نسلك صغارا وكبارا سلوك المجانين .

أليس المجنون هو الذي يفرح بالاساءة كما كان يفعل بعض المجانين العتاة في عض أيدي من يحسنون اليهم ويضحكون لتألم هؤلاء ؟

دخلت على شواهي ذات الدواهي وهي امرأة واسعة الثقافة بعيـدة النظر عالمة بشؤون الدنيا عارفة بأحوال الامم ملمة بطبائع المخلوقات .

سلمت عليها واذا بي أسمع لرجع صوتي صدى رن في جوانبذلك القصر حتى شعرت كأن الدنيا تميد بي وكأن الارض تهتز تحت قدمي .

ابتسمت شواهي والتفتت الي طويلا واذا بي أسمع بعد لحظة كلاما

يتساقط في نفسي وعقلي واذا بي أتابع هذا الهاتف الذي يهجس في نفسي وأفهم ما يقول وأنا ما زلت أنظر في عيني شواهي .

« لقد تعودتم بني آدم التخاطب بأصـوات عاليـة لاعتمادكم على آذانكم في فهم ما تسمعون لا على عقولكـم مع أنكـم تستطيعون ان تسمعوا بعيونكم لو راقبتم الشفاه الناطقة » .

أصابني وجوم فلم أقو على الكـلام واستمرت شواهي تبعث اليّ آراءها بالطريقة اللاسلكية العجيبة .

قالت : قل ما تشاء أن تقوله في نفسك دونما حاجة الى الجهر به وأنا سأسمعه كما لو نطقت به . وتعذر عليّ الكلام بادىء الامر ولكنني تعودت رويدا رويدا وراق لي أن أتكلم كما يتكلمون اذ وجـدت أن الكـلام بالصوت العالي يقطع سلسلة التفكير على المتكلم ويعيـق الانسان عن التعبير الكامل بكل ما يرغب في قوله ويقطع عليه سبيـل آرائه وسلسلة عباراته ولطالما ارتج على الخطيب لانه حاول التأثير على سامعيه بصوت مرتفع يتهدج حنقا وغيظا . مرت هذه الافكار بعقلي فابتسمت لها وابتسمت شواهي قائلـة : « أراك ارتحت الى هذا التخاطب الهـادىء » فحركت شفتي « نعم » .

انتهـت

انسي في عالم الجن

٢ ــ الجن يخافون الانسان (١)

بقلم
دنـدان

[••• اننا نخاف الانس ونبتعد عنهم لانهم استعبدونا وقيدوا حرياتنا •••] •

« شواهي ذات الدواهي »

لما شعرت بأنني في وسط راق وفي عالم تفوق مدنيته حضارة الانس ومدنيتهم ، سرت الطمأنينة الى نفسي فقلت لشواهي « هل لي يا سيدتي أن أعرف السبب الذي من أجله جيء بي الى عالمكم هذا ؟ » •

قالت ان ابنتي ضوء المكان رأتـك فأحبت أن تعاشرك وتقترن بك وجاءت تسألني رأيي ولما كنت أعرف أن المرء قد يعشق من أول نظرة وكنت أدري أن النظرة الاولى تؤثر في الرجـل أكثر منها في المرأة لان الرجل يستهويه جمال المرأة الخارجي بينما تميـل المرأة الى خصائص الرجل ومزاياه من شجاعة وكرم ، وعلم ، وقوة بدنية وحاسة فنية وأنا

(١) فتاة الجزيرة (٢١ اكتوبر سنة ١٩٤٥م) .

عليمة بأن المرأة عادة تحاول أن تدرس الرجل قبل أن تميل اليه كل الميل لتكشف عن ميوله وطباعه اذا تسنى لها ذلك ولا عبرة بمن تزوجون من بناتكم معشر الانس قبل تعارف سابق فان المرأة بعد أن تعاشر الرجل حتى بعد الزواج وتعرف حقيقته فانها اما أن تحبه وتتخذه رفيق حياتها الدائم واما أن تجعل حياته لا تطاق حتى يتخلص منها وتتخلص منه .

والرجل بين الانس والجن ملول تجتذبه الغريبة أكثر من القريبة وهو الى ذلك كثير الطواف لا تشبع نفسه من النساء يبتغي دائما فتنة لمشاعره تلهب حسه في مخلوقات غير منتظرة بعكس المرأة التي تستقر في بيتها وبين أطفالها متعففة عن الوقوع في حب جديد لان ثمرة الحب تنشأ فيها لا في الرجل وحتى اذا لم تكن تحب زوجها وأحبت غيره فانها تضطر الى التحلي بالعفة حرصا على كرامة بيتها وشرف عائلتها واسمها وتفاديا لألسنة الناس وللفضيحة الاجتماعية التي تلحق بها والعقاب الذي يقع على عاتقها متى لفظها المجتمع بينما لا يلحق الرجل من كل هذا أذى لان القانون الاجتماعي أعفى الرجل ولم يؤاخذه على جناياته التي يقترفها في كل يوم يعبث فيها بالمرأة ويجعلها لعبته مما نبهها الى وجوب التحصن والتعفف بعد أن أدركت أن تعززها وحده واستعصاءها على الرجل هما أهم أسباب استمالته واستهوائه واجباره على الاقتران بها .

لما كنت أعرف ذلك نصحت ابنتي « ضوء المكان » أن تراقبك عن كثب ولما رأتك معرضا للموت عند اخوتك حملتك على كاهل مارد وأتت بك الى مدينة « عجاب الزمان » فان شئت بيننا أقمت وان أبيت فاننا نعيدك الى حيث كنت .

قلت : بل أفضل الاقامة في عالمكم . قالت : على شرط أن تحافظ على قوانين بلادنا . قلت : وكيف أعرفها ؟. قالت : اننا سوف ندخلك مدرسة

وهناك في زمن قصير يدرس طبيعتك العلمــاء ويتعمقون في معرفة خلايا دماغك تحت أشعة خاصة ويقومون ببعض التجارب لفهم مقدرتك على الفهم ولادراك مبلغ ادراكك وبعد كل ذلك ينفثون في نفسك من العلوم والفنون والنظريات ما يساعــدك على تطبيقهــا في تجاربك الشخصية فيراقبون سير حياتــك ويقررون مصيرك • قلت : انكم بلغتم شأوا لا يدرك في الحضارة والعلم •

التفتت الي شواهي وقالت : « أيها الانسان انك مخلوق جبار وان لك لعقلا لا تدرك كنهه العقول •

ان عالم الجن اليوم يشعر بوجودك في محيطه وهو آخذ حيطته منك الا أنني قد أخذت على نفسي مسؤولية بقائــك عندنا وأنا آمل أن لا تمكر بنا » •

قلت : أأنتم تخافون الانس ؟ قالت : نعم •

« اننا نخاف الانس ونبتعد عنهم لانهم استعبدونا وقيدوا حرياتنا »•

قلت : وكيف ذلك ؟

قالت : ألم تسمع بنبي الله سليمان كيف استخدم رجالنا فحملــوا بساطه في الهواء وقاتلوا أعداءه في البيـــداء وهو مع ذلك كان يسجنهم في القماقم •

قلت : ذلك نبي الله • قالت : وما خوفنا الا لان الله فضلكم على جميع مخلوقاته ولولا أنكم تكفرون نعمته وتجحدون وحدانيته لكنتــم اليوم أسعد مخلوقاته ، ألم تستعبدوا الكهرباء وهي من الجن ، والطاقة الذرية وهي من الجن ، ألم تقاومــوا جراثيــم الامراض الوافدة رغــم مناعتها وشدة مراسها وقوة هجومها وهي من الجن •

قلت : هل بوسعك يا شواهي أن تتحولي الى طاقة ذرية ؟

قالت : اننا معشر الجن أصناف وأجناس وكلنا تتمتع بخصائص ولكل فريق منا مزايا خاصة به الا اننا نستطيع ان نتحول في أشكال وصور ٠ منها الجامد ، ومنها الاثيري ، ومنها ما يحتفظ بحريته في اثناء تحوله ، ومنها ما يفقد هذه الحرية فيقـع تحت سيطـرة الانسان ٠ فساورتني الاطماع في تلك اللحظـة وسرت الى نفسي الرغائب البعيدة التحقيـق وأخذت أحلم وأنا أغالب أحلامـي وأشعر أن شواهي تـدرك ما يدور بخلدي فالتفت اليها وقد تحول وجهها الصبوح الى صورة شيطان رجيم من شدة ما انتابها من الغيظ والحنق وأخـذت أنا أرتجف من الخـوف والهلع وأشاهد الموت يقترب مني خطوة خطوة ٠

مومس

بقلم
محمد عبد الولي (١)

... لا أحد ، الليل ولّى ، ولن يضمني أحد ، لا شيء ، سوى برد جاف ... ونظرت الى سريرها الغارق في ضوء أحمر هادئ .

لا أحد ، مضت ليالي وأنا أنتظر ... معظم أبوابهن قد أغلقت .. ان هناك رجالا ، فلماذا لا يمرون عليّ ... ألست مثلهن ، أملك سريرا وبارا ، ونورا أحمر ، وربما حضنا أكثر دفئا من أحضانهن ...

---

(١) هو من الاعبوس حجرية ـ لواء تعز ، ولد سنة ١٩٤٠ من اب يمني وام حبشية ، نشأ في اديس ابابا ، درس في مدرسة الجالية اليمنية بأديس ابابا ، ثم عاد الى اليمن سنة ١٩٥٤ ، وتزوج في العام نفسه ، سافر الى القاهرة سنة ١٩٥٥م للدراسة ، ودرس في الازهر الشريف وفي مدرسة المعادي الثانوية ، وكان يحضر العدد من الندوات ، وله صداقات مع أدباء مصريين ، طرد من مصر سنة ١٩٥٩م بتهمة الشيوعية ، سافر الى موسكو ودرس في معهد جوركي للآداب ، عاد الى اليمن بعد قيام ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م ، اشتغل في عدة مناصب في مكتب رئيس الجمهورية، ثم قائما بأعمال سفارات الجمهورية اليمنية في موسكو وبرلين ومقديشو ، واخيرا مديرا عاما لشركة الطيران اليمنية ، استقال من الوظائف الحكومية وافتتح دار للنشر بتعز ، سجن سنة ١٩٦٨م ولمدة عام ثم ١٩٧٢م ولمدة ثمانية اشهر ، مات محترقا في حادثة الطائرة التي سقطت في ٣٠-٤-١٩٧٣م ، والتي كانت في طريقها الى المحافظة الخامسة باليمن الجنوبية. اما قصته «مومس» فقد نشرها في مجموعته « شيء اسمه الحنين » ص ٣٩ .

يقولون اننا نحن المولدات اكثر حرارة وابتسمت بمرارة لقد فقدت طعم اللذة منذ زمن بعيد ...

بعيد ... متى كان ذلك ؟؟

وبدا على وجهها الاسمر تجاعيد ربما كانت تحاول التذكر ، ... لقد فقدت حتى الذكريات ... النسيان أفضل ...

لماذا أتذكر ؟. لو عدت الى الماضي لأدنت نفسي .

ومدت يدها تتحسس عنقها .

وهذا الصليب ، انه يدمغني بالتهمة ، لقد خنت الجميع ... حتى نفسي .

كنت مسلمة ... يا الهي ... والآن ! وبدت دهشة مروعة ... والآن ! وابتسمت بسخرية ، ان الصليب على صدري ... انه عاري .

ومر رجل أمام بابها ... نظر بشراهة ، فابتسمت له بألم لكنه مضى، دون أن يلتفت مرة أخرى .

حتى الصعاليك لا يريدونني ... ألأنني مولدة ؟

أم لانهم يعرفون انني تنكرت لذلك الدين الذي ولدت عليه .

وغابت في بحار الالم .. وضعت الصليب لكي لا يقولوا مسلمة ، لكي لا يعرفوا انني معهم انني مولدة ..

ولكن اعماقي .. آه لا استطيع أن انسى .. موت أبي .. كيف انساه وعلى شفتيه اسم ربه .. واسمي .. كان ينظر الي وعيناه تنظران بخوف الى المستقبل .. لم يعرف مدى اجرامه لانه أوجدني في هذا العالم الا في تلك اللحظات ..

كانت صغيرة •• لا تعرف شيئا وكان الموت رهيبا وهو يمثل مسرحيته أمامها، لقد تصدى أباها المسكين كثيرا ، بعيدا عن البشر، كانت ليلة، ليلة واحدة ، لكنها لا تنسى ، حتى عندما تهب جسدها لمولد مثلها كانت ترى أباها ، وعينيه المخيفتين دفنت رأسها •• ومن ورائها كان نور أحمـــر كوهج جهنم •

لماذا تعذب نفسها كل ليلة ؟• نظرت الى الشارع ، ليت أحدهم يدخل اليها ، لن تطلب منه مالا ، يكفي ان ينقذها من نفسها من العذاب المر الذي تراه في عيون أبيها •• وهو يموت •

كانت أنوار الشوارع تموت بصمت ، لقد تعــدت الساعة منتصف الليل • ومعظم الابواب حيث الانوار الحمراء ، قد أقفلت وفي الداخل ، حيوانات تصرخ بوحشية وتموت وهي تلهث تعبا •

الغثيان في فمي ، لو كان لدي خمرا ، لقد انتهى كل شيء وصاحب المكان سيطالبني بالايجــار بعد أيام ، والبار خــال سوى من زجاجات كولا •••

وأشعلت سيجارة ، انني أحتــرق ، لن أرى أحدا هذا المساء ، لقد هجرني الجميع •

وعاد الماضي •••

لا أب ••• لا أم ••• وحيدة مع صليب •

لماذا أتذكر كل ما فات ، لقد نسيني الجميع •

وتنهدت بعنف ، وقذفت بكمية من الدخان •

لماذا أتى ؟ ليزرعني ويموت كالكلب ••• أو وجوده كله لايجاد هذا الشقاء ، كان بعيدا ، ولد هناك ، وترك كل أهله ، كان يحدثني عنهــم

عندما يكون مرحا ، ويصف لي جبال بلاده ووديانها ، كنت صغيرة ، كم كانت عيونه تضحك وهو يحكي كل ذلك ، لقد نسيت اسم قريته ، اسم أبيه زيد • ان بلادهم بعيدة ، وذلك ما كان يخيل الي عندما كان يمد يده مشيرا اليها •

هناك ــ هناك ••• خلف الجبال والبحار •

لقد أخذني ، وكنت طفلة ، بعد أن ماتت أمي ، لم يحدثني عنها كثيرا ترى أماتت حقا ؟ كثيرون من أمثاله يكذبون على أبنائهم أكان يكذب ؟ لقد كان طيبا مضيئا يضرب في قرى ومدن صغيرة كان يبيع أشياء كثيرة • ومات في الضياع ، في قرية نائية بعد أن أصيب بحمى ، لم يكن يعرفه هناك أحد •

وتشردت وحيدة ••• طفلة صغيرة ووحيدة ، بعد أن دفنوه في حفرة سوداء مليئة بالطين • ولم يصل عليه أحد وأخذوا كل ما لديه •

يا الهي ، كم كان طيبا ••• ذلك الطفل الذي حضر منذ أكثر من شهر • مر أمام بابها ، كانت ليلتها جميلة تركت شعرها الاسود يسيح فوق كتفيها العاريين ، كانت في ثوب قصير ، اشترته من ثمن رحلة غرامية مع أحدهم • كان طيبا معي ليلتها ، لقد قبّلني كثيرا ، علمني كيف أحب • قبّلني باخلاص ، يا الهي لقد شعرت معه بالسعادة ، كان مولدا مثلي ، لقد سألني فأنكرت ، قلت له انني أثيوبية ، ابتسم ، كم كان ذكيا وهو يلعب بالصليب ويتحسس نهدي •

قال لي بصمت :

ــ أنا أعرف انك مثلي ، وأعرف انك تضعين هذا الصليب خوفا منا ، أنت مثلنا ، لكن ضياعك أكثر غربة • أنكرت بشدة ، أقسمت له بكل القديسين •

قال :

ـ اقسمي بالله وبمحمد ان كنت صادقة ...

صمتت بعمق ، كانت خائفة ، لم تحلف في كل حياتها بهؤلاء انهم في نظرها أكثر طهرا ان تلوثهم بشفتيها الخاطئتين . كانت ممزقة ...

ـ اذن أنت صامتة ... لا يهم ، أنا لا أدينك فلست أملك حق الادانة ، أنت تعرفين ظروفك أكثر مني ، وأنا لا أستطيع الا أن أتألم لك دون أن أصنع لك شيئا . لانني مثلك ضائع .

وشعرت يومها بالدموع ، ضمته بحرارة الى صدرها ، وبكت السماء مطـرا .

لم تنم ليلتها :

وهبته كل حنانها ، متصورة أنها تعوض نفسها عن حنان لم تعرفه .

ـ هل تشردت طويلا ؟

ـ ليس أقل من الباقيات .

ـ ألم تجدي شيئا أفضل من هذا ؟

كان في عينيها جوابا جعله يصمت وقالت له :

ـ وأنت ؟

انقسم بحزن ، كان وجهه رقيقا تحت الضوء الاحمر كأن ألم حاد يمزقـه .

ـ لم أفقد الكثير ، انني أعمل ، رأيت بلادهم ، أقصد بلادنا ، انها أكثر تعاسة منهم ، لكنها لا تستطيع الفرار مثلهم ، انها جميلة وحزينة . وقاطعتـه :

ــ وهل قبلوك هناك ؟ صمت كيف يقدمها . لكن تغلب على قلقه وقال :

ــ انني رجل ، وهم لا يسألون ما دمت أملك نقودا وفي يدي عمل لكن آخرين ضاعوا ، كثيرون هم ضاعوا ، لانهم لم يستطيعوا أن يوفقوا بين الواقع الذي يعيشونه وبين أنفسهم ...

وصمتت قليلا ...

كانت تحلم ...

ــ ولو ذهبت مثلا ؟

ــ ستكونين أكثر تعاسة ، ستفقدين كل شيء ولن تستطيعي أن تحتفظي بحريتك .

ــ لكنني أريد أن أعيش شريفة ... كالاخريات .

ــ صعب جدا ...

وكأن خنجرا يمزق صدرها ... كان الشارع مقفرا ... أتقفل الباب ؟ ان السرير ثعبان بارد لا تستطيع احتماله وحدها ...

آه لو كان والدي حيا لذهبنا اليها سوية ، لو كان موجودا لما كنت هنا ... كنت الآن زوجة لاحد هؤلاء التجار الذين يخونون زوجاتهم معنا ...

لماذا لم يعد اليها ، أعرف حقيقتها ففر منها ، فر من نفسه ، انهم يخافون من أنفسهم عندما ينامون معي ، يشعرون بالخجل وبالجريمة يا لهم من أطفال طيبين ولكنهم حمقى مستعدين لارتكاب جريمة حتى لا يرونا هنا ... ولكنهم لا يملكون شيئا لاخراجنا من هنا ... لقد تحمل تلك الليلة معي بشجاعة ... كان الصليب يعكس صورته حمراء على

وجهه ، وكان ذلك يقلقه ، لقد شعر معي بالسعـادة ، لم يقل لي ذلك ، لكنه مد لي بوريقات حمراء مطوية ، لم أحصل مثلها من أحد ، فكرت أنه ربما كان ذلك عطفا عليّ ، لكنه لم يأت من جديد • لقد نسيني انه يشعر بالعار معي •

يا الهي كم هم أشقياء اخوتي هؤلاء •

وصدمتها كلمة « اخوتي » أيمكن اعتبار نفسها أختا لهم ، انها تعطي نفسها حقا كبيرا • أيمكن أن تتساوى مع فتيات الاسر واللاتي يمرقـن أمامها على سيارات آبائهن •

لقد فقدت هي كل شيء ، ولم تعد تعرف أحدا من أهلها •

حتى لغتي لم أعد أعرف منها سوى كلمات بدائية ، فلماذا اذن أعطي لنفسي الحق أن أكون أختا لهم ، انهم لا يريدونني ان نظراتهم تأكلني ، آه لو كنت أقل بياضا مما أنا عليه • انهم لا يصدقون ، ان دمي يفضـح عاري امام الجميع ، حتى قلبي يدق بعنف اذا ما استسلمت لمتيخي ••• لكن يجب أن أحصل على لقمة أن أعيش ••• أأعيش ••• وكادت أن تصرخ في منتصف الليل •••

لماذا لا يريدونني ؟ هل قلّ الرجال في هذه المدينة الملعونـة ! انهم يكثرون عندما تكون الضحية طرية ، جديدة ، وصغيرة •••

ومرت ذكرى ليلة مؤلمة ••• ومخيفة ••• كانوا أربعة ••• وكانت وحيدة طفلة فرحت عندما لمس أحدهم نهديها لكنها صرخت بوحشية ، لم يرحمها أحد ، كانوا وحوشا بلا قلب •

وعندما ذهبوا كانت امرأة عجوز تبتسم لها بوقاحـة ، وهي تمسح نقطا حمراء ودموعا ، كانت ليلة رهيبة ، المرأة العجوز التي آوتها قبـل

يومين عندما وجدتها تهيم وحيـدة في الشوارع فقدمت لها قطعـة لحم ولحوح ، تستلم ثمن حيائها ، وطفولتها .

كانوا أربعة .

أما الآن ، فالشارع خال ومنازل أخرى تغلق أبوابها وسمعت صوت سرير جارتها يئن تحت ثقل جسدين .

لو عاد الليلة ... لن آخذ منه شيئا ، سأهبـه كل ما اختزنته من دفء وحب ...

حب ، أيمكن أن أعرف ما هو الحب ... آه يا الهي ؟

وماتت تحت كعبها آخر سيجارة سوف أنام ...

لقد مر ليل آخر ... وقبل أن تقف كان شبح يترنح أمامها بنشوة.

نظرت اليه بحنان ... ربما كان وحيدا مثلي ... وقبل أن يمضي ليغيب في الحارة الجانبية نظر اليها .

كانت عيناه غائرتين . ورأت شفتين تهتـزان بضعف ، كانت تنظـر اليه ، وكان قد اقترب .

ــ انني لست سكرانا بل انني في قمة النشوة ، وأنت أيتها الحسناء، تنتظرين عشيقك ؟ لقد تأخر كثيرا فيما أرى ؟

واقترب منها .

ــ أتسمحين لرجل عجوز ونشوان أن يسليك قليلا ، انني أرى آثار حزن على شفتيك .

ابتسمت ... كانت قلقة ... وجلس أمام الباب .

كان كبيرا ، وربما مضت عليه سنون لا تحصى ، وكان يلهث ورائحة

قذرة تفوح من فمه ... رائحة خمرة رخيصة ومتعفنة وكان ينظر اليها .

قالت له بصوت هادىء :

ـ لماذا تنظر اليَّ هكذا ؟ هل أعجبك ؟

لم يجب .

وأرادت أن تداعبه .

ـ اذا أردت فلن أجعلك تدفع كثيرا !!

لكنه استمر في صمته .

وشعرت بالخوف .

ترى في ماذا يفكر ؟ عيناه تشبهان عيـون أبيها ... كان ينظر اليها هكذا ويقول ...

« انني أخاف عليك من الايام » لكنها لم تكن تعرف معنى ما يقوله.

وأحيانا كان يردد « لماذا لم تولـدي طفـلا ، لاني لن أقلـق على مستقبلك » .

لماذا ينظر اليَّ هكذا !!؟ انني أخاف من هذه النظرات انها تقتلني .

وسألها فجأة :

ـ كم عمرك يا صغيرتي ؟ ألك مدة طويلة هنا ؟

انني خائفة . ما الذي يريده مني هذا الغريب ؟

وكانت صامتة .

واستمر يقول :

ـ يخيّل اليّ انني أعرفك ، أعرفك منذ مدة طويلة . لست غريبة علي ، كنت شابا في مثل عمرك ، لقد رأيتك في مكان ما ، انني متأكد من ذلك ... أقسم بربي ...

يا الهي كان أبي يقول انني أشبهها ، أتراه يعرفها ؟ أترى هذا الرجل قد رآها ... أين ؟ ومتى ؟ وكيف ؟

كان ذلك منذ زمن بعيد . لم أذكر شيئا ، ربما كان ذلك كله حلما مر ...

ـ ولكن حاول ؟ أين رأيتني ألا يمكنك التذكر ؟ قل كلمة بحق الآلهة .

كانت عيونه تبحث في الارض عن شيء ما ...

ـ كلا ... لقد كانت تلك أخرى ، أكثر سمارا منك أنت بيضاء ، لقد كانت تلك سمراء لكنها كانت جميلة مثلك ، امرأة حقيقية ، ماتت منذ سنوات قليلة مضت ...

كان يحادث نفسه وهو يرسم شيئا ما على التراب .

ـ كنا شبابا ، كانت متزوجة من أحدنا ، كنا معا ، لكنه كان أكثر شجاعة مني وتلك كانت أياما حقيقية .

وقاطعته :

ـ أأنت منهم ؟ أأنت أيضا من هناك ؟؟

أعطاها عيون ميتة ، ولم يقل شيئا ، هز رأسه موافقا وسعل بشدة ، كانت رائحة غريبة تفوح من فمه .

ـ كانت أيام وكنا شبابا ... شجعانا ...

خرجت من فمه آهة .

ــ حتى الوحوش كانت تخاف منا ...

وغابت في بحر عميق من الذكريات .

وفي السماء كان هلال هزيل يلوح ، وفي البعيد أنجم ضائعة تتلألأ..

وصوت حزين يمزق صمت الليل .

كانا حزينين ، وكان الضياع يحيط بهم من كل جانب .

لن يأتي أحد ، لا أحد ، لقد مضى يوم تعيس .

ــ لقد شربت ، وشربت لكي أنسى ، أن بلادا أخرى تنتظرني ، وبأني عجوز محطم وبأني كنت شجاعا يوما ما ...

والتهم الليل ضوء أحمر وكان شبح يترنح . وفي ذهنه ذكريات ميتة . وثعبان بارد يلتهم جسدا شابا . وكانت أنجم تضيع في السماء ..

انتهت

هوامش وأبعاد

بقلــم
احمد محفوظ عمر (١)

زاغ عقله تماما وهو يهوي الى أسفل ، قاطعا في ثوان قليلة المسافة الفاصلة بين أعلى (الحفرة) وقاعها المظلم العميق ، تراءت له الفتحة فوق رأسه بعيدة ... بعيدة ... والدائرة التي تحيط به ضيقة ، تكاد تخنقه بهمجية وتحت قدميه تدبب الاحجار رؤوسها لتخز قدميه بعسر لا يتيسر ... فرفع يديه الطويلتين الى فضاء أطول وهتف بذهول .

يا رب كل شيء ... أعطني ظهرا قويا ونفسا عميقا .

ولم يكن هناك سوى صوته بالصدى يتراجع ، وانكفأ ينشج بحزن الاحقاب السحيقة ، وينسحق تحت معاول الواقع حتى النفس الاخير .

---

(١) من اليمن الجنوبية ، اكمل في تعليمه نهاية المرحلة الثانوية . تولت امه الانفاق عليه وكان ابوه فقيرا يعمل نجارا ، ومات في اثناء العمل ، وهو آخر العنقود ، وكان ترتيبه بين اخوته الثاني عشر ، ثم ماتت امــه ، بدأ كتابة القصة وهو في منتصف الخمسينيات وهو طالب بالثانوي ، أصدر سنة ١٩٦٠ مجموعته الاولــى « الانذار الممزق » ، واصــدر سنة ١٩٧٤ مجموعته الثانية « اجراس الصمت » . وقد نشر في كثير من الصحف اليمنية والمصرية والبيروتية والعراقية وغيرها. اما قصته « هوامش وابعاد » فقد نشرت بمجلة « اليمن الجديد » (عدد يونيه ــ يوليو سنة ١٩٧٧) .

سمع ضجيجا مهولا ••• فأدار بؤبؤي عينيه في محجريهما هلعا في الدائرة المحيطة به ••• ورأى مجموعة من الاشباح دقيقة الاحجام ، يتقدمها قائد ، له رأس ضخم ••• ووجه مطموس الملامح ، يتوسطه شارب كث . وقامة كالخيط الدقيق ••• وحين اقتربت منه المجموعة ••• استطاع أن يرى الاقدام الغليظة وهي تسير نحوه بخطوات منتظمة ، فاعتمد بظهره على جدار الدائرة يستند به ويحتمي ، وهو يستقبل زحفهم الحثيث ، يتقدمهم صراخ مهول ••• ينبعث من أعلى ومن أمام ومن أسفل ••• وحين لمس وجه قائدهم الضخم يحتك بوجهه ••• أغمض عينيه والرعب يهز أعماقه ••• وشعر بضربات المطرقة على رأسه ، وعندما فتح عينيه مرة ثانية ••• عرف أن الاقدام الغليظة تجيد أيضا الهرب السريع •

رفع رأسه الى أعلى ، ورأى من الهوة الالعاب النارية في الخارج ، ترتفع وتهبط أمام عينيه ، وهي تنث شظايا ملتهبة ملونة ، فوارغ الكلمات تتساقط اليه في العمق ••• قشورها تتمرغ في التراب . اما ألبابها فتهبط الى أعمق أعماقه • تنهكه وتبعثره ••• وجسمه يتجفجف كطائر ذبيح وسط عرس الاعراس المبهرجة •

استعاد نظراته المعلقة من أعلى ، فحومت حول وجهه هلاهل من رؤى مارقة كطلقات ملتهبة في ظلام ليل مكثف رهيب ، وتحسس صوته وهو يصرخ فتتداعى جدران الدائرة المحيطة به •

يا رب الارباب ••• أعد طعم الحياة الى فمي المر ، وايقاع السعادة الى قلبي المكلوم وأوجد للحقيقة قاعدة تسندها وتحميها •

ولكنه كان هناك ••• يكرع الى جوفه كؤوس المرارة والعزلة . ويصدم بمذلة الرفض ••• ويعانق بانهزام كلمات راهبة في تمتمات هامسة حرور •

مد يديه الى جدار الدائرة العميقــة ، يتلمس مواضع يرتقي بها الى أعلى وهو يفرد قامته ••• ولكن الهوة بعيدة ••• بعيدة ••• وجــدار الدائرة مسطح، والفشل يغطي كل شيء حوله••• فتتهاوى الى أسفل••• راكعا ••• يلهث بأنفاس قصيرة متلاحقة •

حين اعتلى سيارته الصغيرة يتهادى بها الى عرس الاعراس في الساحة الواسعة ••• كان يرى في الطريق ، عيونا كثيرة تتقافز أمام ناظريه ••• بعضها مألوفة ••• وبعضها مجهولة ••• بعضها تطل من وجوه حزينــة منكفئة ••• وأخرى ••• من وجــوه سعيدة تحمــل شوارب كثة ••• وعند وصوله الى مكان الاحتفال ، لم يكن أحد قد سبقــه ••• غادر السيارة ••• وسار خطوات معدودة الى الامام ، ووقف أمام (حفرة) صغيرة في الارض ، وهو يجيل الطرف في رقعة الارض الممتدة أمامه •

وفي آخر مدى يصل اليه نظره ••• رأى سلسلة من الجبال تنتشر لمسافة بعيدة ، وتطوق جزء من ساحة الاحتفــال المرتقب ••• وقبل أن يأتي على نهاية سيجارته ، شعر بيد مجهولة تدفعه من الخلف بقــوة ••• وألفى نفسه ينحدر مع الدفعة ، وتفقد ساقاه قدرة التحكم في الاتزان ، وشعر بحافة (الحفرة) تتسع وتحتويــه في أعماقهــا الى أسفــل ••• وفقد كل حواسه اثناء السقوط ، ولم يستعدها الا عندما ارتطمت قدماه بالقاع وهو يلهث ••• ونبضات قلبه تتسارع بعنف المفاجأة •

ولكنه الآن هنا ••• يمارس الواقع ، وينخر جدار الصمت بصوت مثلوم ، وحس معدوم ويضاجع عابسات الافكار بصدر ضاج وشبــق محتضر •

تأكد له ان الاحتفال بدأ يكتمل ويصل الى ذروته ••• وحين سمع الجلبة فوقه تتسع وتعلو ، والنيران الملونة تسامق السحاب اثناء اطلاقها ، والزغاريد المنطلقة تتواصل ولا تنقطع ، وتشكل مطارق ضخمة ، تهوي

على رأسه وتضاعف كتل الظلام حول عينيه... انتثر واقفا يعاود المحاولة بهمة نادرة ... وأمل مندفع .

ولكن الحقيقة باتت كاملة الضياع والاشيـاء اختلطت ببعضها ... وصارت كتلة في ... ورفع رأسه الى أعلى ... وهتف بصوت مذهل :

(يا مقتدر يا جبار ... أحم الانسان من الانسان) .

ولكن أحدا لا يحمي أحدا في دنيا اللهيب المتصاعد والشطط المحموم والظلام المحيط بدوائر الاشياء . وبقي هناك ... يتحلب الصبر بشفتيه الظامئتين ، ويراعي النفس بالتأسي ، وينوح لوحده بدمع منهمر ساخن في ذات فجر مبهج ضحوك ... ويكابد الوحدة مأزوما ويلعق العلقـم بخور وانتكاس .

لقد أنهى كل أعماله في الصبـاح الباكر وهيأ نفسه لحضور عرس الاعراس البهيج ... بعد أن صلى لهذا اليـوم طويـلا ، وسبح حتى اعوجت لسانه ، وحين حضر ، كانت الفرحة تغمـر وجهه ، وترعش كل وجدانه ، ولكن اليد المجهولة طمست معالم الفرح ... وزرعت مكانهـا الكآبة والضياع ... وجرى الفرح على بعد أمتار قليلة فوق رأسه ، وفي جو مليء بالزغاريد الهازجة ، والصخب المبهرج ... وهو مركون على الهامش في (الحفرة) وأنف سيخ محمى يدمي وجهه ... ويطعن أعماقه بهمجية ويتحمل متاعب القرن العشرين بفدائية لا تبارى ، ويتجمل بصبر الانبياء التقاة .

تمنى وهو يلهث وينكفىء أن يمسخه اللـه حشرة حتى يزحف على جدار الدائرة المسطح الى أعلى ... وينطلق من هذا القبر الرهيب الى دنيا النور والحضارة ... ولكن للرفض ثقله في اقرار المصائر المستجدة.

عادت الاشباح من جديد برؤوسها الضخمة ، ووجوهها المطموسة

وقاماتها الدقيقة ، وشواربها الكثة ... تزحف من زاوية أمامه ، يتقدمها قائدها والعويل المهول يصخب من كل مكان . وتغلغل الخوف داخلـه يطحن أعماقه اثناء التقدم الحثيث ... وصرخ بصوت متقهقر :

ـ أطلقوا سراحي من هذا العذاب ... فأنا بريء ... بريء .

ونعب ألف غراب فوق رأسه : ـ لا ... لا ... لا ...

وتكرر احتكاك الوجه بالوجه ، وتوالت ضربات المطارق على رأسه وأغمض عينيه ، وتهالك راكعا على ركبتيه يلهث منهـارا ، والفزع يدق أعماقه بشراسة وقسوة... وحين فتح عينيه مرة أخرى... كانت الاقدام المجدة للسير المنظم قد اختفت من أمامه ، تاركة بصماتها في كل زوايـا دواخله .

مد يديه الى فضاء طويل ، وهتف بصوت باك :

ـ هدهم يا ليل الازمان ... علّمهم يا خلق الانسان بمآسي العصر العاتم ... فأنا بريء ... بريء . ولكن أحد لا يسمع أحدا في الاجواء المبهرجة الصاخبة ... وكان عرس الاعراس ... وكان هو هناك حقيقة تناويء الزيف والاوهام .

من حوله برزت رؤوس من شقوق ضيقة تضحك باسفاف . وأخرى تنادي صمت الايام ... رؤوس تناومت بلا مبالاة وأخرى أطلت تتحفز للانقضاض الحاسم ... ولكن الطريق الى أعلى طويل ... طويل ... والضياع يبتلع الحقيقة ويزيفها وفوق كتفيه يحمل عبء السنين العابسة برضى لا حدود له .

عندما وقف أمام حافة (الحفرة) كان الاطمئنـان ينتشر في صدره ويعكس نفسه على وجهه ، ولم يحس بأي شعور غريب مقبض . كذلك الذي يستشعره عند قدوم الخطر ، كما انه لم يشعر بوقع خطوات خلفه.

كان هادئا ، وكل شيء حوله كان كذلك ، ولكن اليد المجهولة الآثمة ••• تسللت خفية وبخفة ودفعته الى العمق •••

لا شك انها كانت يدا طويلة سبحت في الفضاء من مسافة بعيــدة ، بحيث لم يتمكن من التنبه لها اثناء الاقتراب من ظهره •

وطوّق بفكره طويلا يبحث عن صاحب اليد الحاقدة •

ذات يوم اكتسب عداوة زميل له في العمل بالبراءة كلها ، حين صحح له خطأ في النحــو اثنــاء املائــه رسالــة لاحــدى العامــلات عــلى الآلة الكاتبة ••• وقبل أن يسترسل في الشرح ••• رأى وجهه يتحول الى قطعة لحم حمــراء ، ولسانه يصــاب بالشلل ••• وبؤبؤي عينيــه يتحركان وسط كأسين من الدم ••• ومرت فترة ملغمة بالحرج والاستياء، ثم سمعه يرد عليه بصوت غليظ غاضب •

ـ ليتك تحافظ على مواعيد عملك ••• مثل محافظتك على لغــة المهزومين •

واستوقفه وهو يهم باجتياز الباب الى الخارج قائلا :

ـ لا تنس ••• هنا الاخلاص قبل الكفاءة •

وفي يوم قبل يوم السقوط ، سأله بحقد داكن :

ـ لماذا تستهويك عداوة الآخرين •

شيء واحد تأكد له بعد ذلك ••• هو ان الزميل لم يعد يملي خطاباته الادارية أمامه • ولكنه الآن هنا حقيقة في البئر العميق ، ينفض غبــار الحقد من رأسه ، ويتجشأ الحزن الراكد في يوم عرس الاعراس البهيج •

رفع رأسا حاسرا ويدين طويلتين الى فضاء أطول ••• وصرخ :

ـ يا واهب الجبروت والقوة ، أنر البصائر ، ورقق القلوب •

ولكن الصرخات تذوب في حمى البهرجة ، وصخب الاعراس وتختلط أصوات التهليل والزغاريد المنطلقة ، فتكون كتلــة ضخمة من الضجيج المتكامل •

انجابت صور ، وحلت مكانها صور أخرى ••• مليئة بالنيران الملونة، ومع صعود كل طلقة ملتهبة وهبوطها ••• كان يرى جزءا من جسم العدالة لينسلخ ويهوي معها فيصرخ مفجوعا :

ـ يا رب العدالة ••• أحم العدالة •

فجأة ••• نبت من جانبه شيخ كبير الرأس ، مطموس الوجه ، بقامة دقيقة وشارب كث •• وتبعه آخر •• وآخر ••• وآخر ، وامتلأت الدائرة حوله وشعر بأنفاسه تضيق ، وبنفسه تضيع في غمرة الزحام ، واختلاط الانفاس ••• والقلق المبيد يدك أوصاله بتمكن وضراوة ••• ومن الهوة البعيدة أعلاه ••• لمح وجها مألوفا يقترب من فوهة الحفرة ويركع محملقا في الاعماق ، فعاود الامل المتململ يدغدغ أحاسيسه المبعثرة فرفع يديـه يحييه ويستند به ، وخرج صوته غائرا متذبذبا ••• ولكن الوجه المألوف لم يعد كذلك ••• انعطف بوجهه الى الخـارج ، وتكامل واقفـا ••• وسار الى امام ••• بعيدا عن عالم الراسفين في الاعماق ، ولمح على ظهره صورتي التنكر واللؤم القبيح •

وحضر نفسه لاحتكاك الوجـوه وضرب المطـارق بعينين مغمضتين وتراكمت الاقدام هاربة كالعادة بعد ذلك •• وتهالك على ركبتيه ينحب بصوت محتضر حزين •

وبقي هنـاك وحده عرضة للتنكر ولسكاكين الازدراء تطعنه وتدميه بجبروت ومهانة •

اليد المجهولة الحاقدة ••• دفعته الى الاعماق ، وتركته في محنته ، يعترك مع الاهوال والمخاوف ••• وعلى مقربة منه يجري الاحتفـال ، ويعم الحبور ، وترقص السعادة فوق الوجوه ، وداخل الصدور •

أراح رأسه على جدار الدائرة ، وهو يسحب نفسا عميقا ، من داخله

ويزفره الى الخارج عبر أنفه ••• وقبل أن يغمض عينيه • نفرت دمعة وافترشت وجنته اليسرى ••• ثم تناسلت وكونت خيوطا من نقط متعاقبة ساخنة ، وسمع نشيجه يختلط بزغاريد عرس الاعراس •

وعبر الافق المضبب ••• رأى المسيح يصلب من جديد ، وأطفالا عراة تطحنهم قنابل العدوان ••• وألف نبي يمرغون جباههم في فضاء وسيع يستجدون المغفرة والهداية ••• وهتف مع الهاتفين بصوت مشروخ :

— يا رب كل شيء ••• أنفث في الحنايا ألحان السماء •

ولكن اليد المجهولة اللعينة دفعته بلؤم ••• كأنها تعتق كل حقد السنين المتراكم في داخلها في تلك الدفعة الخفية المجرمة •

قبل شراء سيارته الصغيرة ••• ركب (الباص) من منطقة عمله الى مقر مسكنه ••• وجلس بجانب امرأة تلتحف بعباءة سوداء وتضع على وجهها طرحة سوداء مشجرة ، ولا يظهر من أجزاء جسمها سوى أطراف أصابعها البيضاء ••• والتصق فخذه بفخذها بتلامس عفوي ••• ثم عادا الى الالتصاق بقصد مشترك ••• وأحس بلحم فخذها طريا بضا وهو يترجرج بفخذه اثناء تمايل (الباص) في سيره ••• وشعر بالوحش في جسده يستيقظ برعونة ، ويضيق بقطعة القماش حوله ، ووجيب قلبه يتسارع ••• وحرارة صاهرة تخترق طبلتي أذنيه الى الخارج ، وأخذت أصابعه تهتز وتكاد تلفت الانظار الى وجهه المحتقن وهو يمسك باثنتين منها سيجارته المفلترة الملتهبة ••• يرفعها الى فمه بين فترة وأخرى بحركات متشنجة تدعو للرثاء ، ولم يتنبه لاحد من الركاب الا حين توقف (الباص) وأخذ يلفظهم من جوفه واحد اثر آخر ••• ولحظ عيني رجل مسلطتين عليه بنظرات ضاربة حاقدة ••• فاهتز في مقعده بعنف والارتباك يعصف برأسه ، ولكنه لم يره بعد هذه المرة مطلقا ••• ولم تنمح تلك

النظرات من عينيه أو ذهنــه • ولكن مهما يكن الامر ••• فلا يعقل أن يمد له تلك اليد اللئيمة ويدفعه الى مهاوي الهلاك والاهوال •

وأسقط رأسه بين يديــه ، وتمنى أن تنبع الميــاه من تحته في البئر الناضبة الى أعلى ••• الى أعلى ••• وترفعه معها حتى الحافة المشؤومة ، لينطلق من العسير ، ولكنه ليس نبيا يضرب الارض بيده ••• فتتدافع المياه من بين أصابعــه ••• وعصر المعجزات الغيبية قد انتهــى ••• ولا عاصم اليوم من أمر جرى في غفلة من الزمن اللئيم •

ارتفت أصوات الزغاريــد المدويــة ••• ورددت الطبول ايقاعهــا الشعبي الراقص ، فتخيل المحتفلين فوقه في قمة الابتهاج ••• ورأى من الهوة النيران الملونة ترتفع وتهبط ، والبيارق المشرعة المرتعشة بالايــدي المتشنجة تهتز وتتمايل ••• تظهر وتغيب ••• وصلصلتها المنغمة تصاحب حركاتها •

وهو هنا في القاع العميق ••• مستهدف لغضب الاشباح وضربــات المطارق ومهانة التجاهل المقبض ••• ونزيل سجن لا استئناف له •••

لقد أصبح للثواني أنياب قاطعة تفري أعصابه الكليلة وتكر بتباطؤ متأخر وأحلامه مشنوقة في سقف المجهول الازلي ••• تسيجه الموانــع اليومية ••• وترسم على وجهه المقطب ابتسامة حزينة مهيضة ••• وكان يحلم بأيام وردية في يوم عرس الاعراس ••• ولكن فجأة شعر بالدفعــة الخفية وبالزلزال يهز كل شيء حوله ، وأصبح هنا في القاع المظلم العميق، يجتر الآلام ••• ويرقب ويتمزق حتى العظم •

بدأ الظلام يزحف بمهل على ساحة الاحتفــال الواسعة ، وانتشرت طيوب المساء المنعشة في الارجاء المترامية ••• تغسل عرق النهار وتؤذن بنهاية الصخبة، وبهجعةقصيرة تخلد فيها الاجساد الىالهدوء والاستكانة. وبدأت الايدي تخفف من ضرب الطبول والاصوات الزاعقة تتراجع الى

حناجرها متعبة مبحوحة ••• وشعر بالخوف يسلأ نفسه ••• وكلما خفت صوت أو استكان طبل الى الصمت ، يشعـر بالوحشة تطبـق على كل أنفاسه وتشتتها •

الظلام اكتمل انتشاره ••• والمختلفـون يغادرون الساحة فـرادى وجماعات • والهدوء بكل ثقله المميت يضاعف عذابه ••• والهوة فوق رأسه تضيق وتضيق وتشاكل خرم الابرة ••• ومن حوله بدأت حشرات المساء الضارة تسعى ••• والاشباح تتناسل برؤوسها الضخمة ووجوهها المطموسة يطلق آخر صيحة رجاء محملقا في الهوة المظلمة •

ــ يا من أعدت لايوب صحتـه وماله • وأنقـذت يونس من بطن الحوت ••• وأخرجت يوسف من سجنه ••• انقذني من بئر الاهوال •

ضاقت الدائرة بالصوت المدوي ولكنه لا يتجاوزها الى أعلى ••• ورأى بوجه أسيف يدا مجهولة تمتد فوق الفوهة ••• ثم رآها تتضخم وتحجب الرؤية عن الخارج تطبق على الهوة ••• باصقة مزيدا من الظلام الى أسفل ، وبدأ يشعـر بدبيب الحشرات الضارة فوق جسده المتهالك وباقتراب الاشباح من وجهه فأغمض عينيه ، واستمر الاحتكاك وتوالت ضربات المطارق على رأسه ••• فتهاوى راكعا على ركبتيه ••• واقعى يبكي بجنون •••

انتهـت

الحذاء

بقلم
عبد الله سالم باوزير (١)

عندما دخلت البيت في السادسة مساء ، بعد انتهاء عملي ، بادرتني زوجتي قائلة في لهفة كمن يفضي بسر رهيب :

ــ أما علمت ! الشقة اللي فوقنا ، أقصد اللي نحن تحتها ... أعني الشقة التي فوق رؤوسنا ، استأجرها يوم أمس ، جندي يعمل في الجيش .

وسكتت لترى وقع ذلك الخبر عليَّ ، ولكنني لم أعرها أي اهتمام، فأنا منذ فترة طويلة لم أكن أهتم بما يحدث حولي ، فانهماكي في العمل جمد كل اهتماماتي ، حتى القراءة هوايتي المحببة الى نفسي كنت أراها عملا اضافيا يضاف الى عملي اليومي . ساءها صمتي واستقبالي الخبر بفتور فقالت :

---

(١) التحق بالمعهد الديني ببلدة غيل باوزير ــ حضرموت . ترك الدراسة وهو في سن السادسة عشرة ليعول اسرته بعد مرض والده. وزع حياته بين موظف في حضرموت ، ومهاجر في عدن، نشر سنة ١٩٦٥ مجموعته الاولى بعنوان « الرمال الذهبية » ونشر سنة ١٩٦٨ مجموعته الثانية بعنوان « ثورة البركان » . يكتب في كثير من الصحف اليمنية ، اما قصته « الحذاء » فقد نشرت بمجلة الحكمة (اغسطس ١٩٧٥) .

ــ لقد أصبحت متحجــر الاحاسيس هذه الايام ، ألا شيء يثيرك أبــدا ؟

قلت دون مبالاة :

ــ ساكن جديد يهل علينا أهذا خبر مثير •

قالت :

ــ ولكن هذا الساكن جنــدي في الجيش ، ويقولون ان الجنــود يميلون الى الصرامة والعنف •

قلت :

ــ هذا في عملهم طبعا ، بل ومن واجبهم ان يكونوا كذلك •

قالت وقد أصيبت بخيبة أمل :

ــ أما ترى كيف يسوقون سياراتهم بسرعة بالغة في الطريق العام •

قلت مبتسما :

ــ وهل يخلد في بالي بأنه سوف يسوق سيارته داخل الشقة !

قالت :

ــ أف عليك ما عهدتك بهذا البرود من قبل •

لم أجبها ، اتجهت الى الحمــام ، اغتسلت وغيرت ثيابي وخرجت ، وفي الشارع عاد الهــدوء الى نفسي ، وشعرت بأنني أنطلــق من سجن مغلق • وأخذت أتجول في الشوارع على غير هدى ، وأنا أسأل نفسي : « عجيب ان يكون الشخص منا في بيته فيحس بالوحشة ، ويكون خارج بيته ويحس بالطمأنينة » • عدت الى رشدي والظلام مخيم على الشارع، ومن بعيد أخذت بعض أعمدة النور تصارع ذلك الظلام لتبدده فلم تفلح الا ان تضيء لنفسها فقط •

تذكرت ••• وأصغيت الى حديث زوجتي « جنـــدي ••• جيش ، صرامة ، عنف ••• » اختلطت هذه الكلمات بالظلمة ، أصبح كل ذلك كابوسا يطاردني حتى باب المنزل •• عند ذلك أيقنت ان السجن داخلي أنا • دخلت المنزل فترامى الي صوت الراديو يردد «تفجير نووي جديد» أقفلته واتجهت صوب التلفزيون طالعتني صور المجاعة في الهند ، أعرضت عنه ودخلت غرفة نومي ، التقطت صحيفة الصباح ، صعقت من أعمـــال اسرائيل في الارض العربيـــة المحتلـــة ، رميت بالصحيفة جانبا ، دسست رأسي تحت الوسادة وقرأت « آية الكرسي » هدأت نفسي بقراءة القرآن، استسلمت للنوم • نمت • لا أدري كم من الوقت مضى عندما استيقظت مذعورا على أثر ضربات عنيفة على سلم المنزل ، طاخ •• طاخ •• طاخ •• التفت مذعورا فاذا بزوجتي تهمس في أذني قائلة :

ــ ها هو طالع السلم •

قلت في حنق : ــ من هو ؟

أجابت بانتصار : ــ « الجندي » •

قلت : ــ ومن أعلمك بذلك •

أجابت : ــ وهل تراني نمت حتى الآن ، لقد كنت أراقبه من خلال هذه النافذة التي أمامك حتى دخل المنزل •

قلت : ــ وكم الساعة الآن ؟•

قالت : ــ الواحدة بعد منتصف الليل •

قلت : ــ وما هذه الطرقات التي على السلم ؟

قالت في ثقة العارف بالامور :

ــ حذاؤه ، لقد كان لابسا حذاء ضخما لم أر مثيلا له من قبل •

تهالكت على فراشي وصوت الحذاء يعلو ويعلو ، وكأنه يهوي على رأسي •

اقتربت زوجتي مني وقالت :

ـــ لقد حذرتك من قبل ، فماذا نعمل الآن ؟

قلت لها في تبرم : ـــ ننام ، وفي الصباح ننظر في الامر •

أجابت : ـــ هكذا أنت دائما ، تؤجل وفي النهاية لا تعمل شيئا •

قاطعتها قائلا وأنا مقتنع تماما بما قالته :

ـــ لعله تنبه الآن لسوء فعلته ، فقد كف الآن ذلك الحذاء اللعين عن العمل ، وعلى كل حال الصباح رباح •

أشاحت بوجهها عني وهي غاضبة وأوت الى فراشها ، وبعد لحظة صمت قطعتها مطرقا مفكرا ، سمعت صوت ارتطام شيء ما بسقف الغرفة ارتطاما عنيفا مما جعل كلا منا يقوم من فراشه ويمسك بالآخر في ذعر وخوف •

قلت : ـــ ما هذا ••• يخيل الي ان هذا جدارا هوى على أرض الغرفة التي تعلونا •

ولم أتم جملتي تلك حتى سمعنا ضربة أخرى على السقف كتلك الاولى ، عند ذلك قالت زوجتي في يقين العارف بكل شيء :

ـــ عرفت الآن •

قلت على الفور : ـــ عرفت ماذا ؟

قالت : ـــ هذه عادتهم دائما •

قلت مستفسرا : نعم !•• ما هذا التخريف •

قالت كمن يحدث نفسه :

ــ انك لم ترها مثلي ، ان كل فردة منها تزن اكثر من ثلاثة كيلو .

قلت وقد نفذ صبري : ــ عن ماذا تحدثينني أفصحي ؟

أجابت : ــ عن فردتي حذائه ، واذا افترضنا انه هوى بها بعنف على سقف الغرفة فسيصبح وزن كل منهما ضعف ما تزنه . أردفت قائلة :

ــ اطلع له الآن .

قلت : ــ لا داعي للعجلة غدا سننظر في الموضوع .

قالت : ــ أعرف ما ستفعل غدا ، سيمر وقت طويل قبل ان تتحدث اليــه .

قلت مازحا : ــ اعتبريها دقات ساعة سقف .

ونمنــا ...

مر اسبوع كامل منذ تلك الليلة والحذاء « يزمجر » فوق رؤوسنــا كل ليلة حتى تعودنا ان لا نمضي للنوم الا بعد ان يدخل الجندي غرفته ويرمي حذاءه فوق رؤوسنا فردة بعد أخرى ، بعد ذلك ننــام مطمئنين وكنت خلال ذلك الاسبوع أحدث نفسي كل ليلة بأنني في صباح اليوم التالي سأفاتح الجنــدي في الموضوع فتلهيني مشاغلي عن ذلك . وفي صباح ذات يوم التقيت صدفة بجارنا « الحاج جمعة » تحدثنا في أمور كثيرة ، ثم عرضنا الى موضوع ذلك الحذاء . عند ذلك طمأنني الرجل وقال : ــ « لا تقلق يا بني ، سأتوسط أنا في الامر ، وسأخبره أن يبطل عنتريته في مثل تلك الساعة المتأخــرة من الليل ، وسأعلمه كيف يطلــع السلم في هدوء » . وسكت ثم أردف قائلا :

ــ وسترى نتيجة عملي من هذه الليلة ان شاء الله .

وفي المنزل أخبرت زوجتي بذلك الاتفاق ، سرها ذلك وقالت :

ــ سنرى هذه الليلــة وسأشرف أنا على عملية طلوعــه لاتأكد من تنفيذ الاتفاق كاملا •

ابتسمت من لهجتها القانونية وقلت :

ــ أتدرين في أي عمل أرشحك ؟•

قالت : ــ لا • قلت : ــ مراقبة في قوات الطوارىء الدولية •

قالت :

ــ هكذا أنت ، لسانك طويل في البيت فقط ، أما خارج البيت فلا تصلح لشيء •

قلت : ــ قد تكونين على حق في ذلك •

وجاء الليل ، وأزف موعد وصول الجندي ، ووقفت زوجتي خلف ستارة النافذة تترقب وصولــه تماما مثل جنــدي مراقب ، وأشارت لي بيدها بأن الجندي وصل ، وأصخنا السمع ، ومرت ثلاث دقائق ، وخمس وعشرون والسكون مطبق على المكان ، عند ذلك تأكدنا من حقيقة ما قاله لنا « الحاج جمعة » وانه نجح في وساطته مع الجندي •

اقتربت زوجتي مني وفتحت لي ذراعيها واحتضنتني ، ثم قالت مقلدة صوت جندي الخنادق في ساحة الحرب :

ــ لقد أعلنت الهدنة ••• وضحكنا سويا •

ونمنــا •••

مر أسبوع آخر بعد تلك « الهدنة » كنا خلاله قد نسينا قصة ذلك الحذاء ــ وهكذا نحن دائما ــ وفي ذات ليلــة ، وفيما نحن في سبــات

عميق ، واذا بنا نهب من نومنا فزعين مرعوبين اثر صـــوت ارتطام ذلك الحذاء بسقف الغرفة في ضربة قوية أعادت الى نفوسنا الخوف والقلق ، ولم تحتمل أعصاب زوجتي سماع الضربة الثانية فانهارت وارتمت على فراشها وهي تصم أذنيها بيديها ، بينما طأطأت أنا رأسي في انتظار فردة الحذاء الاخرى ...

انتهـــت

رحلة

بقلم
زيد مطيع دماج [١]

الطريق غير معبدة وقد اهملت ركونا على شركة المانية بدأت بالرصف ببطء •• الغبار يكاد يخنق الركاب والجو بارد فالشمس ما زالت تحتجب خلف قمم الجبال الشامخة •• ومطبات تكاد تفقد المرء ضلوعه وصوابه معا •

وحوار ومنادمات سمجة ومملة •••

لا يخف الغبار الا عند طلوع (الباص) [٢] أحد الجبال فتنفتح النوافذ لبطء سيره بسبب الصعود اضطراريا ••

---

(١) من مواليد سنة ١٩٤٤ ، نال الشهادة الابتدائية سنة ١٩٥٧ من تعز ، ونال الاعدادية سنة ١٩٦٠ من بني سويف بمصر . والثانوية العامة سنة ١٩٦٣ من مدرسة المقاصد بطنطا ـ مصر . التحق بكلية الحقوق ـ جامعة القاهرة ، وبعد عامين تركها لكي يلحق بكلية الآداب . لم يكمل دراسته فأنهى السنة الثالثة لاسباب خارجة عن ارادته ، يعمل الآن محافظا بلواء من الوية اليمن الشمالية . بدات الصحف تنشر انتاجه من سنة ١٩٦٦ ، وقد أصدر سنة ١٩٧٣ مجموعته « طاهش الحوبان » . اما قصته « رحلة » فقد نشرت بمجلة الحكمة (فبراير ١٩٧٦) .

(٢) الباص : الحافلة .

كان الجو رائعا ومنعشا بعد ان تركنا وراءنا جو تعز الموبوء بالادخنة المشبعة برائحة المطاعم والمقاهي (والصاص) [1] الاصفر •••

وبدأ جو الجبال ينظف بعض مناسمنا العكرة من الغبار •••

المزارع تعج بالمزارعين الحاصدين للغلال المصابة بالجفاف •• لعنت الطريق وغباره •• لعنت النوافذ والرياح •• كنت أود فتح زجاج النافذة لمشاهدة الرعيـة [2] ونسائهم وحيواناتهم •• وأسمع أصواتهـم الرنانة بالحان الحصاد •• لعنت المنادمة السمجة والحوار الصارخ •• لعنـت رائحة زميلي في المقعد المكتظ بجانبي ورائحته العطرية القوية من الصباح ••• ربما قضى ليلة حمراء في (حي الجحملية) [3] •

فتحت زجاج النافذة ونحن على سفح الجبل وقد انبسط الـوادي بسكانه كالنمل يدبون في اعمالهم •• تأملت وقد قاطعني زميلي راجيا مني اقفال زجاج النافذة وانصعت لطلبه وربما كانت فاتحة للمحاورة معـه فسألني قائلا : ـــ

ـــ أتعرف هذه المنطقة ؟

ـــ نعم ••

وهز رأسه متأملا : ـــ

ـــ انني اعرفها اكثر من غـيري فهي ممتلئة بـالاشرار والعصاة •• فأطرقت مستغربا • فأسترسل قائلا : ـــ

ـــ اذن فأنت لا تعرفها ••

ـــ بلـى ••

---

(١) الصاص : طبيخ بالبهارات .
(٢) الرعية : الفلاحون .
(٣) حي الجحملية : حي شعبي في مدينة تعز .

ونظرت الى الوادي وسكانه فقال : ـ

ـ لا يخدعوك بهذا المظهر الكادح ...

ـ يبدو انه حقيقة ..

ـ الحقيقة انهم اشرار وقطاع طرق .. (غبر الوجوه اذا لم يظلموا ظلموا) . سئمت الحديث معه لكنه اصر : ـ

ـ أتدري .. ان الشيخ (عبده المداح) وعائلته قد ابيدوا هنا كلهم عن بكرة ابيهم ..

ولم اجب .

ـ بطحوا على الارض واطلقت عليهم الرصاص فردا فردا وببطء .. نساء وأطفالا .

ولم اجب فاستمر : ـ

ـ صادروا أرضه ونهبت ماشيته وممتلكاته ونسفت جميع دوره .. ولم اجب فاستمر وقد تغيرت سحنته وقوي صوته :

ـ لكنه قاتل قتال الابطال وابلى فيهم بلاء حسنا ... وصمت لحظة ثم بدأ صوته هادئا فقال :

ـ وفي الحقيقة .. لولا اعانة الشيخ (علي الدريح) برجاله وماله وسلطته ونفوذه لما ثأر له احد .. واستمر وقد اتقدت عيناه بومضات براقة :

ـ لقد لوحقوا في كل مكان وقتل منهم الكثير وسحل البعض .. وخربت قرى بأكملها ...

ولم اجب لحواره لكنه لم يستمر بل هز كتفي وقال : ـ

ـ مالك ساكت ..؟
ـ أسمع وانصت ...
ـ ألم تعرف الشيخ عبده المداح ؟
ـ ربما سمعت عنه ..
فقال متكلفا الغضب : ـ
ـ لقد افسدت علينا الرحلة ..
ـ لمـاذا ؟
ـ لم تكن متجاوبا في الحديث ؟
ـ كيف وانا انصت منذ ساعة ..؟
ـ ربما تكون منهم .. ؟
وأدار رأسه نحوي بغمزة خبيثة لم أكن اتوقعها فقلت متسائلا : ـ
ـ من هم ..؟
ـ العصاة ... المقاومون جموع تلك الجبهات ..
ـ انا موظف عادي ..
ـ ايـن ؟
ـ في صنعاء ..
ـ هـه ..
ولملم جموع غيظه بعد فترة صمت قائلا :
ـ كم فساد ومفاسد في الحكومة ...؟
ـ لا يخلو اي بلد من ذلك ..

ويبدو انه قد اقتنع بعدم جدوى طرق أحاديث تعكر صفوه وتزيـد الامر سوءا فصمت ..

كان الانحدار شديدا حتى كدنا نضيق بذلك .. والغبار ما زال يكتظ والشمس قد بدأت تلسع بحرارتها وجوه الراكبين على يمين « الباص » واسدلت الستائر من الناحية اليمنى ..

فتحت زجاج النافذة وحاولت الايحاء للزميل الذي يركب في المقعد الامامي مباشرة بفتح نافذته ويبدو انه مزارع عادي قد بلغ الخمسين من عمره •• نحيف البنية شاحب الوجه يلبس « كوفية خيزران »[1] من النوع الرخيص ، التهم العرق نصفها الاسفل •• وقد التحف بكيس النوم الغليظ ••

وبجواره رجل مهندم بدين في الخامسة والثلاثين من عمره بالبدلة والكرفتة المشابهة للون البدلة ونظارة طبية غالية الثمن وقد جلس الى جواره في المقعد الاحتياطي على الممر شاب عادي •• وكانت زوجة الرجل المهندم مع اطفالها في المقعد الامامي له كانت تبدو جميلة من ومضات عينيها خلف النقاب الشفاف اثناء محادثتها لزوجها •• كان حبه لها يظهر من خوفه عليها من الغبار والاختناق فهو في صياح دائم مع الركاب ليفتحوا زجاج النوافذ وكم من مرة قام بنفسه بفتح النوافذ خوفا من أن تظهر يد زوجته البضة المطرزة بالخضاب والاساور الذهبية •••

طلبت من المزارع النحيف ان يفتح النافذة فلم يمانع لكن زميلي ذا الرائحة العطرية اصر على اقفالها والاكتفاء بالنافذة التي بجوارنا مما دفع الرجل المهندم ان يحدقه بنظرة احتقار ••

قال زميلي ذو الرائحة العطرية : ـ

ـ لقد وصلنا « إب » •••

ـ الحمد لله على السلامة •••

ـ الى صنعاء محل الوظيفة ان شاء الله •••

تزاحمت المناكب للوصول الى مطعم شعبي اكتظت موائده المستديرة بالزبائن وعثرت على مقعد بعد جهد شاق وبجوار الرجل المهندم وعائلته والذي لم يسر لجلوسي كما يبدو •• لكنها الضرورة والا فقد ساءني ذلك •••

---

(١) كوفية من الخيزران : طاقية من الخيزران .

أدركت انه يراقب نظراتي نحو زوجته التي تأكل من تحت النقاب فأهملت نظراتي نحوه وركزت على طعامي .. وبعد صمت حاول ان يبدو اكثر حيوية فقال : ـ

ـ يبدو انه مطعم جيد ..

ونظرت اليه فوجدت الحديث موجها الي فهززت رأسي بالموافقة قال بتذمر واضح :

ـ يا له من شعب جاهل يخاف الهواء ويرضى بالاتربة .

ـ جهل قديم ..

ـ أتدري ان الغبار يسبب امراضا خطيرة ؟

ـ نعم .. لكن البرد كان شديدا ...

ـ الهواء كان منعشا ولا يسبب اي شيء من المرض .. قلت وقد حاولت ان أطمئنه : ـ

ـ يبدو ان الرحلة من الآن ستكون حسنة فقد طلعت الشمس وقلت البرودة وسيكون فتح النوافذ اكيدا ..

قال وقد لوى برأسه يائسا : ـ

ـ لا اعتقد ذلك .. ألم تر ما ان فرحنا بدخول اشعة الشمس نحونا حتى قام اصحاب الجهة اليمنى باسدال الستائر عليها بل واقفال الزجاج ..

ـ ربما كانت اشعة الشمس مركزة في لسعها على وجوههم وخصوصا بعد البرودة ..

ـ اذا فتحت النوافذ خفت وطأة حرارة الشمس ... وساد صمت قام خلاله بمسح أيادي اطفاله وبنهر بعضهم لسقوط بعض الفتات على ثيابهم ...

ونهضنا وعدت الى مقعدي •• وجاء مسافر اخر بجواري ومسافرون اخرون ممن نزلوا في المدينة •• اكتظ الباص بمزيد من الركاب وفتحت المقاعد الاحتياطية التـي على الممر الرئيسي •• وزاد الحـوار الصاخب والمنادمة السمجة •• لكن صوت الموسيقى بدأ يرن من مسجل لطيف علا صوته في المقدمة بينما تهادى بنا الباص بين المزارع وقد امتلأت البطون ونشطت الحيوية للمنادمة ••

حل بجواري رجـل وزميل له على الممر ويبـدو انهما من فطاحلـة المشارعين في المحاكم الشرعية •• وصم اذني مع زميله بقضيته في وزارة العدل وفي الاستئنـاف والاحكام التي نقضت عدة مـرات •• فضلت الصمت •• رأيت خلاله صاحب الكوفية الخيزران التي أكل العرق نصفها الاسفل يلتفت الي باسما ثم يهز رأسه •• أثار فضولي عما يريد مثل هذا « الرعوي » [1] المسكين الطيب •

قلت لنفسي : ربما يكون مشارعا [2] في وزارة العدل • لكن يبدو انه لا يملك المال الكافي لمثل هذه المهمة •• ربما يطلب العمل « كشاقي » [3] بسيط في أزقة صنعاء لكن سنه لا يمكن ان تسمح له بالعمل وحالتـه الصحية •• ربما يكون حارسا بسيطا في فندق او شركة •••

التفت الي مرة اخرى وقد انزل كيس النوم من على ظهره وقـال متسائلا :

ــ اين رفيقك الذي كان بجوارك ؟

ــ نزل في المدينة •

وهز رأسه ثم ابتسم مما اثارني فقلت : ــ

(١) رعوي : فلاح .
(٢) مشارعا : لديه قضية في المحكمة .
(٣) شاقي : عامل .

ــ أتعرفــه ؟

ــ لا ...

وصمت قليلا ودون ان يلتفت الي قال : ــ

ــ لقد كان كاذبا في حديثه ..

ــ كيف ..

التفت الي وقال :

ــ ليس صحيحا ما ذكره عن الشيخ « عبده والشيخ علي » .

ــ أتعرفهما ...؟

ــ أعرف القضية ...

صمت قليلا مما اثارني فقلت له متسائلا :

ــ كيف ؟

ــ لقد كان « الشيخ عبده » من أظلم خلق الله .. ينهب ويسلب وينتهك كل المحرمات .. ويحبس رعاياه في بيت الغائط بين القاذورات « ويبخرهم بالبسباس » حتى يحقق مآربه ...

ــ لا يعقل قولك هذا ..

لمــاذا ؟

والجمني بالحيرة عن كيفية التعليل بينما استمر قائلا : ــ

ــ كل ما حدث حتى الآن .. هو نتيجة لكل هذه المظالم ...

ــ لكن يبدو ان هنالك تطرفا في بعض اعمال المقاومة ..

ــ لا يمكن ان تسميه تطرفا .. انما ردود افعال .. احسست انه بدأ بلقي بكلمات رزينة وواعية فأتحت له فرصة الاستمرار :

ــ ردود افعال لسوء تصرف من الدولة .. فهي لا تضع الرجل المناسب في المكان المناسب ... لقد قالها هارون الرشيد على ما اذكر في رده على

ملك الفرنجة .. « انني أحسن اختيار الرجال » ... فأبتسمت مندهشا وقلت :

ــ لكن يبدو ان الدولة تعالج الامور بقدر امكانها ..

ضحك قائلا :

ــ يبدو ان الدولة تطبق نظرية « زياد بن ابيه » في الكوفة كنت أعرف معنى ما اراده ، قالها كأنني لا اعرف عن التاريخ شيئا وكأنه يحادث نفسه فأنحنيت وطرحت رأسي على حافة مقعده لأريحه من الدوران برأسه نحوي .. نظرت مليا بينما اكتفى بالحديث ونظره نحو الوديان التي يقوم سكانها باعمال الحصاد وقال : ــ

ــ رعية طيبون .. همهم لقمة العيش وتأمين ما يطلب منهم للمحافظ والقائد والعامل والشيخ وجميع الموظفين والوسطاء ..

ــ ربما تتحسن الاحوال ...؟

ــ لا أعتقد ذلك ...

ــ لا يمكن ان تكون متشائما وانت بهذه الدرجة من الوعي ؟ ابتسم وقال : ــ

ــ اليمني يمارس الاشياء بشراهة وفوق طاقته .. يشرب الخمر حتى الادمان .. يتعاطى السجائر منذ صغره .. يمارس السياسة والمظالم والافكار بنفس الاسلوب ..

ــ ليس حكما معمما .

ــ لست معك فكل ما قلته صحيح .. لماذا ؟.. نتيجة الكبت والحرمان الابدي منذ الازل ... وفقدان التربية من اساسها .. تربية القيادة لقواعدها .. نحن في فراغ فكري وضياع سيؤدي الى نتائج خطيرة ...

صمت عندما تحرك نحوه جاره الرجل المهندم لكي يفتح النافذة وكأن الحديث لم يفهم لديه لانشغاله باعطاء الاوامر والنصائح المتكررة للآخرين عن مضار الغبار وعواقبه الوخيمة .

فتح النافذة قبل أن يقوم بفتحها جاره المهندم واخذ الباص يتلــوى بأنين مجروح وهو يصعد منحنيات جبل سمارة الخطرة والرياح قد خفت فبدأت بعض الستائر تنزاح من على النوافذ للتفرج على مزارع القــات والقرى البيضاء المبعثرة على التلال والسفوح والحيود والهاويات .. ما زال ذلك المسجل يصدح بصوت عال باغان مرحة وشعبية .. كنت أتمنى أن تجمعني الظروف بالرجل مرة اخرى ولو على مقاعد مهترئة في مقهــى شعبي .. قلت له :

ـ حديثك طيب ..

ـ حديث لا بد منه .. وحديث يخرج من الانسان بالاكراه وحديث لا تستطيع احتمال كتمانه فيخرج .. الا ترى ان الرحلة متعبة ولا بد من حديث يخرج ..؟

ـ نعم .. مع كل ما يعكر الحديث من صياح وزعيق واغاني تافهــة من ذلك المسجل .. يبدو ان الرجل هاوي ومغرم ..

ـ انها فتاة صعدت معنا من المدينة ..

ماذا يمنع أن تشدو بمسجلها ؟ ما دامت محجبة وترتدي الشرشف ..

وهنا بدا ان الحديث قد فهم لجاره ذلك الرجل المهندم والذي قــال باحتجاج شديد : ـ

ـ كيف تقول ذلك ؟.. ألا تسمع حوارها السخيف المبتذل مع الناس وضحكاتها الوقحة ؟..

فالتفت اليه وقال بهدوء ووقار :

ــ شيء طبيعي ما تمارسه ..

والتفت الرجل المهندم نحوي باستهجان ثم نحو ذي الكوفيةالخيزران بسخرية واستخفاف قال :

ــ ما زال الجهل يعشعش على أدمغة الفلاحين في هذه المنطقة .

وضحكت لقوله فأساءه ذلك فقال : ــ

ــ هل انت معه في ذلك ؟

ــ نعم ....

ونظر الى ملابسي فاحصا ثم قال : ــ

ــ يبدو انكما في نفس المستوى ..

ــ أي مستوى ؟

ــ لا بد من اخلاق واحتشام والا لفقد المجتمع كل مقوماته .

ــ ما هي مقومات أي مجتمع يا استاذ ؟؟

ونظر الي وكأن تساؤلي قد بدا اكبر مني بكثير فقال بترو :

ــ اين قرأت ..؟

ــ لا يهم ذلك ..

وصمت ثم قال :

ــ يبدو انك قرأت في الخارج ..

ــ وماذا يمنع ..؟

وصمت لحظة ثم استدار فجأة وقال :

ــ أتدري لماذا البحار مالحة ..؟

ــ شيء طبيعي .

ــ لا ... بل لان الانهار تجلب لها الاملاح من الجبال باستمرار ..

ــ وبحيرة قارون في مصر من أين تصلها الملوحة ؟

وصمت •• ويبدو ان الحديث قد اراح صاحبي فبدرت منه ضحكة رقيقة التفت لها الرجل المهندم مستاء فتلافى ضحكته قائلا : ـ

ـ يا استاذ •• انني معك في فتح النوافذ لان الغبار يسبب امراضا خطيرة ويبدو ان جميع الركاب لا يعون ذلك ••

لم يجبه الرجل المهندم •• فقد قصد ان يفتح معنا سبيلا للحوار يظهر من خلاله معلوماته العامة التي قرأها في الجامعة •• وبعد لحظة صمت التفت الي قائلا بتأمل : ـ

ـ يبدو ان بلادنا تصيب المرء بالجمود وعدم الفهم •• فاستفسرت فاستطرد قائلا : ـ

ـ يعود المرء الى بلاده وفي فكره ومضات رائعة تستمر أشهرا قليلة ثم تنتكس كل تلك الافكار الى جمود في الفهم •• ولخبطة في التوقعات والحسابات الدقيقة •••

وضحك لاول مرة قائلا : ـ

ـ حتى الاجانب تسقط كل حساباتهم وتقديراتهم وخططهم التي يبنون عليها سياستهم في هذا البلد •• واخيرا نعود للقضاء والقدر وما جاء جاء وما فات مات •

ـ أهذا هو الحل ؟

فانمحت البسمة من فمه وقال بتذمر غاضب : ـ

وبعدين ••؟ ماذا يكون الحل ••؟ حرق اعصاب وقرحة في المعدة ومرض بالسكر •• وصمت ثم قال متندرا : ـ

ـ ألا ترى ان جميع المسؤولين في الدولة مصابون بمرض السكر••؟
وهنا قال ذو الكوفية الخيزران ضاحكا ومضيفا : ـ

ـ السكر والقمح ..

وضحكت لذلك لكن الرجل المهندم عاد الى وقاره بصرامة وقد تجاهل الاضافة فقال : ـ

ـ انني لا الومهم .. فأمامهم شعب لا يعرف احد ماذا يريد ؟ اذا قمت بالاصلاح قيل طغيان .. اذا سعيت له بالسلام قيل استسلام .. اذا جلبت له العون والمساعدات قيل ارتماء في احضان الرجعية والامبريالية .. شعب يريد ان يظل بحيرة تتصارع بها الامواج الهائجة ..

وهنا قال له جاره ذو الكوفية الخيزران : ـ

ـ لولا تصارع الامواج لاصبحت البحيرة راكدة ..

ـ الهدوء شيء رائع ...

ـ لكن الركود يا سيدي الاستاذ يصيب البحيرة بالعفونة والمـوت لسكانها .. وكأن الرجل المهندم لم يقتنع فنظر الي عسى ان ابدي رأيي لكني فضلت الصمت الذي ساد فترة في محيطنا اما « الباص » فما زال يعج بالاصوات الصارخة وصوت المسجل الذي يدوي بالاغاني العاطفية والشعبية وصوت الفتاة يعلو باستمرار بجوار شلة من شباب محروم .. والمشارعون بجواري ما برحوا يفنـدون الاحكام السابقـة والمنقوضة والمستأنفة .. والاكتاف تهتز كلها بحركة راقصة رتيبـة اثارت فضول شاب خلفي يبدو انه خريج جامعي قال لزميله في الرحلة :

ـ أتدري ان الركوب في الخلف يسبب الدوران ..؟

فرد عليه زميله قائلا : ـ

ـ الخلف دائما يكون أسوأ ما في كل شيء الا المرأة ..

ـ أتتشوق الى الامام بجوار المسجل ..؟؟

ـ لن يتاح لي ذلك والا لكنت استمتعت اكثر .. فالتفت اليه بدافع الفضول وسألته ..

ــ وما المانع ؟؟
ــ لقد علا حديثكم على صوت المسجل ...
ــ لا يعقل ذلك .. فقد كان حديثا هادئا ...

ــ ممتعا حقا بالرغم من التعكير الذي يحدث بجواركم واشار الى المشارعين فنظر اليه زميله الجامعي وهو يشير الى رجل الكوفية الخيزران باعجاب بينما كان زميله مشغولا بالمسجل وما حوله قائلا : ــ

ــ الصورة بعيدة والعوائق كثيرة ...

واشار الى المقاعد الاحتياطية التي فتحت على الممر فقال زميله الجامعي بروح النكتة : ــ

ــ أتقصد خط بارليف ...؟

فأبتسمنا ضاحكين بينما أضاف زميله قائلا : ــ

ــ العائق المائي ثم الحاجز الرملي ثم خط بارليف .. واشار الى الشلة التي بجوار الفتاة ..

قطع حديثنا الرجل المثقف المهندم وقد فقد اعصابه قائلا : ــ

ــ ألم اقل لك انهم لن يفتحوا اي نافذة ..؟

وشاركناه غضبه باشارات عابسة مجاملة له ولمظهره الحضاري فقام بنفسه ليفتح نوافذ الوسط بينما كان الباص قد توقف في مدينة (ذمار) لنزول بعض ركاب المدينة وكانت رغبتنا كبيرة للنزول للراحة بعض الوقت وتناول بعض المشروبات الغازية .. وكان الرجل المهندم أشد الحاحا .. لم أحاول الهبوط من الباب الخلفي حبا في رؤية الفتاة ومسجلها ويبدو ان جيراني جميعا قد شاركوني رغبتي فتزاحمت مناكبنا على الممر .. كانت الفتاة قد اقفلت مسجلها . كانت تجلس في المقعد المجاور للباب مباشرة

•• كانت تلبس الشرشف ايضا لكن النقاب كان مفتوحا وقد اكتفت باللثام لتبرز عينيها البراقتين وتعكس صور الباعة المتجولين بالموز والبسكويت والسجائر الذين زاحموا الركاب على بـاب « الباص » •• أبطـأت في النزول من امامها لاتيح فرصة لعيني في الامعان الدقيق •• كانت عيناهـا تكفي للوقوع في غرامها •• وقد اتاحت فرصة لاناملها وسواعدها بالظهور ليتحول الغرام الى اندفاع وهوس وحركني صاحبي من ورائي فخرجت مسرعا بينما كان التردد في النزول ببطء سجية الاخرين •

اتجهت الى اقرب مقهى وتناولت مشروبي بسرعة لاعـود عسى ان أراها على انفراد قبل وصول الاخرين لكن الجميع كانوا قد سبقوني الى « الباص » ••

قال زميلي المثقف المهندم وهو يحمل المرطبات لزوجته واطفاله الذين مكثوا في أماكنهم : ـــ

ـــ لقد عدت سريعا ؟
قلت دون اكتراث : ـــ
ـــ وما فائدة التأخر ••؟
لكنه نظر الى الفتاة وابتسم ولم اعره اهتماما •

واكتظ « الباص » من جديد بركاب جـدد وعلا الصيـاح والهرج والضجيج وتحرك الباص ليعود الحوار الممـل والصياح الصاخـب •• وانتشر الغبار بشدة وكثافة لنعومة تراب الطريق وزادت المطبات العنيفة •• وكنا في الخلف اشد بؤسا وعلا صوت الرجل المهندم من جديد وبعنف بأوامر صارمة لفتح النوافذ •• وفجأة نهض صبي في المقعد الاوسط وصاح بالرجل المهندم ان يفتح نافذة مقعد زوجتـه فقال له الرجـل المهنـدم ملاحظـا :

ـــ ما ضرك يا ولدي ؟

فانبرى الصبي بنرفزة واضحة : ــ

ــ آذيتنا وشغلتنا يا ....

ونظر الرجل المهندم نحوي ثم نهض وبدأ يحاور الصبي الذي استمر بدوره بأعلا صوته بجدال حاد واصبح الشجار بينهما وشيك الحدوث ولم يتدخل احد وكأن الصبي قد انصف لهم من الزميل المهندم .. كان الصبي على ما يبدو في الثالثة عشرة من عمره محتــزما بخنجره وبيــده سيجارة تحترق بسرعة والدخان يتصاعد منها محترقا في وجه صاحبنا وعلا صياحه ليعبر عن استعداده المباشر للشجار العنيف وقد امتدت يده الى خنجره .. ادركت انه عسكري في الجيش الشعبي المرابط في القرى الخصبة التي عمتها الحوادث ربما يكون في اجازة ...

قمت من مكاني وتدخلت في الموضوع بلباقة فاجلست زميلي الرجل المهندم وقلت له : ــ

ــ صبي صغير لا لوم عليه ان تمادى في قبحه ...

ــ أتقول ذلك حقا ...؟

ــ لا يهم يا استاذ .. ولا تعكر صفو الرحلة على اسرتك ..

واقتنع وقد هدأت ثورته لكن الصبي ما زال يهدد ويتوعد وبــعض جيرانه يحاولون تهدئته دون فائدة ترجى ..

وانبرى صوت حاد من الامام يصيح بالصبي بحدة اذهلته : ــ

ــ ما كل قلة الادب هذه يا ولد ..؟.. أجلس والا انزلناك من الباص هنا وفي هذا القاع .. اجلس وأهدأ .. كان ذلك صوت الفتاة وقد وقفت تشير اليه فأحمر وجهه وحاول ان يقول شيئا ما لكنها سارعت ففتحــت المسجل ليعلو صوته على كل شيء .. بينما همد الصبي يمتص سيجارته بعنف .. فلاحظه الزميل المهندم والتفت الي قائلا : ــ

ـ أرأيت ؟ او لم اقل لك ..
ـ لا يهم يا استاذ .
ـ نكاد نموت اختناقا من الغبار وهو يدخن سيجارة إثر اخرى منـذ الصباح .. وفي مثل سنه .. يا لها من كارثة تحل بهذا البلد ..

لم أجبه .. كنت أود أن نهدأ قليلا عسى أن يتجدد حديث آخر .. واقتنع الكثيرون بالاستمتاع بالمسجل الا الزملاء المشارعين فما زالت الاحكام وانقاضها في دراسة لا تنقطع ...

انحنيت نحو الرجل ذي الكوفية الخيزران وسألته عن قريتـه وعن غرضه من السفر .

أزاح كيس النوم الغليظ من على رأسه فوضعت رأسي بين ذراعي على حافة الكرسي لاريحه من الدوران نحوي فتمهل قليلا وقد علت بسمـة سانحة فقال : ـ

ـ لدي قضية في صنعاء تخص ابني القتيل ...
ـ لا .. أين ؟
ـ في أمريكا ...
احس باندهاشي واستغرابي فقال : ـ
ـ لقد كان ولدي منذ فترة زعيما نقابيا ..
ـ وهل كنت معه ؟

ـ هاجرت قبلـه الى هنالك .. وكنت اعـود في فترات متراوحـة لارتباطي بالارض ومشاكل الاسرة ..

صمت برهة .. فقلت لابعد عنه الحزن : ـ
ـ حوادث القتل كثيرة في أمريكا كما نعلم ..
واراد ان يمسح لمحات الحزن عنه فقال : ـ

ــ هذا صحيح •• فالجريمة تمثل الدرجة الاولى في سلوك المجتمع الامريكي ••••

وصمت برهة وعاد ليقول بصوت هادىء لم ينفعل فيه : ــ
ــ لقد قتل ولدي في مظاهرة عمالية •••
ولم احاول اعادة الحزن بهذا الحديث لكنه استمر قائلا : ــ

ــ قتله شرطيـان في قارعـة الشارع •• وقبض عليهمـا وقدمـا للمحاكمة •••

وأردت أن أنهي هذا الموضوع المؤلم فقلت : ــ
ــ انتهت القضية اذا وكسبتها ؟؟
فابتسم بحزن وقال :

ــ للاسف انني لم أكن موجودا اثناء الحادثة والمحاكمة • فارغمني على الاستفسار فاستمر ليجيب قائلا : ــ

ــ كنت هنا في سجن « القلعة » •• ومكثت فيه سنة كاملة ••
وشعرت ان الحزن قد تضاعف فلعنت نفسي لفتح مثل هذا الموضوع واضطررت أن أسأله وقد أقنعت نفسي بأن مثل هذا الحديث سوف يريحه فقلت متسائلا : ــ

ــ ولماذا سجنت ••؟
ــ ضحك قائلا : ــ
ــ قصة طويلة يا عزيزي ••
اقتنعت بعدم فتح الموضوع لكنه قال : ــ
ــ وجدت في بيتي أسلحة وذخائر ••
فاندهشت لقوله لكنه استمر وقد نظر الي مطمئنا •••
ــ لا تعتقد انني ممن قدموا للمحاكمة ••• فالقضية مختلفة ••

ـ كيف ؟

ـ كنت من المتعاطفين مع حركة الكفاح المسلح في الجنوب •• وكان بيتي للفدائيين وأسلحتهم وذخائرهم •••

ـ عمل وطني مقدس •

ـ كان عملا عاديا دائما •• ومقدسا جدا والجميع يعرفون ذلك •• لكن مع اندلاع الاحداث الاخيرة وجرى ما جرى وجدت نفسي مرميا في السجن ••

ـ ألم يكن لديك احد ليوضح موقفك ••؟

ـ كان اكثر المحققين معي يعرفون صلتي السابقة بالجبهة ومعظمهم له نفس الصلة •• لكن القضايا الشخصية تحكمت ••

طغى على حديثنا صياح وهرج في مقدمـــة الباص وأشرأبت الاعناق نحو المقدمة •• قال زميلي : ـ

ـ ارجو ان لا تكون بسبب الفتاة •

واجابه الرجل المهندم : ـ

ـ ليس بسببها وانما بين قاطع التذاكر وراكب يبدو انه جندي امتنع عن دفع قيمة التذكرة •

ـ ومتى صعد ••؟

ـ في ذمار ••

وزاد الزعيق وعلا صوت قاطع التذكرة مبررا : ـ

ـ يا جماعة •• لا يمكن ان يركب الا بتذكرة •• هذا هـــو قانـــون الشركة ••

قال احد المسافرين : ـ

ـ دعه يركب بالمجان فهو جندي ••

ـ لا يمكن ذلك ..
ـ لا تكن متشددا .. عيب عليك هذا ..
ـ سيخصم المفتش ربع مقرري ..
وفقد العجوز صبره وصاح بالسائق : ـ
ـ يا محمد أوقف الباص ..
وقام احد المسافرين من المقعد وأمسك بكتف العجوز قائلا : ـ
ـ لا يصح هذا يا رجل تنزله هنا .. وفي قارعة الطريق ..؟
ـ لا تتدخل .. رجاء ..
وصاح الجندي غاضبا كمن أهينت كرامته : ـ
ـ ان انزل يا وسخ ..

ـ اسمعتم .. شتمني ..؟ ما وسخ ابن وسخ الا انـت .. أوقف الباص يا محمد ..

ـ عجوز قذر .. بيني وبينك لقاء آخر ..
ـ أتتوعدني ..؟

ـ وابوك .. أوقف الباص يا محمد والا سأرفع بك تقريرا .. وأوقف الباص بعنف مما جعلنا نفقد توازننا فجأة .

ـ من يريد منكم ان يقضي حاجة فعليه النزول والعودة خلال دقيقتين .. كان ذلك تعليل السائق الذي فرحنا به كفرصة لتحريك اعضائنا الجامدة واستنشاق الهواء النقي ..

وتزاحمنا باصرار نحو الباب الامامي للنزول . فانبرى لنا ذلك الجندي الصغير المشاكس صائحا في وجه الرجل المهندم : ـ

ـ لماذا لا تنزلون من الباب الخلفي ..؟ هه ؟؟
ونظر الرجل المهندم وقد وقف فجأة فقلت ضاحكا للصبي : ـ

ـ الباب الخلفي لم يفتح ..
ـ ليس هذا هو السبب ..
ـ ما هو ..؟

ـ لقد ازعجتمونا دائما .. النوافذ .. الهواء .. الغبار .. البـاب .. أف لكم من مغرورين ادعياء ...

وحاول الرجل المهندم ان يدخل معه في حوار لكني امسكت به .. ومع ذلك فقد حجزنا الصبي في الوسط حتى لم يبق سوانا ..

★ ★ ★

لم تنزل الفتاة من مكانها بل فتحت المسجل من جديد على أنغام تنفح بتعبيرات الحب والهيام .. وصعد ركـاب الخلف للاستمتاع بالنغـم والحديث وعلا حديثهم وضحكاتهم على صياح الجندي وقاطع التذاكر العجوز .. وثب بعدها الجندي الى قارعة الطريق وقد علت وجهه مسحة غاضبة اختلجت مع كل قسمات وجهه الاسمـر .. ومع كل اهتمامـات الجموع نحوه لم يعرهم أي التفات بل واصل نظراته القلقة الغاضبة نحو اتجاهي الطريق ..

ومرت سيارة من جوارنا أوقفها الجندي بعنف حيث وقف أمامهـا مباشرة وسط الطريق وتسلقها ويداه تشير الينا بتوعد .. لم يكن ذهابه المفاجىء حلا .. بل تحول الى كابوس ..

قال أحد الركاب :
ـ لا بد أن يؤذينا في الطريق ...
ـ لماذا .. لقد كان الصواب بجانب الرجل ..
ـ لا ... لقد غلط على الجندي بانزاله في هذا القاع ..

ـ صحيح •• كان المفروض أن ينزله في أقرب نقطة ••

ـ كان هذا حلا منطقيا ••

وكأنما شعر السائق انه أمام حوار الركـاب قد أصبـح مشاركا في الجرم فقال :

ـ وهل يعقل أن أتركه هنا ؟•• لقد كنت أزمع التروي •••

واستشاط العجوز غيظا :

ـ هذا واجبي •• والسائق يعرف النظام •••

ـ لقد أكثرت في تزمتك النظامي •••

ـ أتقول ذلك يا محمد •••؟

وكاد أن يتطور الحوار الى شجار بين السائق وقاطع التذاكر ••• التفت اليّ الرجل المهندم قائلا :

ـ أرأيت ؟•• لا يمكن أن يقوم أي حساب منطقي للاحـداث في هذا البلد •••

ضحكت ••• ولم أعلق •••

كان الغبار قد تركنا شبه أشباح ••• وكان أكثرنا تضررا الرجـل المهندم حسب تقديرنا الشخصي حيث بدأ يمسح النظارة الثمينة الطبية ثم شعر رأسه وداخل أذنيه ثم توجه نحو البدلة التي يرتديها بالطمـات مؤدبة ••• ثم واصل عملـه حتى الحـذاء الذي كان سببا في وضوح ضحكات متتالية وسريعة من فمه •••

اتجه قاطع التذاكر نحو الرجل المهندم قائلا :

ـ أرأيت يا سيدي ••؟

ـ مـاذا ••؟

ـ هل أنا على حق ••؟

ـ لقد كنت بعيدا عن القضية ...
كان استنتاج الرجل العجوز عن الرجل المهندم أن يكون ضابطا أو مسؤولا يقيه شر الجندي ...
ـ لم أعد أستطيع الحكم على شيء ...
ولم يقتنع العجوز بذلك فقال :
ـ لكني على حق يا سيدي ... فالمفتش سيخصم ربع مقرري ...
ـ لقد انتهت القضية وغادر الجندي بسلام ...
ـ ليس بعد يا سيدي ...
ـ كيف ..؟
ـ لا بد أن يقطع علينا الطريق ...
ـ لا يعقل هذا ...
وانفرجت من صديقي ذي الكوفية الخيزران ابتسامة وهو يجيب :
ـ يعقل يا عزيزي ...
فنظر اليّ الرجل المهندم باستجداء محتار وصمت ...

★ ★ ★

كان العمل يجري لاستبدال العجلة التي انفجرت بمجهودات السائق ومعاونه (الجرشبوي) وسلبيات قاطع التذاكر العجوز الذي أصابه نوع من القلق والحزن وتوقع المجهول الآتي بكل عنفه واهاناته المحتملة والتي لن يقبلها سنه المتقدم ... القاع شاسع ودوامات الاتربة تتكاثر في مناطق متفرقة ... والشمس تسلط أشعتها على جباه المسافرين .

لا يوجد ظل أو نسمة هواء عليلة سوى بعض دوامات متربة وعلاقة تمر على أسلاك التلفون الحديثـة التي تعلو أخشابا جديدة مستوردة بجوار سلك البرق القديم الذي ما زال يستعمل من عهد الاتراك والممدود

على أخشاب محلية صغيرة ومتعرجة وهرمة تسندها أحجار مختلفة القطع بشكل همجي تحدث أزيزا متقطعا تحــول في مسمعي الى موسيقى ...
لم يسعدني الحظ كما كنت أظن بنزول الفتاة لتتجول في الخلاء أو تبقى في « الباص » وحيدة ، ومع ذلك فقد وجدت نفسي تلقائيا أنساق نحــو صاحبي ذي الكوفية الخيزران ، فانضم الينا الزميل المهنــدم الذي ترك زوجته وأولاده في منطقة الخلف الفارغة وصور لنا تخوفات قاطع التذاكر والعجوز بقلق ، مما دعاه للايسان المطلــق باستحالة الحياة في الوطن بعد اليوم ... كان تألمه واضحا من خــلال تعبيراته اليائسة من الاصلاح او حتى مجــرد التحسن في الاوضاع وزادته تعصبــا لتشاؤمه بسمات ذي الكوفية الخيزان ، اعتبرتها شخصيا مغالاة في العناد .

كنا مجموعة راكبي الباص قد توزعنا في شلل متقاربة ما عدا الاخوة المشارعين فقد توغلا في أعماق القاع متقرفصين على الارض وقد تبعثرت أمامهم أوراق تخص الشريعــة والاحكام والاوامر ... وفجــأة طارت ورقة مع دوامة ترابية غــادرة واختلطت مع عشرات القراطيس في عنان السماء فقاما يتابعانها بجهد مستمر ...

جذبني صاحبي « ذو الكوفية » الخيزران فابتعدنا قليلا وقال :

ــ دع صاحبنا يعادل حساباته ... لدي فكرة طريفة ... أن نمر على شلل الركاب مرورا عابرا ...

ــ أحاديثهم متنوعة ...

ــ بل حديث واحد ... كله حول الفتاة .

راقت لي الفكرة من حيث المبدأ ... وبدأنا .. أول شلة صادفتنا حكمت على الفتاة بالاعدام ... كانت نتيجة سيئة لم ترق لصاحبي من خلال تعبيرات وجهه المتقلصة فجذبني بعنف نحو شلة أخرى كانت تضم

أشخاصا يرتدون أشكالا مختلفة من الملابس ••• الفتاة مبتذلة وتواقة للجنس •

ان أي فرد منهم وفي الخلاء على استعداد ان يمارس معها الجنس الى أبعد الحدود مع اختلاف شكلي حول تكرم بعضهم بنفحها مقابل ذلك شيئا من النقود واصرار البعض على انها تمارس الاشياء برغبة •••

امتعض صاحبي وجذبني من جديد بعنف مع استمرائي تلك الافكار ••• كانت الشلة الاخيرة تضم أكبر جمهرة من نزلاء الباص ••• تنوع في الازياء والالوان ••• أشكال ومقاسات مختلفة الحجم ••• بنطلون ••• عمامة ••• سماطة « قبع » تالوه ••• رقيص بجورب ••• كرفته • بينهم الجامعي والموظف وأبرزهم صاحبنا الاحمق الصغير المدمن على السيجارة والقلق •

— لو اختليت بها لتركتها اربا اربا •••
— وحشيــة •••
— همجيــة •••
— أمارس معها كل أنواع اللذة والجنس •••
— وبعد ذلك أتركها وأسرع الى الباص •••
— يجب أن أعرف عنوانها بعد ذلك •••
— وأعيش معها في صنعاء أجواء دائمة •
— أتزوجها لكي نبني جيلا سعيدا ينعم بالرفاهية والرقي •

— لو قدر لي ذلك لهاجرت بها الى جزر القمر بعيدا عنكم أنعم معها بالموسيقى والاغاني المتنوعة مع أنغام أمواج المحيط •

أخذنا الرأي الاخير في جو حالم فصمتنا نفكر ••• وكل يفكر حسب خياله الخاص •••

تحول القاع الشاسع المغبر بحيرة زرقاء •••

تحولت الجبال المحدقة به والتي تمثل الجدب والوحشة السوداء تحولت الى جبال مغطاة بالغابات وعلى قمسها يلمع الثلج .

تحركت قوارب الشراع داخل البحيرة لتحل محل الحمير والدواب . انقلبت في أسماعنا أزيز أسلاك البرق والهاتف الى سيمفونات حالمة لبيتهوفن ...

وفجأة يعلو الهرج والصياح ...

لقد تم اصلاح العجلة وبدأ التزاحم أمام الباب الامامي ... رأيت الرجل المهندم يتجه نحو الباب الخلفي بألم واضح ...

مررت من أمامها كغيري ببطء ... عينان غارقتان بالحب والمرح... وجبين ينم عن الصرامة والاقدام ... نظرت اليّ بفروسية أخجلتني ... أحنيت نظري ، وكم كنت أود معرفة الكثير عنها ... أهي طالبة ؟... ربما تكون عاملة في المصنع أو هي موظفة ... وربما تكون ممرضة ... متزوجة أو غير متزوجة وقد تكون أرملة ...

علا صوت المحرك وكدنا نبدأ الرحلة ...

تذكرت الزملاء المشارعين التائهين في أعماق القاع وصحت بالسائق أن يتوقف مما أدى الى سيل من السباب المكتوم من السائق ...

ونظرنا من النوافذ ... كانا بعيدين عنا غاية البعد بمسافة لا نكاد نميزها ... أشباح صغيرة تتطارد مع دوامات الهواء المتربة ...

بدأ السائق اشعال بوق « الباص » المزعج بدرجات متفاوتة فيالبداية ثم ألهبه بضغط عال حتى كدنا نجن ...

ــ ليس معقولا عملك هذا ...

فالتفت السائق اليها ببطء ويده ما زالت تشعل البوق وقال بقحة :

ــ وما هو المعقول يا ...

تنزل أنت ومعاونيك وتستدعيهما ...

ــ ليس من عملنا هذا ...

وأدركَت عدم جدوى تعريفه بعمله وواجبه فاستدارت نحو الركاب وحديثها ما زال موجها للسائق قائلة :

ــ يتبرع أحد الركاب باستدعائهما .

ونظر السائق الى مجموع المسافرين فلم يتحرك أحد وساد تجاهل عام ابتسم له صاحبي ذو الكوفية الخيزران ...

مرت فترة صمت ... تحول الصمت الى حوار هامس ... نهضت الفتاة فجأة وفتحت الباب ثم انطلقت نحو المشارعين بثبات وفتوة وحيوية أبرزها هواء دوامات القاع الذي داعب شرشفها الاسود لتبرز بعض ملامح الانوثة .

لم يصدر منها أي صوت مناداة وانما واكبت الانطلاق نحوهما ... تزاحم جميع الركاب نحو النوافذ اليسرى للباص يشاهدون ذلك المنظر. حاولت مع صاحبي ان نلتقط أي تعليق لكن دون جدوى ... كان صمتا معيبا وعارا على كل جبين .

وعادت بهما والحوار متبادل من خلال الحركات الهادئة ... صعدت بهما والعرق يرشح على جبينها البض .

وجلست بهدوء وقد أخرجت من حقيبة يدها منديلا صغيرا مزركشا لتمسح قطرات العرق بتروٍ ...

وانهمرت سيول من التقريــع والتأنيب والشتائــم على الرجلين من جموع المسافرين بضجيج صاخب كان أبرزه قحة صوت السائق المقدع

... كان الحزن باديا عليهما ويكاد يتحول الى بكاء ... لقد ضاعت أهم وثيقة لديهما الوثيقة التي من أجلها طلعا صنعاء وأحلام عراض ... وثيقة النصر على الظلم ... الوثيقة التي ربما تنهي غرامتهما السابقة وتوقف النزيف المالي لمدخراتهما .

وانفجرا بالبكاء على حظهما السيء .

صاحت بهما الفتاة وقد صمت الجميع ... نهرتهما ... استنكرت موقفهما ... سجلت استياءها لضعفهما ...

ــ الحياة رحبة وواسعة لا تضيق بضياع ورقة ...
ــ لكنها حياتنا ...
ــ الورقة لا يمكن أن تصبح حياة أحد ...
ــ انها ورقة أرض اغتصبت علينا ...
ــ المستقبل يعطي الامل ...
ــ المستقبل ضاع ...

ــ بل سينهي كل تلك الاوراق البالية ويريح الكثير من أمثالكما... وتشنجا وقد ارتميا على كرسيهما ...

تحرك الباص ... وساد الصمت ... وبدأ زميلي المهندم لحظتهـا يعيد حساباته بينما علت ابتسامــة نصر على شفتي صديقي ذي الكوفية الخيزران التي أكل العرق نصفها الاسفل ...

لم يخب الصمت فقد مزقه أحدهم قائلا :

ــ سيجدان الورقة أمامهما في الاستئناف .
ــ غير معقول فقد غابت خلف جبال « آنس » .

انفرجت بتفاوت ضحكات مريحة تحمس لها الاحمق الصغير المدمن على التدخين فقال بحماس :

ـ او استطعت اقناع القائد للمراجعة من أجلها لفعلت .
أدركت الفتاة ان نظرته نحوها مركزة أصلا فلوت بوزها بسخرية..

★ ★ ★

كان الوقت قد جاوز الظهر بساعتين ... والجو حار والغبار يقتحم جميع منافذ « الباص » والارهاق واضح على معظم الركاب ... الصغار والكبار نائمون . الجوع بدأ يعطي نوعا من الاسترخاء الممل .

وبدأ الغثيان يداعب فم المعدة ... وبدأت نتائجه الفعلية تظهر على الغالبية . كان أبرزها ايذاء للاسماع تهوعات وتعيئات الزملاء المشارعين ... علا صياحهما العملي للتقيؤ على الجميــع مما جعل بعض الصامدين ينهارون ... كانت فرصة لزميلي المهندم في فتــح النوافذ رغم الغبــار المتدافع لكي يتقيأ الجميع .

بدأ السائق يتذمر وشاركه معاونه بسباب مكتوم ... والعجوز ما زال نظره مركزا على الطريق بقلق واضح وكأن حبل المشنقة يتراءى له مع طيات السراب ... بينما أعلت الفتــاة صوت مسجلها ليخفف الحالة نسبيا ... صمدت مع زميلي ذي الكوفية الخيزران ، ساعدنا على ذلك طرقنا لمواضيع ذات أهميــة ... لقد أعطانا السكون الذي تبع التقيؤ فرصة لاستمرار الدردشة والخوض في مواضيع متنوعة .

اندمج في حديثه ثم سبح في أفكاره الخاصــة لكنه كان واثقا مني وربما اعتبرني عضوا في نقابة ابنه القتيل في أزقة نيويورك .

أعطاه السكون والهدوء التام مجالا للسرد ...

ـ الغربة ومشاقها الاولى ... الكفاح حتى الاستقرار ... الجيل الذي أنجبه ليتفاقم عن صراع طبقي حاد يمارس في بلاد أخرى ارتكازا

المخافية المتراكمة في حياة بلاده ••• فشل في تكوين نقابة في بلاده بعد عودته لانشغال مواطنيه في مشاكل الشريعة والعدولات والطروحات والغرائم والنواظر حتى مواطنيه المغتربين أمريكي من الشحر أو من رداع أو حراز •• رعاة بقر بلا بقر •• الزركشة في الملابس وفي ديكور السيارات التي تنتهي بعد سنتين على الاكثر لصعوبة الطرق •

ـ اليمني يعامل السيارة كالحصان •• يسرجها يزينها •• وتوقف وقد لاحظني ابتسم معتبرا ذلك تشككا في حكمه •• قال :

ـ اذا دخلت مطعما او مقهى ستجده يستعجل شرب الشاي بصحن الكأس •• قلق •• وسريع في ابداء قلقه ••

تذكرت نفسي وأنا امارس العملية مع زملائي •• فاستمر قائلا :

ـ خافية الامام يحيى ••

ـ كان قائد الحركة الوطنية ضد الاتراك •

نظر اليّ بأسى قائلا :

ـ كان كابوسا ، ٤٥ عاما هي بداية القرن العشرين ••• بداية نهضة الامم النامية لم يعمل خلالها شيئا •••

ـ ظروف الوقت الذي عاش فيه •••

ـ بل عقلية جامدة متخلفة وعفنة •••

ـ حكم بحاجة الى نقاش •••

ـ أنتم هكذا تأخذون من الامور تشورا فتصنعون منها هالات عريضة هي بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة ••• لم يكن الامام يحيى بطل استقلال وطني ••• الشعب هو الذي كافح الاتراك وجعل من اليمن مقبرة لهم •••

ـ لكن الشعب نصبه إماما لخمسة وأربعين عاما كان الامن فيها مستتبا •••

قاطعني لاول مرة ومكملا ...

ـ وعصا الامام تصل الى جميع المناطق ... أليس كذلك ..؟ ابتسم بسخرية ثم انحنى كمجادل بارع في المنطق .

ـ لو عشت الفترة لكان لك رأي آخر ...

ـ التاريخ يقول بالقشور ...

ـ ألم أقل انكم تأخذون بالقشور كمنطق مفعم ... لقد خاض الشعب نضاله ضد الاتراك فترة ليست بالوجيزة ... شعب يحارب امبراطورية ... تصور ذلك ... امبراطورية ملأت الدنيا بفتوحاتها الواسعة . حتى قلب القارة الاوروبية الاستعمارية يقهرها شعب صغير..

وتململ قليلا ثم استطرد بعد أن تأكد من عدم مقاطعتي له :

ـ أنهك الشعب نتيجة الحروب والمجاعات والحصار ... كان الشعب على استعداد للقبول بأي حل لانهاء تلك الكوارث .

ـ الامام يحيى هو الحل ...

ـ أتى في وقت كان الناس فيه أشباحا جائعة منهكة تريد العيش والامن والاستقرار .

ـ طلبوا الامان قبل الايمان .

ـ أتى الامام بعقلية المزارع الشري ... يجمع المال والحبوب ويكدسها ليشتري مزيدا من الارض ويبني مزيدا من القصور والشذروانات ويشارع الناس ليمتلك أراضيهم ويقتني كل ما عند الغير من تحف نحاسية وفراشات وثيرة ... لم يخرج من عاصمة ملكه ولم يبن في حياته أي حجر للدولة ... ولم ينشيء أي مؤسسة حضارية للشعب.. حول ما خلفه الاتراك من مدارس ومنشآت الى سجون وقصور وضاقت حاشيته والناس أجمعين به فانتهى ...

ـ ليخاف ماذا ؟

ـ إماما حاقدا جديدا •••

ـ أهذه هي الحقيقة ؟؟

ـ لا غيرها • غوصوا في أعماق القشور التي تكتبون عنها باسهاب ••

لم أحاول الجـدال واستمرار الحوار فقد شعرت انه بدأ يعاني من كتمانه للتقيؤ •• تركته فترة يباشر عملية التقيؤ باتزان من النافذة ورغم صمودي فقد تبعته وأخرجت رأسي أنا الآخر •••

كم هو متعب التقيؤ والمعدة خاوية • شعرت ان ضلوعي وما داخلها تكاد تعبر الحلقوم ••• يشعر الانسان انه يمارس عملية المـوت ببطء ومعاناة •••

القيء جزء من الرمق الاخير ••• من فهقة النفس الاخير ••• أغمضت عيني واسترخيت عسى أن يكف الالحـاح المتعب للتقيؤ ••• أصوات القيء بجانبي مزعجة الى درجة القرف وددت لو ان السائق يقف لحظـة لنرتمي خارج الباص ولو على جمر • المهم بدون اهتزاز ••• الاهتزاز يجعل المعدة « دبية » لهز اللبن •

وزادنا تهوعا صعودنا نقيل جبل بسلح وأصبـح دوراننا جزءا من دوران الباص • أوقفنا جميعا صوت العجوز قاطع التذاكر • كان صوت شبح مخيف في حلم نوم مر على الجميع •

ـ الجندي ••• الجندي •••

ذلك الجندي مع زملائه يقطعون الطريـق في قمة الجبل ببراميـل فارغة مهشمة •• •كان الباص قد وصل قمة الجبل بعد أنين حزين أضفى علينا كآبة فوق ما نحن فيه من متاعب ••• القمة هي عنق الزجاجة ••• ممر ضيق في القمة بين مرتفعين تطل منهما فوهات المدافع الرشاشة ودشم

للعساكر ••• كان الوقوف في فوهة الممر خطر جدا اذ لا بد من وضـع عدة أحجار خلف عجلات الباص الخلفيـة • قام بعملها المعـاون ، ذلك الصبي بخبرة مسبقة •

واشرأبت الاعناق نحو البراميل الفارغة التي تقطع الطريق ••• كان الجندي خلف البرميل بكامل السلاح « قنـابل •• رشاش •• خنجـر وقات في فمه يلوكه بغضب وسيجارة محترقة حتى الفلتر ••• » وبجواره زملاؤه يبدو من ملامحهم استثارة زميلهم لهم بعاطفة جياشة •••

لم يتحرك الجندي وانما تحرك زملاؤه نحونا :

ـ نحن في قمم الجبال •• في خضم المخاطـر •• نحمـي ونحرس ونصون بعيون ساهـرة كل مواطن •• بأجر زهيد وكدم وفول مسوس بين برد قارس وقيظ محرق •• ومع ذلك نعامل بمهانة دائما •

ـ لاننا لا نعطي دروسا سيئة لكي نكون في مقام الاحترام ••
ـ الباص واسع ومتين وقوي ••

وضرب بحذائه الغليظ قاع الباص بعنف اهتزت لها المقاعـد ومن عليها •• واستمر ساخرا :

ـ عجيب ان يضيق بجندي بائس كأنه بزيه الاغبر سيغرق الباص في امواج قاع جهران المتلاطمة •

كلام منطقي اعجب صاحبي ذا الكوفية الخيزران بينما شعرنا جميعا بتوتر الموقف فكف القيء ما عدا المشارعين •

بدأت فترة صمت رهيبة أعقبتها استفسارات هامة عن السبب •

ـ تفتيش ••
ـ تفتيش ؟؟؟

ـ نعـــم .
وبدا الهمس يعلو كل جلبة قطعها الجندي آمراً :
ـ على الجميع النزول بحقائبهم الى الارض أكانت معهم او عــلى السطح وبسرعة ..

توتر الموقف اكثر ، مما جعــل الجميع يقتنعــون بطريقة الجنـــود واصرارهم وحقدهم الظاهر من خلال اشهارهـــم للسلاح وتصرفاتهـــم العنيفة .

ما اقسى المشاكل على مسافر مجهد ..

بدأت احتجاجات هامسة . تطاولت بعضها الهمس .. وكان لا بد من انقاذ الموقف .. فعملية التفتيش ستستغرق عدة ساعات .. قال السائق :

ـ لم يحدث هذا من قبل .. هذا ليس معقولا ..
ـ معقول ونص ..

كان العجوز قد تهاوى في مؤخرة الباص وجلا مربوكا ليس له مخرج ولا نصير كفأر وقع في مصيدة فتحول الى خوف نعامة .. أقسم في ضميره ان لا يزاول عمله بعد اليوم اذا قدر له النجاة ..

شرع الجنود في رفع الكراسي الاحتياطية على الممر والشنط المرفوعة على الارفف بينما قام زملاؤهم في الخارج بتسلق سطح الباص .

وتطور الموقف مع احد المسافرين ممن يحملون السلاح وليس لديه تصريح من مراكز الشرطة العسكرية .. كان مطمئنا منذ بداية الرحلة لان الباص لا يفتش دائما ولو كان يعرف ما سوف يحــدث لقام ببساطــة واستخرج تصريحا من اقرب مركز مر به .. وتطور الحوار الساخن الى شبه اشتباك كان هو الخامس .. انه « خبير » بمعية احد المشائخ الذي

سوف يعفيه ذكر اسمه عن طلب اي تصريح او بطاقة سلاح •• توعد كثيرا دون تأثير يذكر عند الجنود لحالتهم النفسية التي طغت على كل انضباط بدا تصرفهم في نظر بعض الركاب قد تجاوز الحدود الذوقية فانبرت اصوات مستنكرة كان ابرزها صوت الزميل المهندم بعد ان قذفت حقيبة زوجته مما ادى الى كسر قارورة عطر فيها فاحت رائحتها لتزيدنا غثيانا ••

كان بعض المسافرين على استعداد للشجار مع الجنود فقد بلغت نفوسهم الحلقوم وأصر بعضهم أن يهدد بمعرفته للقادة أو المسؤولين عن وحدة الجنود واخر بأنه ضابط في زيه المدني وأخر بأنه في مكتب وزير ، لكن دون جدوى •

التفت الينا الرجل المهندم قائلا :

ــ أسوأ رحلة قمت بها في حياتي •

ــ اجابه زميلي ذو الكوفية الخيزران •

ــ بالعكس !!

ــ رد غير واقعي !!

ــ لماذا ؟

ــ عجيب ان تستفسر بعد كل هذا الذي يجري •

ــ وماذا جرى يا عزيزي ؟؟

ــ اما عجيب أمرك •• طريق غير معبد ورفاق متنافرون وغبار يكتم الانفاس ، وشمس وجوع وقيء ••• واخيرا ارهاب عسكري يمارس الآن ••• أتقول بعد كل هذا ••• ماذا جرى يا عزيزي !؟

ــ شيء عادي وطبيعي •• و ••

ــ اخرس ••• ارجوك •• لم أوجه حديثي منذ البداية اليك •• كنت أخاطب زميلك فلا تزيدني قرفا •• ارجوك •• لا داعي ارجوك •••

ابتسمت لاخفف عنهما حدة الخلاف •• وكان لا بد أن أعنفهما لكن

الظرف حرج والسلاح والاطفال المرعوبون المجهدون حتم علي أن اجامل وادليت بحديث لطيف اراحهما فصمتنا برهة لكي نراقب سير الاحداث .. الجنود ما زالوا ينزلون الحقائب والصراخ يعلو باستمرار .. لم يكـن لدينا حقائب ، لذلك قال صاحبي ذو الكوفية الخيزران :

ـ أتدري كم شهيدا سقطوا في هذا الممر الضيق ؟

ولم يتركني حتى لمجرد ان اهز رأسي فأكمل :

ـ عشرات بل مئات سقطوا هنا .. ايام حصار السبعين .

ـ ومنذ قيام الثورة ايضا ..

ـ في ايامها البكر الرائعة ..

ـ ذكريـات ...

ـ لقد أسرت هنا مع زملاء من المهجر متطوعين في الحرس الوطني.

ـ اخي المهاجر ...

ـ وسقط الى كهف في خولان ... كانت كهوف عديدة . وسألني القائد الملكي عن هويتي فقلت انني فقيه اعلـم الصبيان حفظ القرآن ، أخذت الى المعركة بالإكراه ...

وضحك لاول مرة حتى كادت الكوفيـة الخيزران تسقط من على رأسه :

ـ وسيق معظم الزملاء الى معتقل في نجران .. أما أنا فقد بقيت في الكهف واطلقت بعد عدة اشهر .. لقد نجوت من معتقل نجران لاني لا ألبس ضرسا ذهبيا ..

وضحك مرة اخرى ودفعني للضحك ايضا وتساءلت عن السن الذهبية فقال :

ـ من لديه في فمه سن ذهبية اخذ الى نجران لاعتقادهم اما ان يكون ضابطا او ابن شيخ .. وكان درسا لزملاء المهجر ممن يتباهون .

كم كانت صادقة ومجيدة تلك الايام ..

فجأة علا صوت المسجّل ليطغى على كل صخب الحوار والشجار الكلامي .. فصمت الجميع وتدافع بعض الجنود نحو الفتاة وصاح بها احدهم .

ـ اقفلي المسجل يا فتاة ..
ـ ليس هذا من شأنك .. انا حرة ..
واشتد غضب الجندي ...
ـ سأقوم بكسره اذا لم توقفيه .
ـ ليس بمقدورك فعل ذلك ..

واندفع نحوها لكنها واجهته بحركات متحدية فتراجع برهة بعد ان نظر الى زملائه وقال بصوت حاول ان يخفف فيه غضبه :

ـ انك تعيقينا عن اجراء عملنا ...
علت منها ضحكة مستهزئة وقالت :

ـ انني أساعدكم عسى ان تروق نفسيتكم وتهدأون من هذه الاعمال الصبيانية .

ـ أعمال صبيانية ..؟
ـ أتقول هذا الكلام ونحن ساكتون ..

وترك معظم الجنود مواقعهم حول الفتاة وقد بلغت انفعالاتهم الحد الاقصى ..

لكنها تجاهلت ذلك ولم تبد عليها أي لمحة وجل او خوف .

بلغ الموقف درجة الخطورة تصورات كل مسافر أبشع من تصورات زميله .. قال ذو الكوفية الخيزران وقد لمس قلقي ..
ـ لا تخف .. الشعب اليمني حضاري بطبعه .

ـ ربما في هذا الموقف سأخالفك الرأي ..

ابتسم بثقة داعما رأيه وبعيدا عن احراجي كمعارض .. كنت في حالة من التحفز والغضب لانقاذ الفتاة من اي تصرف جارح عندما اخذ الجندي « المسجل » وقذف به بعنف من باب « الباص » ليرتطم باحجار الطريق . لكنه لم يسكت عن الصدح باغنية الفتاة المفضلة ..

جمعت كل قواها في صفعة دوت على خد الجندي الذي ارتسى بوجل على أذرع زملائه ..

لم يكن في حسبان احد ذلك الرد العنيف من الفتاة .. وبدأت استعد لاقناع نفسي بوجوب التضحية .. لم يكن امامي أي مجال ..

ودوى صوتها مجلجلا كالرعد مبددا همسات الجبناء ..

ـ لستم حماة الوطن .. حماة نزواتكم الذاتية .

ـ سوف ترين ... يا ..

ـ لن أرى أسوأ مما رأيته من تصرفكم هذا ..

ـ وقحة !

ـ اي وقاحة اكثر مما مارستم ..

ـ مارسنا واجبنا .

ـ اي واجب هذا الذي تمارسونه ..

ـ لقد شاركت بالرضى لانزال جندي بائس من الباص لفقره .

ـ حادث شخصي .. وقانون سنيتسوه برضاكم ونفـذه العجـوز بحذافيره ..

ـ عاهرة ..

ـ العهر هو الاخلال بأمن المواطنين ..

اقتربت مع مجموعة غاضبة نحو الفتاة بالسلاح مع استثناء البعض

لكنهم من حملة السلاح الابيض والمسجل ما زال يشدو بأغنية الفنان المفضلة •• كان صموده مؤيدا لموقف صاحبته •

ساءت توقعات المسافرين •• ومع كل تعبهم وجهد الرحلة والجوع والغثيان فانهم لم يتوقعوا ان تصل الامور هذا الحد من العنف •• كانوا على استعداد لتحمل الجوع والعطش والقيء وضيق الحياة • لكنهم لم يتحملوا حتى مجرد توقع ما حدث •• فتاة تجابه جنودا مسلحين •• ما موقفهم اذا لم يذودوا عن الفتاة ويتعرضوا للفتك بأسلحة الجند •••

كان همي الوحيد مع كل اندفاعي هو ان اجد اي تعبير يؤيدني ضد رأي زميلي ذي الكوفية الخيزران • وصدمت فما زال مصرا على رأيه « الانسان اليمني حضاري بطبعه » أكرهت نفسي على سوء الظن به •• رجل عاش في بلاد رعاة البقر •• عصابات المافيا وآل كابوني •• لا يمكن ان يهتز لمثل هذه المواقف ••

في ذهن كل راكب تساؤل رهيب عن الموقف اذا ما هجم الجند على الفتاة • بعضهم أظهر استعداده للتضحية والبعض فضل الصمت والبعض حاول التدخل بوساطات سلمية لحل الازمة •

ـ يا جماعة اتقوا الله •
ـ الصبر جميل ••
ـ هي فتاة وانتم رجال •
ـ الرجال يترفعون عن أفعال النساء ••
ـ لا تجعلوا عقولكم بعقلها ••
ـ المرأة ناقصة عقل ••

لم اقتنع شخصيا لقول الوسط المستفيد دائما لما يجاري مصالحه الخاصة الآنية • كان امامي حل وحيد اما ان نذود عنها حتى النهاية واما ان يحل الموقف لصالح الفتاة حتى بمعجزة •• وايدني البعض بأن الفتاة

على حق ويجب نصرتها بالقوة •• تساءل البعض الآخر بضجر بأن يقهر الجنود للقضاء على كل حل •• وجابه ذلك التساؤل •• شعـور البعض بالاستعداد للتضحية ••

بدأ حوار الوسط اثاره على جموع الجبناء ••

ـ فتاة مسكينة ••

ـ جنود مثارين نفسيا ••

ـ الحادث عادي ولا يجب ان يستغله ذوو الافكار المتهورة • وبـدأ الحماس الطلابي القديم يداعب مشاعري ومشاعر آخرين •• كم راعتني وجوه الجند وقد صبغت خجلا يكاد ينفجر من محياهم •• علت طرقات احذيتهم على كل همس مكبوت ••

ورمي المسجل بأغنيته المفضلة الى داخل الباص واقفل الباب وازيحت البراميل الفارغة المهشمة من الطريق عن رؤوس مطأطئة الى الارض ورق الباص والعجوز فاغر فاه وأسرع بنا نحو صنعاء بانحدار جنوني وتهالك الجميع بصمت على كراسيهم وتصاعد الغبار من جديد وعادت الرحلة من جديد ••

ارتميت في مقعدي محاولا عدم الاهتمام بزميلي ذي الكوفية الخيزران الذي اكل العرق نصفها الاسفل الذي واساني بابتسامة اشفاق تروح عن انهزامي وهبط علي النوم فجأة ولاول مرة اشعر بحاجتي اليه وبالحاح هطل تجاوبا لهروبي من الحقائق •• ونمت بعنف •• وحلمت احلاما مزعجة لم أرها من قبل كاحلام نوم حارس في نقيل يسلح او طريق الحيمة او على سور صنعاء المحاصرة ساعة راحته ••

استيقظت لاجد نفسي اخر المسافرين •• لم يعد هنالك احد في الباص حتى السائق ••

اخذت حقيبتي واندفعت بين زحام السيارات والموترات النارية السريعة لابحث عن زميلي الذي ربما اشفق بي وتركني وحيدا .. واسرعت نحو « باب اليمن » باب صنعاء الجنوبي المزدحم ..

وجدت اناسا كثيرين يلبسون الكوافي الخيزران التي أكل العرق نصفها الاسفل ..

لم استطع ان اميز صاحبي ..

امتطيت احد موترات الاجرة خلف صبي يقود بمهارة وسرعة جنونية ومع ذلك فهو يلبس كوفية خيزران اكل العرق نصفها الاسفل ..

بائع الموز

بقلم
علي محمد عبده (١)

الغضون تملأ وجهه رغم صغر سنه ، وكرشه منتفخ يدفعه امامه بمشقة ، وجسده نحيل لا يكاد يقوى على حمل ذلك الكرش المنفوخ ناهيك عما يحمله فوق رأسه ، سواء السطل المملوء بالاسمنت الذي ينقله الى عمال البناء او صفيحة الغسيل المملوءة بأقتاب الموز والتي يتجول بها في الشوارع والطرقات لبيع محتوياتها من الموز .

لم تكن حالته الجسمانية ما لفت نظري نحوه ، ولكن تنقله من عمل الى آخر ومروره صباح ومساء ولأكثر من مرة امام المحل الذي أعمل فيه واصراره على كسب قوته بأي شكل هو ما لفت نظري .

كان يمر في الصباح احيانا في طريقه الى السوق لشراء موز ينقله الى البيت لردمه وانضاجه ثم يخرجه الى السوق في صفيحة صدئة يحملها على

(١) بدأ كتابة القصة سنة ١٩٥٦ ، وكان أول قصة نشرها بعنوان «رهينة» ولم يتفرغ للقصة ولم يركز عليها كما ركز على المقال ، وهو الآن يعمل بمؤسسة الكهرباء بمدينة صنعاء ، له كتاب تحت الطبع بعنوان « أساطير يمنية » ، ينشر في معظم المجلات اليمنية الثقافية .
اما قصته « بائع الموز » فقد نشرها في مجلة الحكمة (مارس ١٩٧٣) .

رأسه ، واحيانا اخرى ــ خاصة قبيل الغروب ــ تحملها له امرأة لا تقل شحوبا عنه وهو يسير خلفها يجرجر طفلين صغيرين الى جوار السينما ويبقى هناك يعرضها للبيع الى بعد انتهاء العرض فيعود الى كوخه القريب من السينما ومن مقر عملي ، وكثيرا ما كان يقف بباب عملي ليعرض الموز على المارة أو ليستريح من تعب السير وحرارة الشموس المحرقة .

كان يبقى يزاول مهنته هذه لاسبوع او يزيد قليلا واذا به يتركها ليلتحق مع عمال البناء الذين يعملون في البناية الجديدة التي تشاد بجانبنا فتراه يحمل السطل المملوء بالاسمنت بمشقة وصعوبة لا يجدها في حمل الصفيحة المملوءة بالموز خاصة وهو يجد من المستحيل الاستعانة بزوجته في مساعدته ، ويبقى يزاول مهنته هذه لنفس الفترة السابقة ليعود الى بيع الموز من جديد ..

وذات يوم ترك العمل قرب الظهيرة واسند ظهره الى الجدار على مقربة مني ومد رجليه امامه فقلت له متسائلا :

ــ لماذا تركت العمل ؟ لو رآك المشرف قاعدا هنا لخصم عليك المعاش .

ــ لم أترك العمل الا وانا اتوقع طردي من العمل وخصم معاش اليوم ، العمل متعب ويحتاج الى قوة ، وانا لا اجد قوة ولا اعتدت عليه .

ــ وبيع الموز لماذا تخليت عنه .

ــ البيع والشراء لا بد له من رأسمال وأنا من أين لي .

ــ ورأسمالك الاول اين ذهب .؟

فاجاب باستغراب :

ــ أي رأسمال اول ؟ اشقى الى ان اجمع عشرين ريالا او خمسة عشر ريالا فأشتري بها موزا وأتسبب بها ونأكل من حالها ، والاطفال كلما جاعوا

أكلوا منها ، ونبقى على هذه الحال الى ان ينتهي المبلغ فاعود لاجمع من جديد • ولكن كما ترى العمل تعب ويتطلب قوة والبيع والشراء لا بد له من رأسمال وانا لا املك القوة ولا رأس مال ••

وصمت لحظات يفكر ثم قال :

ـ الله لا يهين عزيز ••

ـ البلاد من أين ••؟

ـ قضاء الزيدية ••

ـ منذ متى جئت المدينة •

ـ من سنة لكن لقمة العيش تجر الانسان من بلاد الى بلاد ••

ـ ولماذا تركت البلاد •

ـ البلاد تركها صغار الملاك وتركوا ارضهم وراحوا يبحثون عن اعمال في المدن ••

ـ وانت تركت ارضك مثلهم ••!؟

ـ ليس لي أرض كان لدي ثوران احرث بهما ارض استأجرها من الملاك بالمناصفة •• ولكن أرضنا جبلية بعيدة عن الوادي وتسقى من الامطار ، والامطار قلت والابار جفت وتعب الناس وترك صغار الملاك ارضهم فبعت الثورين وانتقلت مع الاولاد الى هنا بحثا عن عمل ••

وسكت فترة ليعاود كلامه :

ـ اذا صادف وتحصل احد من ابناء قريتنا على عمل وارسل لاهله ببعض المال رحل من القرية نصف سكانها بحثا عن عمل ، والعمل كما ترى بعينك بيع الموز فيه بعض فائدة لولا ان رأس المال قليل والاولاد يأكلون الكثير منه في البيت ، خاصة وهم يشاهدونه امامهم • والانسان لا تطاوعه نفسه بمنع اولاده من الاكل وانا لم اتغرب الا من اجلهم • ولو كان الانسان ميسور الحال وعنده بعض المال لما تأثر رأس ماله ، لا بما

يأكله الاطفال ولا بمصروف العائلة ولكنني اشقى الى ان اجمع عشرة ريالات او اكثر لاشتري بها موزا اتسبب به وهو مبلغ لا يساوي شيئا لمن يريد ضمان قوت أولاده من عملية البيع والشراء .

ـ كم تحتاج من النقود كرأس مال تتسبب به ؟ تكفيك عشرين ريالا ..؟

ـ لو كانت موجودة ستكفي . وسأعرف كيف اقلب يدي لان العشرين ستعطيني فسحة للعمل ..

ـ ولكن ما دمت تعول اسرتك من رأس مالك هذا فستتاجر بالموز اسبوعين بدل الاسبوع وستعود للبحث عن عمل .

ـ هذا لا بد منه ولكن رأس المال الكثير يحتمل الصرفيات .

ـ ما رأيك وانا اعطيك هذا المبلغ ؟

لم يصدق ما سمع واعتدل في جلسته وتساءل مستغربا .

ـ انت ستعطيني رأس مال مقابل ماذا ؟

ـ لاسهل عليك عناء معيشتك . ولاخفف عنك بعض التعب .

ـ جزاك الله خيرا ولو اعطيتني ثلاثين ريالا فستكون احسن .

ـ ثلاثون ريالا ؟! قلت تكفيك عشرون فكيف اصبحت العشرون قليلة ..؟

ـ كنت اولا اتمنى ولكن ما دام الله قد سخرك فانا اطلب الزيادة والثلاثين لو كانت موجودة فانني سأخرج الى الاسواق واشتري اشياء اخرى غير الموز .

وصمت لحظة وقال :

ـ انتم اغنياء كلكم ..

فتبسمت وقلت له :

ــ كيف عرفت اننا اغنياء !؟

فاشار الى المحل الذي اعمل فيه وقال :

ــ وهذا ما هو .. والاخرون لديهم محلات عمل مثلك .

ــ هذا المحل ليس ملكي انه ملك شخص اجنبي فتساءل مستغربا :

ــ تعني ان المتجر ليس ملكك .

ــ لا ..

ــ وليس عندك ارض .

ــ لا ..

فطأطأ رأسه خجلا وقال :

ــ نحسدكم على معيشتكم ولا نعرف كيف تعيشون .

قال ذلك ولاذ بالصمت فقد طغى عليه الشعور بالخجل ولم يدر ماذا يقول ولا ماذا سيكون مصير الوعد الذي وعدته به بعد ان تكهرب الجو كما شعر ، فقلت لازيل ما اعتراه من خجل :

ــ سأعطيك خمسة وعشرين ريالا تعال غدا في الصباح الى هنا .

وكأنما اعطاه حديثي طاقة من النشاط فعاد يواصل عمله بجد ونشاط وهو مسرور بوعدي له ولسانه يمطرني بوابل من الدعوات .

وفي صبيحة اليوم التالي كان ينتظرني على باب المحل قبل ان اصل اليه .. لربما بات الليل ساهرا يرقب طلوع الصباح ولا ادري في اية ساعة خرج من كوخه وبقي ينتظرني .

اخذ النقود وذهب الى السوق ليعود بعد ساعة راكبا في مؤخرة عربية يجرها حمار مثقلة بأقتاب الموز التي اشتراها من السوق لينقلها الى كوخه لانضاجها قبل ان يعرضها للبيع ولم ينس ان يناديني ويؤشر بيده من فوق عربية الحمار التي حملها بضاعته وركب بجانبها ليحافظ عليها من السقوط وليستغل كل حقه في استئجارها كاملة . واخذ يحييني وهو يبتسم وكأنه

يريد ان يثبت لي انه لم يخدعني عندما اعطيته المبلغ ورددت على التحية والابتسام بمثليهما وبقيت اراقبه حتى غاب بين الاكواخ المتعرجة المتداخلة.

بعد ساعتين عاد الي بصحبة زوجته واطفاله الاربعة شبه العراة ، كان عمر اكبرهم لا يتجاوز السابعة ، ووقفوا على الباب حتى كادوا ان يسدوه .. واخذ يشير لهم نحوي ليعرفهم بي او ليعرف زوجته بمن اعطاه رأس مال .

التفت نحوهم ولم تكن وجوه الاطفال او امهم غريبة علي ، فهم صباح ومساء يتسكعون في الطرقات يجمعون القراطيس ونثارات وقطع الخشب او اي شيء يمكن ان يقوم مقام الحطب للطبيخ واحيانا يمرون قبل طلوع الشمس تحت نوافذ منزلنا والمنازل المجاورة قبـل غيرهم من الاطفـال يبحثون في القمامات التي ترمى ليلا عن أي شيء يمكن الانتفاع بـه في اكواخهم ، او يقتعدون بجانب أبيهم قرب دار السينما وهو يعرض بضاعته للبيع .

اقتربت نحوهم على سبيل المجاملة وفم كل واحد محشو « بالشمة » ينثرون بصاقهم على الباب فقلت للرجل :

ــ كلهم « يتبردقون » !!؟ (١)

ــ نعم ..

ــ حتى هذا الصغير ..!!؟

فتساءل باستغراب ؟

ــ وهذا ما الذي سيصيبه لو « تبردق » .

ــ لماذا تعلمه تعاطي « الشمة » (٢) .

(١) يتبردق : يستعمل مسحوق التبغ تحت لسانه ، او بين اللثة والشفة السفلى كنوع من المكيفات .

(٢) الشمة : اسم المسحوق الذي يسميـه البعض « البردقان » ومنـه اشتق الفعل يتبردق .

ـ وماذا في ذلك ، تعودنا عليها ونحن صغار مثله لم نستفد شيئا ولا خسرنا .. فقالت الام موضحة السبب .

ـ الطفل عنـدما يرى الكبير « يتبردق » يبـكي لكي « يتبردق » فنضطر ان نعطيه ليسكت وهكذا يتعود عليها .

فقال معقبا على كلامها :

ـ ليس في البيت شيء غير « الشمة » فهي متوفرة اكثر من غيرهـا لانها ارخص شيء وتقع عيون الاطفال عليها اكثر مما تقع على الطعام او الموز .

فقلت ساخرا :

ـ ولماذا لا تعطي لكل منهم حقا « للشمة » .

فقال الطفل الكبير وهو يخرج من طي سترته غلاف بطاريات سراج يد مصدىء ومهشم مملوء بالشمة ومده نحوي :

ـ انا عندي حق .

واخرجت الفتاة حقا بدورها وقالت :

ـ وهذا حقي انا .

فقلت مخاطبا الولد :

ـ من يشتري لك الشمة .

ـ أبي .

فقال الرجل :

ـ املاها لهم بالاسبوع بربع ريال .

ـ كم عمر الولد :

فتبسم وتبادل نظرات التساؤل مع زوجته وقال :

ـ عمره ؟ وما ادرانا كم عمره بالضبط ..!!

وصمت لحظة وقال :

ـ نحن اشبه بالبهائم نسير مثلما تسيرنا الارادة لا نعرف اعمارنا ولا اعمار ابنائنا . والذي اعرف عمره منهم هذا الصغير ان عمره ثلاث سنوات وسأنسى عمره عندما يكبر قليل .

ـ لماذا لا ترسل الولد الى المدرسة ليتعلم ؟

ـ كنت احب ان يتعلم ولكنه رفض .

ـ ولماذا لا تجبره على الدراسة ..؟

ـ ذهبت به الى فقيه المسجد مرتين وفي كل مرة اعطي الفقيه نصف ريال لكنه يهرب من عنده فقلت انا احق من الفقيه بالنقود ما دامها تذهب بلا فائدة .

ـ أرجعه مرة ثانية وتريده يكون مثلك لا عمل ولا مصدر رزق .

ـ ومن يحب التعب لابنه .. ولكن كيف اكرهه على ان يتعلم ؟

أخذت احدث الولد واتلطف معه في الحديث فوافق على الذهاب للكتاب عند فقيه المسجد شريطة ان يعطيه ابوه كل يوم بقشة .

بعد اسبوع وقفت المرأة بباب المحل الذي اعمل فيه تنادي .

ـ يا محمد ـ يا عبده ـ يا أنت ..

كنت اسمع النداء ولا اهتم به لان المحل مواجه للشارع والمارة كثيرون والوقوف في الشارع اكثر ، لكن تكرار النداء جعلني التفت نحوها واتساءل :

ـ من تنادين ..؟

ـ أنت ..

ـ وما الخبر ؟

ـ زوجي محبوس منذ امس الاول وقد طلب مني ان اتي اليك .

ـ وأي جريمة ارتكب ؟

ـ ولدنا تضارب مع ابن الشاويش عطيه واسقـط لابن الشاويش احدى اسنانه فغضب الشاويش وارسل خمسة من العسكر اخـذوه الى الحبس وقد مضى عليه يومان واليوم هو ثالث الايام ..

وصمتت لحظات تغالب دموعها وقالت :

ـ الموز عطب في البيت من الحر ونحن بدون قوت والزوج محبوس وعندما زرته في الحبس طلب مني ان آتي اليك ..

بقيت فترة افكر بعلاقة الرجل بشجار حدث بين اطفال مهما كـانت نتائج الشجار فتساءلت مستوضحا :

ـ زوجك كسر سن ابن الشاويش ؟

ـ لا لا ولدنا هو الذي كسرها .

ـ وما دخل زوجك في مشاكل الاطفال ؟

ـ وما ادرانا انها اوامر الشاويش .

فكرت فيما عساي أعمل كيف اتصرف تجاه القضية ، فوجدت نفسي اشبه بغريب في هذا الجو الاداري الغريب ، وخشيت ان يزج بي الى جانبه لانني لست على صلة بأي من المسؤولين .. فقلت لها :

ـ وماذا استطيع أن اعمـل ؟ انا لا اعرف الشاويش ولا غيره ولا اخالطهم ولا اتعامل معهم ، فطأطأت رأسها وقالت :

ـ ما ادرانا . قال لي ان آتي الى عندك لانه لا يعرف احدا في البلد .. لو مات في الحبس لما سأل عنه احد ، والشخص الذي يعرفه انظر ماذا عمل بـه .

فتساءلت باستغراب :

ـ هل تعرفون الشاويش الذي تضارب ابنكم مع ابنه ؟

ـ الشاويش جارنا .. الباب بالباب .

ـ كلميه انت اذن راجعيه فربما اطلق سراحه .

ـ انهم يريدون نقودا والنقود كلها اشتري بها الموز ، والموز عطب في البيت والرجل في الحبس .

ـ حتى منكم انتم وهم يعرفوا حالكم يريدون النقود ؟

ـ كل واحد رزقه ، ورزقهم مفروض علينا .

لم ادر ماذا اقول لها او بماذا انصحها ، ولم تنتظر هي اية اجابة مني فأسترسلت قائلة :

ـ امس المساء حملت الموز والاولاد معي وجلسنا تجاه السينما نبيع الموز مكانه ، لكن الاولاد ناموا في الطريق والناس بعضهم سيئون مما اضطرني الى ان احمل الموز والصغار واعود .

لم اجد بدا من اقناعها بانني لا استطيع ان اعمل لها شيئا فانصرفت من عندي يائسة .

بعد يومين فوجئت بالرجل يقف امام الباب يناديني فالتفت نحوه وقلت :

ـ سهل الله ..!؟

ـ الله كريم ..

ـ كيف خرجت من الحبس .

ـ الشاويش الله يعافيه ويطول عمره طلب مني ثلاثين ريالا وخرجت.

ـ لم اتمكن من سؤال زوجتك عما حدث لك لانها كانت مهتمة بخروجك فهل تخبرني انت ؟

فأفترش الارض وقال :

ـ الابن مصيبة حميت سنارة حديد الى ان احمرت فكويته في جبهته، وانا اكاد ابكي من الالم ففي الصباح تضارب مع ابن الشاويش وكسر له

سنا واسال دمه ، الشاويش غضب وحلف اليمين بانه سينتقم لابنه . فقلت لــه :

ــ انتقم مني او من ابني ، سأمتد عند قدميك .. انت تعرف حــالي أكثر من غيرك وان شئت ان تقلع لابني سنه فاقلعها الآن بيدك ، او سأقلعها الان انا واذا اردت شرع الله فانا قابل وكما تريد لكني استحلفك بالله ان لا تتعبني ولا تهينني .. أتركني اشقى على أولادي .. لكن الشاويش التفت نحوي وصاح غاضبا :

ــ والله لأسيل دمك مثلما سال دم ابني .

فقلت له :

ــ أمرك يا شاويش اسل دمي او دم ابني الان .. لــكن دون ان تهينني او تذلني امام اطفالي وامام الناس .

فصرخ وقال :

ــ والله ما يقع الا ارسل لك خمسة جنود يأخذونك الى المباحث .

ــ لا داعي لذلك سأمشي وراك الى المركز .

ــ والله من يقع الا تنفيذ الجنود عليك .

جلست عند قدمه وقلت :

ــ لا تظلمني ولا تهينني افرض علي العقاب الذي تريد بنفسك الآن.

ــ لا بد من جنود يوصلوك الى المركز .

وما هي الا دقائق الا وهم يسألون عني .. ركبت معهم على احــد الموترات وانا خائف من السقوط لاني لم اركب موترا ابدا .. وفي الحبس راجعته وقلت له لا فائدة من حبسي .. بضاعتي تلفت واطفالي جاعوا .. اتركني اتسبب لاعولهم فرفض في اليوم الاول والثاني فأرسلت زوجتي اليك أملا في أن تساعدني على الخروج .

ـ وكيف خرجت من الحبس ؟

ـ أمرني بدفع ثلاثين ريالا اجرة للعسكر وموتراتهم وحق «الرسمي» وسامحني بالباقي ..

ـ وما هو الباقي الذي سامحك به ؟

ـ سامحني بس .

ـ تكلم كما لو انك انت كسرت سن ابنه وليس ابنك الصغير الذي تشاجر مع ابنه .

ـ الاب يغرم نيابة عن ابنه .. الاب يدفع الثمن احيانا ..
وصمت لحظات ثم قال وهو يهم بالانصراف :

ـ هذا شيء مقدر البضاعة عطبت ورأس المال انتهى مع المكسب .. ضاع كل شيء .

لكن الله كريم .. سأبحث عن عمل وعندما اجمع رأس مال اخر سأشتري موزا وسأبدأ من جديد .

زمن بلا تراجع

بقلم
محمد الزرقه (١)

تنداح الاشواق •• بريئة كاعشاب الفجر الندية •• تنساح في فؤادها الخواطر الوردية •• تحلم بعقد الورد يطوق جيدها • تكاد تسمع الزغاريد والنشاد •• تتخيل ليلة كأحلى الليالي •• كأسطورة من اساطير الف ليلة وليلة •• سيعود خطيبها وابن عمها صلاح الدباغ •• انموذجا جديدا لكل أسرة آل الدباغ التي اشتهرت في الماضي ولا يزال افراد منها يواصلون دباغة الجلود •• الوطنية •• لكن صلاح •• ذا الوجه الملائكي الجميل صحيح انه فخور بدباغة الجلود •• لانها الخلق والابداع وكسب الرزق بالكد والعرق •• ولكن المدارس ايضا قد اتيحت بعد الثورة فلينهل من التعليم ما دام ابوه قادرا على اعالة الاسرة •• كلها •• ولم يكمل صلاح الاعدادية اذ كانت الحرب الضروس قد حولت الشباب الى جنود •• يدافعون عن الثورة •

---

(١) من مواليد صنعاء ١٩٤٥ ، تلقى دراسته الاولى باليمن ، ثم التحق بقسم الصحافة ـ كلية الآداب ـ جامعة القاهرة ، وتخرج ١٩٦٤ اشتغل محررا في صحيفة الثورة ، وهو الان رئيس تحرير هذه الصحيفة ، نشر في كثير من الصحف اليمنية ، وبنوع خاص صحيفة الجيش ، له مجموعة قصصية صدرت سنة ١٩٧٦ بعنوان « كبد الفرس » . اما قصته «زمن بلا تراجع» فقد كتبها في ديسمبر سنة ١٩٧٣ ، ثم نشرها بمجلة «اضواء اليمن » (يوليو ١٩٧٥) ، وأعاد نشرها في مجموعته القصصية .

وذهب .. صلاح ليخندق مع زملائه في « عرة همدان » شمال صنعاء .. وكان يزور اسرته في كل اسبوع تقريبا .. ويزور ايضا بيت عمه .. ليراها ليكحل عينيه بمرآها التي لم تكن مجرد ابنة عم .. بـل خطيبـة ايضا !

ومنذ اسبوعين . لم تره .

ولكن الاحلام الوردية لا تفارق القلب البكر المشتاق يرسم عشرات الصور للجنة الموعودة التي طالما مناها .. صلاح حين كان يحدثهـا عن الجمهورية والعدالة والمساواة كانت تزهو به امام زميلاتها في الحارة .. وكان معظم من في الحارة ينظر الى صلاح والى اسرة آل الدباغ بمنظـار الغيظ والكراهية لمجرد ان الاسرة كلها كانت تناصر الجمهورية .. وراح الحاقدون على الثورة يشنون حربا نفسية .. مسمومة كريهة ضد اسرة آل الدباغ .. يتهمونهم تارة بالكفر وتارة بقلة الاصل فعلا لانهم يناصرون « الجدد » .. وتقبلت اسرة آل الدباغ الهمس وعبارات السخريـة .. بالصمت .. وبالاستسلام فعلا .. ولم يجرؤ احد منهم على ان يتحدث عن الجمهورية ، كما ان أحدا لم يجرؤ منهم أيضا على التطوع والدفاع عن الجمهورية اوائل عام ٦٨ باستثناء صلاح الدباغ الذي حمل السلاح بعد ان تدرب عليه وراح يقاتل .. وقد واجهت امه في البداية سخرية النساء في الحارة .

وعندما اشتد الحصار على صنعاء عجبت الام كثيرا وهي تتلقى نصائح التحذير الوحيدة بان صنعاء على وشك السقوط في ايـدي الامام ..! وكانت الام تقنعهن بأن « الولد عنيد » أو هو اخبر « بنفسه او قد نصحناه وحذرناه .. ومصمم » . !

وحين يأتي من همدان . كان يبدو مغبرا .. وباسما ايضا .. يزهو

ببندقيته في الحارة والعيون ترمقه في غيظ وحقد وبعض جيرانه يتجاهلونه مارا .. او يتجاهلون تحيته !

*

رمضان .. أيضا .

ولا تزال « مريم » في شوق ولهفة لرؤية صلاح .. همست لامها وهما في حجرة المطبخ تعملان كعك العيد وتشكلانه في الصاج المستطيل .

ـ لقد تأخر صلاح .. والعيد بعد ثلاثة ايام .!

واجابت الام دون اكتراث :

ـ من الخير ان يغيب عنا هذه الايام .

وقالت مريم وسحابة من الحزن تكسو وجهها .

ـ لكنه يدافع عنا .. عن الجمهورية والعدالة والمساواة وردت عليها أمها قائلة :

ـ هل تريدين النصيحة .! صلاح يتدخل فيما لا يعنيه ولن تنفعه الجمهورية او الملكية .. وقد يكون من الخير ان يكون لك خطيب غير صلاح .!

ثم اردفت بعد هنيهة :

ـ لاحظت ان ابن جارنا السيد اسماعيل رآك امس وانت تحملين صفيحة الماء . فكاد يأكلك بعينيه .!

غمغمت مريم .. في جذل .

ـ انا لا اهتم باحد .. صلاح هو الذي انتظره !

ارقت ليلة العيد . غمرتها الاحزان . فلاول مرة لا تحس للعيد بمذاق .. ظلت تحدق في الظلام بعد ان اطفأت امها النور . كانت تسمع الدانات

تنهال على الجبل • ومن الجبل ايضا ترد المدافع • وانسلت مريم من فراشها بعد أن أحست بالضيق يخنقها • وعلى أطراف أصابعها تسللت الى سطح البيت •• كان الظلام خانقا • ومن قمة نقم كانت الدانات الحمراء تقذف اعداء الجمهورية •

وشعرت مريم بالزهو • بالحماس • فالجبل صامد والشجعان • صامدون •

وسبحت مريم في خيالاتها وهي تتخيل صلاح عائدا منتظرا • لكنها التفتت على همهمة مسموعة لتتبين ابن جارها اسماعيل واقفا على ارتفاع منها • يبتسم في سخرية • ويقول :

ــ يقولون بأن « الوعوع في عرة همدان قد قتلوا » •!

وصمتت مريم • جف ريقها هلعا • بينما استطرد اسماعيل في صوت حانق •

ــ لقد اجيفت حارتنا منكم ومن الجلود التي تدبغونها وسيذهب والدي الى رجال الحارة ويدفعهم الى البلدية لاستخراج أمر بطردكم •

ولم تجب مريم وظلت ترتعش شفتاها غضبا • كانت الدماء فائرة في كل عرق في جسدها وحاولت ان ترد عليه فأمسكت بطوبة حمراء مربعة وقذفتها بعصبية بعيدا عنها وبعيدا عنه وهمست له وهي تعود ادراجها •

ــ يا الك من موتور ••!

وحين اندست تحت الغطاء راحت تتسمع الدانات واصوات المدافع ترج الظلام• وخيل اليها ان الكلاب الضارية توشك أن تفتك بها وبصلاح •• لقد سلطوا عليهما الافاعي تزحف من الجدران والثقوب •• واستطاعوا ان ينتزعوا صلاح من جوارها •• وتجمع الناس في الساحة الواسعة •• وتسلقت شجرة وقلبها ينتفض هلعا واخذت تنظر الى مجموعة من الرجال

•• وسط الساحة ايديهم مربوطة الى الخلف •• ورؤوسهم منحنيـة في انتظار ضربات السيف •• وتبينت « صلاح » وهو ينحني •• ارتجفت ايديها •• ها هم يبزقون الثوب حول رقبته ليتمكن السياف من ضربها • ارتفع السيف يداها تمسكان بجذع الشجرة • خانتها اعصابها •• افلتت هوت •• صرخت •• صرخت وفتحت عينيها لتجد امها بجوارها •• ابوها • اخوتها الصغار • وأسرعت الام تحتضنها باكية •

ـ مريم • مالك يا بنتي • لماذا تصرخين ؟

وظلت مريم تحدق فيهم مشدوهة •• ثم سألت اباها في ضراعة •

هل عاد احد من الجبهة ؟

ولم يجب •• ولم تنبس امها ببنت شفة •

وخيم الصمت •

وادركت مريم ان في الامر شيئا •

ومضت الايام وهي تذوي في احزانها •• لم تعد تحس مذاق الاشياء •• ولم تعد تلعب مع البنات ، لكن انتصار الجمهورية اعاد الـى وجهها الحياة والامل • يوم تحطيم الحصار • والبسمة تملأ شفتيها •• تخاطب النساء عن الانتصار •

وشاركتها النساء الفرحة • حقا وبقي صلاح في اعماقها • زفرة حرى كلما تذكرت انتصار الجمهورية •

وصدقت ما اخبرتها به امها • من ان اسماعيل ابن جارهم يترصدها • فها هو ذا في مواجهة بابهم •• ينتظرها ذاهبة تملأ الصفيحة بالماء •• رنت اليه بعينيها • فاجفل خجلا وحين عادت والصفيحة فوقها والمـاء يتراقص لمشيتها • رنت اليه ايضا بعينيها • فاجفل اسماعيل خجلا كان يتابعهـا بعينيه • فاذا ما رأته او وقعت عيناهـا عليه احمر وجهه وارتفـع وجيب القلب • ولم يملك الجرأة ان يقول شيئا •

وبقدر ما هذّب الحب من سلوك اسماعيل • بقدر ما غيّر نظرته الى الدباغين والجزارين وصناع الاحذية بل واصبح حزينـا على صلاح • يستفسر مريم كلما وجدها وحيدة في زقاق او منعطف ويخرج السؤال محشرجا من فمه • لكنها تمضي تتمايل كغصن البان • ترنو اليه بعينـين تفيضان سخرية وتهكما •

وردود فعل الانكسار في أي جانب تولد الحوار • ومن الطبيعي ان يفعل انتصار الجمهورية مفعوله الساحر في القوى التي اخفقت امانيهـا فلقد تمزقت الصفوف في الجانب المضاد • وساد الحوار والبعض تقبـل مرغما • اما في بيت اسماعيل فلقد ساد الحوار من نوع جديد •

حوار مزق الحارة كلها واثار الدهشة بين الجميع :

اما السبب فهو اسماعيل نفسه • الذي خرج الى الشارع والمسجـد لاعنا اباه لاعنا رجعيته ومفاهيمه الضيقة • لاعنا كبرياءه الذليل واحتقاره للناس وشرفه الذي يدعيه دون عناء ودون عرق •!

ولم يحاول احد من الناس ان يحشر نفسه وتطور النزاع بين اسماعيل واسرته الى نزاع بين عائلة مريم الدباغ وعائلة اسماعيل او بالاصح بـين الحاج رزق الدباغ والسيد اسماعيل والد اسماعيل •

وحارت مريم في الامر • وحارت اكثر عندما راح والدها يفرض عليها نوعا من الرقابة على مشيتها وملابسها التي رأى ان تكون محتشمة الـى درجة ان حرم عليها الخروج من باب البيت لغير ما منفعة تمضيها •

واعترى الذهول مريم لهذه المعاملة القاسية وانطوت على نفسهـا في حزن •• تمضي ايامها رتيبة في حجرات البيت المظلمة لم تعد تسمع خبرا عن صلاح • ذوت آمالها وذوت نضارة وجهها • هزل جسدها • ضمـر صدرها الريان • واطفأت عليها امها ذات ليلة القنديل المضاء بعد ان اسقتها

كوبا من الليمون وقد شعرت بان ابنتها صريعة الحمى •• ترتعش • غير ان مريم لم تلبث في فراشها اكثر من دقائق حتى تناهى الى سمعها نقاش حاد بين والديها • ونسيت آلامها • دب النشاط في جسدها وانسلت كقطط الليل ترهف السمع : وسمعت اباها يقول :

ـ لنكن عقلاء • اذا كان اسماعيل يريد البنت فأبوه يرفض المصاهرة من اساسها • ابوه يشعر بالعار لو صاهرنا وانا من جانبي لا اوافق على هذا الزواج لاننا سنظل موضع اذلال فابسط خلاف بين الاثنين سينسب الى ابنتي وتظل ذليلة •

وسمعت امها ترد حائرة :

ـ لكن يا رزق الولد مريض بسببها وحالته لا تجدي معها سوى عناية اللـه •

وتساءل الاب في قلق :

ـ وصلاح •• ماذا لو عاد •!

ردت الام بقولها :

ـ الدنيا قسمة ونصيب •• ولا احد يعرف مصير صلاح • وقد يكون حيا وقد يكون ميتا •

أشفقت وبكت وهي تتذكر الشاب الذي يئن الان •• اصعب • !

وشعرت مريم بالتمزق يجتاح قلبها •• شعرت بالرثاء والعطف ازاء اسماعيل •• وحين عادت الى فراشها ظلت تتذكر صلاح •• فارسها الذي ذهب يدافع عن المبادىء بينما ظل اسماعيل جريحا في معركة يحاول ان يقي نفسه من نفثات السموم التي يحاول اباه ان يجرعه اياها •• وفي البداية كان يسمع ما يقال عن صلاح الدباغ •• بحقد ، لكنه ما لبث ان استحوذت مريم على مخيلته حين راح يتابعها صامتا •• كان يفكر في الحواجز التي

تحول بينه وبينها •• وكانت الحواجز من صنع تقاليد متوارثة •• لا دخل له او لمريم فيها • وراح يقرأ القرآن ويتعمق في الكتب الدينية لعله يجد حاجزا يعوقه عن تحقيق حلم غدا امنيته الوحيدة •

وصمم ذات ليلة ان يواجه اباه •• وكانت ليلة تغيرت فيها العلاقة بينهما واهتزت •• فبينما كان الاب يسمع تعليقا للاذاعة •• لم يطق صبرا حتى ينتهي التعليق •• واقفل جهاز الراديو بعصبية قائلا :

ـ اوغاد آخر زمن •• جاءوا يحكمون ••

وتساءل اسماعيل في بلادة :

ـ من هم يا ابي ؟؟

وقال الاب في زهو :

ـ أين ما مضى من عصر هؤلاء •• غلاء •• وسرقة ونهب وبطش •• هذه هي حقيقتهم •

وقال اسماعيل في دهشة :

ـ وماذا كنت تتوقع يا ابي •• هذا هو الواقع والذين يحكمون من ابناء الشعب •• مثلنا ••

لكن الاب سرعان ما صاح :

ـ من قال بانهم مثلنا •• نحن ارفع مكانة عند الله •• هؤلاء لا يحترمون احدا •• والله ما كنت اتصور الزمن الذي يحكمنا مثل هؤلاء •• فتخيل جارنا الدباغ كيف كان وكيف اصبح ••

وقال اسماعيل وقد صمم على ان يقول ما اعتقده او ما توصل اليه :

ـ أنا أعرف هواجسك وأفكارك يا أبي ••• ومكانتنا في المجتمع تتحدد من خلال أعمالنا وقدراتنا لا من خلال انسابنا واحسابنا ••• فتلك قيمتها عند الله ••• فأكرمكم عند الله أتقاكم ••• واني بصراحة

أعطف على الناس الذين يعيشون بالعمل ويكسبون بالكد ••• بالعقول والسواعد ••• وجارنا الدباغ يستحق كل تقدير ••• وكذلك الدباغون والصناع جميعا •••

واهتز الاب ••• وعصف به الغضب ••• واربدت سحنته ••• وفغر فاه وهو يتأمل ابنه المتأهب للنقـاش ••• وبعصبية صفـع ابنه وصاح مغضبا :

ـ غادر هذا المكان يا سفيه ••!!

وغادر اسماعيل غرفة العشاء مثخنا بالجراح ••• فها هو أبوه قد سد باب النقاش بهذه الطريقة •

ولم يعد امام اسماعيل الا التعبير عن مشاعـره ازاء الجمهورية عن طريق تجسيد معركة الحوار ! وشد اهتمامات جيرانه • اليها ••• لكن الحوار مع ذلك استمر لانه حـوار كانت اسبابـه ومسبباته أسرة رزق الدباغ والذي طغى فيه جمال مريم • وقد وصل الامر باسماعيل في احدى الامسيات المتوترة بينه وبين أبيه حاكم العدل المشهور • حدا • جعـل اسماعيل يسقط على فراشه مريضا ••• يائسا لا يرى سوى ظلاما يحدق به من كل جانب !•• ووصلت القناعة باسماعيل ان كان يتساءل أمام أمه القلقة المفزوعة عليه :

ـ هل يمكن أن نظل نرغم الآخرين على (ميزاتنا) بمجرد اننا ننتمي الى أسرة ؟•• اننا مواطنون ككل الناس • أعمالنا هي التي ترفـع من قدرنا أمام الناس أو تحط ••• وليس انتسابنا ؟

وتشفق عليه أمه ••• وتنحدر الدموع من عيونها ••• وتغادره في صمت خائفة مفزوعة لا تستطيع الاسهام برأي !

ويحكم المركز الاقتصادي للرجـل في الاسرة • فلقـد كان النقاش

يحتدم في منزل الحاج رزق الدباغ ... بينه وبين زوجته .. كان يقنعها كل أمسية بالوضع القائم فعلا بين أصحاب (الاصول) . وبين فئـات الجزارين والدباغين والحلاقين وصناع الاحذية . كأناس لا أصول لهم يقنعهـا بأن أية محاولة لاختراق هذه المفـاهيم . لمحوهـا . نوع من المستحيلات لا يتقبلها الناس في صنعاء المليئة بالمدارس والعلم . أما في الريف كضلاع والقرية والروضة وسنع وسعوان فأمور لا تقبل الجدل وكانت الزوجة تقتنع وهي تتنهد بين الفينة والاخرى حسرة على شباب اسماعيل الذاوي .

وبالمقابل كان السيد اسماعيل الحاكـم بوزارة العـدل وجار رزق الدباغ يشرح لزوجته مكانته الاجتماعية ومهابته كحاكم شرعي .

وقال لها في احدى الليالي صراحة :

ــ لو استسلم للامر الواقع فان القبـائل الذين يتبركـون بي لن يحتكموا اليّ في قضية واحدة ... فمعظم ما اكتسبه أبي وما اكتسبته أنا ... كلها لان الناس يتبركون بنا ... ويثقون بنا ... اذ ان معاش الحكومة لا يكفي لاسبوع واحـد ... فهل يعقـل أن أصاهـر رزق الدباغ ..؟!

وفي أمسيات الصيف المقمرة كانت الريح الندية ترطب أنفاس مريـم التي اعتادت أن تظل صامتة ... تحدق في آفاق الليـل ... حزنا على الذي لم يعد ... واشفاقا على اسماعيل وشبابه الذاوي ...

وفوجئت به في احدى الليـالي يهمس لها بصوت كأصوات الموتى محشرجا .. ذابلا ..

ــ مساء الخير يا مريم ...

التفتت اليه ...

ــ مساء الخير يا ... اسماعيل ...

واحتبست رغبة الكلام في حلقه ••• وقاطعتهـا دوائر الصمت ••• لكنها أسرعت تهمس ••• كان لصوتها أعظم وقع ••• كأروع لحن :

ـ هل تريد شيئا ••• يا اسماعيل ••• أنا ذاهبة للنوم •••

لم يسعفه خيالـه سوى بكلمـة « شكرا » محشرجة واهيـة ••• لكن الدماء عادت تنبض في جسده الذاوي ••• وشعر بمذاق السعـادة فاضت في أعماقه ••• ولم يصدق نفسه بأنها حدثته ••• ولاول مرة نام دون ان يخرج شهيقه وزفيره أنينا مؤلما طالما تقطعت له نياط أمه •

وفي الايام التالية كانت أمه توعز اليه بأن يلتقي بمريم ••• في سطح البيت ••• ولكنها حذرته من ان يتحدث لها عن رغبته في الزواج حتى لا تصبح الفتاة في موقف يجعل أسرتها تشترط وتشترط أو يأخذها الغرور فتخبر صديقاتها البنات بأن اسماعيل سيتزوج بها ••• وحتى لا يفقـد والده مكانته وهيبته •••

واستأنس اسماعيـل بآراء « الخبيرة ببنات جنسها » لقد استـرد صحته ••• واختفت الغيوم من سماء الاسرة •••

وترك الحاج رزق الدباغ ابنته تصعد الى سطح البيت ولم ينهرها من لقاء اسماعيـل ••• وأغضى عن الامر مفضلا أن يغلق بابه ومعـه زوجته ••• يقطعان الامسيات في ملل ••• بينما تظاهر السيد اسماعيل بأنه لا يريد أن يجعل من نفسه رقيبا على ابنه الا اذا أصر اسماعيل على الزواج من مريم •

ومع الليالي ••• اختفت الكلفة بين اسماعيل ومريم •••

ففي ليلة تالية ••• مازحها ••• واتهمها بأنها رجعيـة لانها تخفـي وجهها منه ••• وكان طلبه الثاني في ليلة أخرى بألا ترتدي الحجاب الذي يخفي جمال شعرها ••• منه •••

وكانت مريم سعيدة في كل الامسيات .. لقد بات السطح لهما ضروريا كفروض الصلاة كانتظار مدفع مغرب رمضان ... وكانت ساذجة ... وكانت أمها ساذجة بدورها ... وسلم والدها الامر لله ... وكما لو أن الامور ستنتهي بالزواج فعلا ... دون ان تدري بأنها قد دخلت في معركة غير متكافئة ... سلاحها الثقة بجمالها ... وبعدالة قضيتها بينما ... هناك من يشير ويوجه ويخطط لاسماعيل .

لقد تطورت علاقات اللقاء .. وتجاوز اسماعيل حدود بيتهم ليقف تماما بجوار مريم في سطح بيتها .. واصبح يمسك بيدها ويحتفظ بها بين يديه .. وتجرأ في احدى الليالي وطوق خصرها فلم تبد حركة .. كأنما ذابت مشاعرها تماما .. فضمها اليه واحس بصدرها .. دافئا مستسلما .. ودنى من وجهها .. والتقط شفتيها .. وهو يرتعش في لذة ولم تقاوم .. أيضا .. ولكنها قاومت عندما امتدت يده تجوس في مختلف المقاطع من جسدها .. لكن مقاومتها لم تدم طويلا .. انهارت مقاومتها تماما في احدى الليالي حيث افترشا شوالة قديمة .. وراح يدغدغها ويجردها من الثوب الداخلي .. كان يشعر برعشة خفية .. وهمس لها ــ ها نحن ازواج امام الله .

وغمغمت وهي تجذبه اليها ..

ــ نعم يا اسماعيل ..

وندت عنها صرخة خافتة مكتومة .. لكنها شعرت باللذة والالم معا .. وحين ودعته نامت وهي تشعر بالرضاء ، وعلى شفتيها المنفرجتين لاح شعور بالانكسار والهزيمة .. وكما لو ان العاصفة قد حالت ومشيئة السفينة .. وظلت ترتمي في أحضان اسماعيل كل ليلة ولم تعد تفكر في الزواج . وناقشته في احدى الليالي عن القضية العنصرية المؤرقة .. فلم

يجبها •• وطيلة ثلاث ليال بعدها لم يعد يتردد على السطح •• وفي الليلة الرابعة فاجأتها أمها كمن يزف اليها خبرا ••

ــ لقد عاد صلاح •• كانوا قد اسروه وفر منهم في نجران وعاد ••
واستمرت الام تقول :

ــ **لقد هزل جسمه •• وتغير لونه من الشمس •• انه** كالح هزيل الى درجة شككت •• انه هو ••!!

واستطردت كأنها تزف اليها اخبارا حسنة .

وفوجئت الام بسريم تنهار •• تجثو •• وتبكي في لوعة !

لقد فقدت كل شيء •• اذا •• ولم تشأ ان تخبر امها تفصيلا بانها فقدت صلاح •• والقضية التي احبته وانتظرته من اجلها •• بل •• ونسيته •• أيضا اشفاقا على الذي اراد ان يتأكد من صحة انتسابه وقلة قيمة الاخرين •• حتى نال ما نال تاركا في احشائها ثمرته !

وفي لحظات . كان صلاح ينتصب بشبحه الهزيل ليقطع عذابها ••

وثب خاطرها •• كالبرق •• وسرعان ما ألقت نفسها بين احضانه ومسح على رأسها في حنان وهي تجهش بالبكاء •• ثم فجأة اعرض عنها حين غشت وجهه الكآبة •• فجأة استدار الى عمته والدمع يلوح من عينيه :

ــ هأنذا قد عدت من الاسر •• قاتلت ووقعت في الاسر •• والذين كانوا معي في خنادق القتال •• رأيت الكثيرين منهم في سيارات مرفهة •• لم تعد لهم بي معرفة •• وحين ذهبت للبحث عن عمل •• بوصفي مشاركا في الدفاع عن المبادىء •• كانت الابواب موصدة يا عمتي •• فلا توجد وظائف خالية •• في أي مكان ••

ثم اجهش في البكاء •• وانهار يهذي في جنون ••

– « ومع اني دافعت عن شرفنا جميعا .. الا ان اسماعيل .. قـد سلب مني الامل الذي قاتلت من اجله .. لقد عرفت كل شيء من الناس .. وعرفت كيف سلمتم مريم .. علاجا لمرضه فازداد ازدراء لنا جميعا ..!

صمت صلاح ..

ورانت لحظات من الصمت المأساوي .. مريم تنظر بذهول الى صلاح .. وصلاح ينظر اليها والى امها بعينين تقطران دما . والام جامدة مذهولة .. لا تعي شيئا .

ومع ذلك فلقد كانت مشكلة آل الدباغ في ان يعالجوا مشكلة مريم .. سريعا .. قبل ان تتضخم .. وقبل صلاح من جديد .. بالتضحية .. حرصا على سمعة آل الدباغ .. رغم همسات السخرية يتلقاها كثيرا من ابناء حارته خاصة حين وضعت مريم ثمرة تلك البذرة التي خلفها اسماعيل .. والذي اختار له اسما انسانيا .. يذكر بالامل .. اختار له اسم «عادل» الذي قد ربما يرث شجاعة وتراجع ابيه .. معا ..!

خاتمة العم مسفر

بقلم
زين السقاف [1]

كانت الرياح تصفع الجبال العالية ، وتتسلل عبر الصخور حاملة زمهرير الشتاء الجبلي القارس ، قام من العشاء وهو يتلمظ ما بقي بين شدقيه ، ويسصمص شفتيه متطلعا بحسرة الى الاناء الفارغ على أرضية الغرفة ، تمتم وهو يفرك كفيه !

ـ لك الحمد يا رب على نعمتك •

وبصوت أبح منهك بادرت زوجته :

ـ اي نعمة يا منكود الحظ •

ـ الحمد واجب على كل الاحوال •

(١) ولد سنة ١٩٤٠ بقرية الحضارم ـ حجرية ـ لواء تعز ومن ابوين يمنيين وقد حصل على بكالوريوس اقتصاد وعلوم سياسية من جامعة القاهرة، وزار كلا من مصر وسوريا ولبنان والاردن والعراق وفرنسا واثيوبيا ، وهو يعمل الآن وكيلا لوزارة الثقافة والاعلام بصنعاء ، وكان اول قصة نشرها هي « حلم بالمطر يأتي » (اليمن الجديد ـ فبراير سنة ١٩٧٦)، وهو متأثر بتشيكوف ويوسف ادريس وزكريا تامر ، ويكتب الشعر ايضا ، وقد نشر في المجلات اليمنية مثل الحكمة ، الكلمة . اليمن الجديد . اما قصة « خاتمة العم مسفر » فهي آخر قصة كتبها ، وقد نشرت في اليمن الجديد (يونيو ـ يوليو سنة ١٩٧٧) .

أدار رأسه الصغير الاشيب ، متخللا بأصابعه ما بين رأسه والكوفيــة المتسخة المهلهلة ، وهو يشد خيوطها الممزقــة المتناثرة فوق جبينه ، تطلع الى الخارج من خلال فجوة النافذة ، واقتعد بجسمه المكدود ، مريحــا عبء السنين على ارضية الغرفة ، فوق الفراش العجوز الملتصق في عنــاق طويل بالارض ، تحسس جيب صداره الخشن ، واخرج حق البردقــان ونزع السدادة ، وأفرغ في مشفره الاسفــل النثار الداكن وحوصله في الجهة اليسرى بعد ان اطلــق عدة بصقات وهــو يقطع سكون الغرفــة بتململاته فوق الفراش • مستمتعا بمذاق البردقان مد يده وتنــاول قصبة المداعة ، سحب نفسا وأصاخ أذنيه الى قرقرة الماء فيها ، قام وأعاد تثبيت القصبة في عنق المداعة ، وسحب انفاسا جديــدة ولما أطمأن الى نتيجــة الاختبار ، عاد الى مكانه وأبقى مبسم القصبة بين شفتيه ثم ادار رقبتــه الهزيلة مناديا زوجته :

ــ يا عاتكه •• يا عاتكه •• هيا أين ــ البوري ــ
بصوت مشروخ شحبت انغام الانثى فيه :

ــ اني قادمة •• مالك مستعجلا هكذا ؟ هل بلغت روحك الحلقــوم يا منكود الحظ ! استكانت نظراتــه ، وهدأ لاعج الانتظــار في نفسه ، واستحوذ على انتباهه طنين الذباب المتنازع في فوهة اناء العصيدة الفارغ •• تذكر ايام الوجبات الدسمة •• تملكته حاجة الى الضحك •• لم يملك ان يكبحها فانطلق يضحك وهو يغالب نفسه ، واختلط الضحك في حنجرته بنوبات سعال تصاعدت حتى كاد صدره ينفجر •• فيما كانت عاتكه حاملة البوري بيدها وهي تصلح من شأن الجمرات فوقه متجهة اليه ، وبلهجــة فترت من طول الفه :

ــ مالك تضحك ايها العجوز ؟!
وساخــرة :

ــ ترى هل صور لك الجوع ــ المداعة ــ غانية ترقص امامك ؟

التفت وقد احتنق وجهه بلون أصفر بعد أن غالب السعال ، وهدأ انفاسه المتقطعة وهو يحاول اعادة أوضاع جسمه المتهالك الى مقعده •• تمالك نفسه وتطلع في وجه عاتكه مشيحا بوجهه عن الوعاء الفازغ وطنين الذباب المتحلق في جوفه :

ــ احم •• احم •• ماذا تقولين يا عجوز النحس !
ــ ما الذي سرك لتضحك حتى كدت تهلك ؟

تناول قصبة ــ المداعة ــ التي افلتت من يده في نوبة السعال والضحك وبحنق وفتور مشيرا بيده :

ــ ارفعي هذا الاناء الملعون وخذيه بعيدا من هنا •• انه يذكرنـــي ببطني الفارغة •

وهي تنحني لرفع الاناء :
ــ تصدر الاوامر دائما •• أما زال ذلك العسكري قابعا في جوفك !

مقاطعا وهو يسحب انفاسا من قصبة ــ المداعة ــ وينفخ الـــدخان حلقات في فضاء الغرفة :

ــ اسكتي ودعيني اهدىء قليلا جوعي في متعة التدخين ؟!
مصلحة وضع اسمال الخمار فوق رأسها اقتعدت في الارض قبالته :
ــ لكن قل لي •• ايها الديك العتيق •• بالله ما الذي اضحكك ؟!

استرخى ومد رجليه ، واسند رأسه على الجدار خلفه •• سارحـــا بخواطره المتداخلة مع ضباب دخان المداعة •• رفع يده وجعل يحك رأسه ممسكا باليد الاخرى القصبة •• والعروق نافرة في جبينه المتغضن • وكسن امسك بتلابيب ذكريات شاردة ابتسم كاشفا عن اسنان صفراء متآكلـــة وهو يمرر لسانه على شفتيه الجافتين :

ـ ايه يا امرأة لقد خطفتني الخواطر بعيدا .. أيام الدجاج السمين ، والمرق المحوج وفتة البر الناعمة الغارقة في السمن البلدي .. افخاذ الجداء الطرية روائح الطعام الطيب ..

استمر في وصف انواع الطعام التي عرفها او سمع عنها وريقه يتحلب في فمه .. والعروق نافرة في جبينه .. وعيناه معلقتان في سقف الغرفة أسنانه تصطك .. والخلجات تتداخل في اعضائه المرتعشة .. وعاتكه فارغة الفم تنصت بدهشة ووله ، وقد ارتسمت في وجهها علامات .. غابت معه في متعة الحديث ونام في داخلها فضولها .. ونسيت انه توقف . وقبل ان تسرقها الخواطر بعيدا استفاقت ورفعت عينيها صوب زوجها لتجد قصبة المداعة مسترخية فوق صدره وتجاعيد وجهه تشي بالتعب والنوم ..

★ ★ ★

كان العم مسفر من عساكر التنافيذ .. عركته المهنة التي ابتدعتها الامامة وطافت به أرجاء البلاد ، لكن .. غلبه الزمن والمرض في النهاية فعاد الى قريته وأوى الى كوخه الحجري في الجبال البعيدة ، متحسرا على ولائم الدجاج ليؤنس مكرها وحدة زوجته عاتكه بعد ان رحل صالح ابنهما الوحيد الى خارج البلاد منذ سنوات وانقطعت اخباره .

كان يعيش على بعض مكيال من الحبوب يستحلبها الارض الجافة الشحيحة وعلى المعاش البائس الحقير الذي بقي من خدمة أربعين عاما . ولا يملأ حوصلةدجاجة ـ كما اعتاد أن يقول كلما عنّ له أن يشكو شظف العيش الى زوجته وبعض اقرانه في القرية الجبلية شبه الخاوية . غير ان الحال في تلك السنة كان شديد السوء اذ تتابعت مواسم الجفاف وهرب الخير ، وتضاءلت الحبوب ونفقت الحيوانات من شح المرعى وتكاثرت اخبار الاوبئة والمجاعة .. بعد ان ترك الامام الرعية والحبوب للديدان في

المدافن ! وما عاد في الدنيا من معين في شيخوخته هو وعاتكه غير ان يتفكر ويتدبر حلا لحالتهما التعيسة ...

★ ★ ★

استيقظت عاتكه وقامت متثاقلة تجر رجليها .. فتحت الباب والصباح يتثاءب فاترا في القرية الموحشة ، ويوم اخر يطل لينضاف الى اضبارة الزمن العتيقة مكشر بانياب الجوع ، وليس في الكوخ الا بضع حفنات من دقيق حائل اللون ..

لملمت عاتكه انفاسها وهي تجمع عيدان الحطب وتسويها على الموقد وانشغلت باعداد الافطار ، فيما كان العم مسفر قد استيقظ وبقي في فراشه ينازع باصابع يديه اثار النوم في عينيه .. سحب جسده الصغير وسوى رأسه فوق مخدة التبن ، ووضع ساقا فوق ساق والقى يده اليمنى باسترخاء فوق رأسه ، وراح بالاخرى يعبث بمنخريه . كان لا يتخذ لنفسه هذا الوضع وبهذا الترتيب المتناسق لاعضائه الا اذا سيطرت عليه فكرة خطيرة .. وكان الامر خطيرا لا شك ! فمضى الى التفكير بعد ان تطايرت آثار النوم من بين جفنيه وفيما هو مستغرق في افكاره معلقا انظاره الشاردة في سقف الغرفة .. قطع الصوت المشروخ غفوة الهدوء :

ــ هيا أيها الرجل .. انهض من فراشك وقم للافطار فقد كاد النهار ينتصف .. تغافل عن النداء واسترجع التفكير ..

مقبلة نحوه وهي تحمل آنية الطعام .. تنحني لتضعه على الارض .. التفتت عاتكه متفرسة فيه .. اطلقت صوتها من جديد :

ــ ما بالك لا تجيب يا منكود الحظ .. ألا تقوم للافطار ؟. انهض يا رجل فان لي معك حديثا ذا شأن ..

متأملا تماسك على جسمه المكدود ، قام وهو يغمغم حانقا !

ــ اللعنة •• جوع •• وعجوز منحوسة !

ــ اطرح عنك الكسل •• ودع عنك المناقرة ايها الديك العتيق ، وهيا للافطار فاني اكاد اموت من الجوع !

ملتفتا الى آنية الطعام على ارضية الغرفة وبحسرة :

ــ هيه •• ــ مطيط ــ وكسرة ــ جحين ــ •• مأساة كل يوم !

ومتسائلا بحنق •• مضى مغمغما وهو يتناول مغرف الصفيح الى عتبة الباب •• سكب منه الماء وجعل يغسل يديه ووجهه :

ــ مطيط وعصيد •• عصيد ومطيط •• كل يوم •• الى متى ؟!

متنهدا بأسى :

ــ اي عيشة منكودة هذه !!

وبسخرية مريرة :

ما فائدة ان تبقى لي اسنان بين فكي •• ما دام الحال عصيــدا •• مطيطا !

وهي تقتعد للافطار •• وقد فقدت الصبر :

ــ مالك متباطئا هكذا هذا اليوم اقبل سريعا والا التهمت الطعام كله هه •• ها انذا سأكل ••

قدم نحوها وقعد قبالتها وأخذ يشاركها الطعام :

ــ هيه •• قلت ان لك حديثا معي •• تكلمي ماذا في جعبتك ؟

واللقمة ما تزال في فمها :

ــ اردت فقط ان زادنا يكاد ينفد •• وعلينا ان نتدبر حلا لحالنــا التعيس والا •• مقاطعا :

ــ نعم ••• ادري اننا هالكان لا محالة •• ولكن ما العمل ؟

وقبل ان يسمع الجواب ••

ـ وانت لا تتركين لي وقتا للتفكير !

ـ أي وقت هذا الذي تريده ؟

ـ كنت بالامس افكر طيلة الليل بالامس •• وهذا الصباح ••

مقاطعة وبسخرية :

ـ اي تفكير هذا •• تفكر وانت نائم ، ربما في ولائـم الدجاج •• والخبز الدافىء •• وفتة البر الناعمة •• وو

ـ دعينا من الكلام الفارغ •• سنموت جوعا !

نباح كلاب يتردد من بعيد ••

ـ ستنهش جثثنا الكلاب وانت قابعة هنا تلوكين كلاما فارغا !

وهي تمسح باصابعها قاع الاناء وتمصمصها :

ـ حسن ! ـ الام توصلت بعد هذا التفكير ؟

اطرق هنيهة ثم رفع رأسه وعلامات الحزم في جبينه :

ـ لقد قررت امرا ولا بد لي من تنفيذه !

توقفت برهة وقبل أن تسبقه زوجته بالسؤال واصل :

ـ عزمت ان اعود الى عملي !

ـ اي عمل تعني ؟ أتقصد ان تعود للعسكره ؟

واضافت بحنق وفتور :

ـ هيه بعد هذا العمر •• وفي حالتك هذه !

ـ اجل وسأزور هادي وغثيم وناصر لينضموا معي •• وليس غـير هذا طريقا للنجاة من الهلاك •

★ ★ ★

القرى تقشعر جوعا وبردا ، والجفاف هوة سحيقة تبتلع الضحـايا والفقراء يودعون القدر مصيرهم ، والارض العطشى صارت كالقطة تأكل

اولادها الفاجعة طردت حتى الدموع من العيون • واكلت الاحزان القلوب •• ما عاد فرح حتى يعرف حزن •• الزمن طاحونة رعب رهيبة ترعــد بالخوف وتدور بالموت ، حتى الذين اخفوا الحب في مدافنهم واغلقوا في وجوه الجائعين الابواب ولاذوا بدورهم كان الخوف يحاصرهم ويطــرق الموت ابراجهم • الامام وولاته والمتنفذون على الرعية تركوا الديــدان تشبع من الحب المدفــون وباع البعض حفنة بمثقال ذهــب او فضة •• واشترى من قدر واشترى الباقون وما اكثرهم الموت جوعا •!

الجوع يحفر المقابر في بطون الفقراء ويحصد الوباء المواشي والدواجن والافراح ! تصارع الناس على الاعشاب وبقايا اوراق الشجر . الاجساد تذوي والاسنان تصطك على فراغ قاتم •• النور يتآكل في العيون ويحتل الفزع المقيم النظرات بجزع لا يوصف •• انه الجوع والامام والعسكر•!

★ ★ ★

رأسان متقابلان والايدي المعروقة تتشابك والانهماك يعطي الوجهين المنهكين لحظات قبل رحيل العم مسفر • فرشا ملاءة قديمة مهلهلة ، وجمعا بضع قطع هي كل ثياب العم مسفر وحاجياته • اكملا الاعداد السريع • وفي العيون تغفو اثار حسرات وحزن لفراق لا بد منه •

امسك العم مسفر بالملاءة المصورة بيد ، ومد يده الاخرى وتنــاول بندقيته القديمة ، رفعها وجسمه يرتعش ووضعها بالجهد كله على كتفــه وهو يلهث ، تلفت يمنة ويسرة قبل أن يواجه عاتكه التي كانت واقفة يغلف الاسى وجهها العجوز استرجع العم مسفر انفاسه وسحب اقدامه المرتعشة صوب الباب •• التفت نحوها •• لحظات وداع كأنها العمر كله تلاقت فيها نظراتهما قبل الفراق لصقت في اجفانهما برهة •• وطار بها ريح الشتاء القارس •• مضى محدودبا بعدها وهو يحاول رفع هامته بدون جدوى •• وعادت هي لتتكور في كوخها وحيدة كما كانت !

مضى موكب العم مسفر ورفاقه وسط الدروب الجبلية الموحشة في طريقهم الى مركز الحكومة عند العامل .. من اجل مأذونية التنافيذ .. الارجل النحيلة تخبط بنعالها بين الاحجار .. والجو المحروق من الجفاف ينفث وحشة وعطشا ، وفوق الاكتاف تتعلق الزمزميات واكياس صغيرة فيها حبوب مقلية ولقيمات من بقايا ارغفة جافة ــ زاد الطريق الذي كانت تمتد اليه الايدي بين الوقت والاخر لتقضم من بقايا الارغفة ، او تسحق حبوب بينما يمضي الكلام حثيثا غداء متصلا بين الجمع المتحرك .

كان العم مسفر منهكا من المسير ، يتراخى كلما قطعوا شوطـا في الرحلة ويمد يده كثيرا الى الزمزمية يفرغ منها الى جوفه المحترق شيئـا من الماء ، وبين الحين والاخر كان يتهاوى تحت ثقل البندقية والسنين ليأخذ أنفاسه ويوقف الركب عن السير .. كانوا يطيعونه ويستجيبون لحاله .. كان اكبرهم سنا ورتبة .. وكان صاحب الفكرة النيرة !!

★ ★ ★

الطريق طويلة وشاقة .. والعجوز يتدافع باعبائه .. والرحلـة على الاقدام السماء شاحبة والقرى المتناثرة على الطريق تصفر في جنباتها الريح واشباح الموت .. ويتصاعد ــ الزامل ــ من الحناجر العطشى .. يحاول العم مسفر ان يساير الجمع .. ويجف حلقـه .. ويستنجد بالزمزميـة يستحلبها رحيق الحياة .. ويداه ترتعشان وقلبه يخفق ويغلبـه التعـب والارهاق يتهاوى ككومة قش على الطريق .. يشهق ويردد الدعـوات ويده على بندقيته .. تمتـد رجلاه النحيلتان .. وتسترخـي اعضاؤه المكدودة .. والصحب قلقا يتحاق حوله الايادي تتحسس جبينه وتسوى اعضاءه ليستريح ، والاسئلة تتساقط من الافواه العطشى الجوعانة : مـا بك ؟ بماذا تحس ؟ وصوت متماسك بنبرة حماس :

ـ اشتد ايها الرجل •• ما بقي الا القليل يا عم مسفر !

والعجوز متململا يستنشق الانين والاهات يكاد لا يحير جوابـا •• الكلام يثقل في لسانه وعيناه تغور •• تغور اعياء وسط محجريهمـا •• يدير النظرات بين الصحاب •• وغشاوة الانهاك تحجب عنه النظر ، يحرك يمناه ويرفع سبابتها مبتهلا •• ويزداد وجيب قلبه •• ويزداد قلق الصحاب •• وقطـرات دموع تتدحرج فوق وجنتيـه الجافتين تتخلل الغضـون والتجاعيد وتتحسس الايادي جبهته •• ويغمغم الصحب ان الرجل يلتهب بالحمى • يشير العجوز الى الزمزمية •• يسقونه ماء ويبللون ببضع قطرات وجهه •• يهدأ قليلا وتسترخي يداه ، وينحني غثيم يتسمع قلبه ويتحسس صدره ، يرفع عينيه ليجيب على القلق من حوله بفتور :

ـ ما زال قلب العجوز ينبض !

الطريق خاوية والشمس تشارف على المغيب ، وقرية على المدى تلوح فوق جبل قريب تلتمع في قمته قبة •

تقاربت الاعناق ، ورفع الصحب العم مسفر ، وواصلوا المسـير •• والعجوز تذوي أناته الخافتة فوق رؤوس الجماعة •

★ ★ ★

داخل احد الاكواخ في اطراف القرية ، وضع الصحب العم مسفر فوق دكة •• وامرأة عجوز تمسك بيد مرتعشة فانوسا صدئا وتسحب باليـد الاخرى حصيرة متآكلة لتضعها على الارض ، تفصح تجاعيدها وحركاتها عن احساس بكارثة لا مفر من قبولها ! ينشق من أفواه الجمع صوت يطلب ماء وطعاما •• والمرأة العجوز تقلب يديها وتهز رأسها ، وتتمتم بخوف من لا يمتلك حيلة :

ـ لا شيء غير قليل من الماء •

وخرجت لتأتي به •• وتلفت الجميع الى جدار الكوخ ووجه المرأة العجوز الشاحب •• واقتنعوا بالجواب •

العجوز يستيقظ •• جامعا طاقته في أنين مريع يطلب ماء •• مـاء ويسقونه •• ويتحسسونه • ما زالت الحمى تأكل جسمه في أتون غضبها. قبعت صاحبة الكوخ بقرب الباب •• يدها على خدها وعيناها تفـوران بالفضول والخوف •

تلفت احدهم اليها :

ــ هل نجد سليط ترتر وقليلا من الهرد ؟

هزت رأسها وخرجت •• وبعد غيبة قصيرة عادت باناء وجفنة بيدها ثم انصرفت • سوى الجماعة وضع العجوز على الحصيرة المهترئة وعروا نصفه الاعلى •• وجعـل غثيم وهادي يـدهنان صدره ورقبتـه وظهره بالسليط وبمسحوق الهرد الاصفر •• وأنفـاس العجوز تفح بالالـم والانهاك ، وجسمه الهزيل يتقلب بين أيدي هادي وغثيم كدمية جامدة ! أكملا وأعادا الرجل الى مكانه خامدا الا من انفاس خافتة ، وانصرفا مـع ناصر الى الزوادة ليقضما من بقايا الارغفة ــ عشاء لا يشبع ــ ثم شربـا ما بقي من الماء •• وتمدد كل في مكانه وغشيهم نوم عميق !

★ ★ ★

الليـل القاتم الظلام ، والهدوء الميـت يلف القرية فيثـير الوحشة والانقباض اصوات الحشرات تتردد بين الاحجار •• وسلطان الصمـت يطبق شفاهه داخل الكوخ الا من أنين خافت ينقذف بألم من بين فكي العم العجوز كأنه قادم من هوة سحيقة • والاجساد المكدودة يثقلها النوم •• والعجوز لا يملك من امر جسده شيئا •• الحمى تأكله •• والنوم واليقظة يختلطان في رأسه •• وعيناه مطبقتان بلا نوم •• احساس قاتل بالعطش

يفتك بحلقه ، وحنجرته جافة •• يكاد يصرخ بجماع صوته •• يهزمه لسانه الجامد المتخشب بين فكيه ! لكنه عطشان حتى الموت ، والماء أقرب اليه من حبل الوريد •• قواه خائرة •• لا تسعفه اعضاؤه بحركة •• لكنه يحس بارادته تكاد تطير به فوق الجبال وحتى فوق هام السحب ، لكنه عاجز تماما •• مغروس بلا حياة فوق أرض الكوخ •• وها هو يسمع صياح الديوك ! وكوز الماء المبرد قريب •• يسمع هسهسة اللهب في عيدان الحطب ! البسمة ترجع الى شفتيه ، ويعود الريق يتحلب في فمه •• ها هم يسوقون الجدي ، ويحدون السكين لذبحه •• صوت المرأة العجوز يعلو في أذنيه وهي تصرخ في أطفالها ليطاردوا الديك الاحمر فوق السطوح:

ــ عشاء للعسكري يا اولاد !

الصبية الحفاة يتصايحون •• ويتراكضون •• القرية كلها تتبارى لتهيئة الطعام للشاويش مسفر •• الدخان يتصاعد من تنور المنزل •• والكل منهمك • والعم مسفر وحده قابع في صدر الديوان ، يمسك بيد فنجان قهوة القشر ، وباليد الاخرى قصبة المداعة المنصوبة في وسط الديوان •• والدخان يتصاعد ليغمره بفرح طفولي ، وانتظار لذيذ لوجبة الغداء يدغدغ جوفه فيبث الطمأنينة في نفسه ، فيمد ساقا •• ويتأمل في دخان المداعة •• واصوات الصبية تتعالى في الخارج مختلطة بأصوات الديك الاحمر فوق السطوح •• ويتكاثر الهرج •• ويعلو الصراخ •• ويسلب الفضول طمأنينة العم مسفر • يقوم ملسوعا الى النافذة يتبين الامر •• يهبط الديك في نفس اللحظة على أطراف النافذة !! يتطلع الى الصبية أسفل الدار وعيونهم معلقة تتابع الديك • بهدوء يشمر العم مسفر عن ساعده رافعا كم القميص الى أعلى •• الديك المطارد متعلق بطرف الشباك يلهث من التعب •• ويد ملتصقة تدلف بهدوء لتمسك به •• وعيون الصبية •• عيون كثيرة تشخص بلهفة •• وبسمة ماكرة ترتسم فوق شفتي

العجوز •• واليد تمتد لتقارب عنق الديك •• واصوات الصبية تتعالى داوية •• ونقرة في ظاهر اليد الممدودة قوية ومفاجئة كطلقة صائبة ! يصرخ العجوز بكل صوته ••! ويتبدد سكون الكوخ •• وتنفجر الصرخة المدوية في أسماع النائمين •• يستيقظون من هولها فزعين •• يلتفون فجأة حول العجوز •• الايادي كلها مذعورة تتحسسه •• باردا يستلقي ، وشعاع خافت يتسلل شاحبا فوق الوجه الجامد •• وعيناه ثابتتان على فزع عظيم •• تسابقت الايدي المذعورة لتطبقهما •• ثم تصاعدت من صدور الثلاثة زفرات حسرى !

★ ★ ★

في الصباح الباكر أسرع صحبة العم مسفر بالخروج بحثا عن المرأة العجوز •• تلاقوا بها قادمة اليهم لترى ما سيكون عليه الحال • أبلغوها بما كان •• أطلقت نهدة محايدة ولم تظهر اغتباطها بانقشاع الغمة عنها •• وهي تتشاغل باصلاح الخمار الاسود فوق رأسها ! أشارت عليهم ان يحملوا الجثة الى مسجد القرية فوق الجبل عند مقام الولي حيث سيتولى سدنته تجهيزه للدفن •

عاد الثلاثة الى الكوخ •• تتناثر من افواههم الادعية والابتهالات •• تحلقوا حول الجثة وغطوها بالملاءة القديمة بعد أن أفرغوا ما فيها •• وانحنوا حاملين الجثة داخل الحصيرة المهترئة •

ومضى الموكب بطيئا صاعدا نحو الجبل •• الرؤوس منكسة والابتهالات تتردد في الافواه •• وبقرب المسجد التقوا بشيخ مسن يدير مسبحة في يده ويتمتم بالادعية •• استوقفوه فالتفت اليهم وأدار عينيه متسائلا •• فقدموا الجواب • اشار ان يتجهوا الى مقام الولي القريب وانه سيلحقهم عن قريب ثم دلف الى المسجد •

عاد الشيخ ليلحقهم بعد قليل •• وقف معهم بعض الوقت وعرف منهم الحال وباقتضاب طلب منهم ان يتبعوه بالجثة •• تجاوزوا بها بابا خشبيا متهاويا الى ساحة صغيرة ارضيتها صفاء صخري •• ومنها الى المغسل حيث وضعوا الجثة فوق فرشة من الواح الخشب وخرجوا الى الساحة •

كان المغسل مكانا صغيرا سقفه السماء •• أرضيته امتداد للساحة الصغيرة •• في جانب منه حوض للماء يرتفع مترا عن الارض •• وبقرب الحوض فرشة من الواح خشبية حائلة اللون •• ملساء حيث وضع جثمان العم مسفر عليها •• وفي نهاية الفرشة فتحة في الجدار تآكلت حوافها واتسعت مع الاستخدام والزمن • يتسرب منها الماء المستخدم الى الخارج على حافة المرتفع الذي يقع فيه مقام الولي والمغسل •• ليصب في هاوية تحته !

خلع السادن جبته المرقوعة وعمامته بهدوء وشمر أكمام قميصه •• تلفت حوله ليطمئن الى وجود المغرف على حافة الحوض • ومن شق صغير في جدار المغسل أخرج لفة قماش قذرة وفردها وتناول من داخلها قطعة سوداء ــ الصابون ــ وضعها على التخشيبة ثم جلس على الارض فخلص الجثة من ملابسها وبدأ يغسل متمتما بالادعية •

الجثة الصغيرة •• النحيلة •• المدهونة بالسليط والهرد •• تتقلب بين يدي السادن والماء ينسكب من المغرف على التوالي •• ويمد الرجل يده بالصابون •• وتتقلب الجثة الصغيرة على الخشبة الملساء •• ويختلط الصابون بالسليط بالهرد •• فوق يدي السادن وعلى البشرة الصفراء الباردة •• والحركة متصلة • وبينا ترتفع يد السادن بالمغرف الى حوض الماء •• وتمسك اليد الاخرى بالجثة •• تنزلق رجل السادن •• ويسقط المغرف من يده •• وتنفلت الجثة من اليد الاخرى وتنزلق نحو الفتحة •• وفي لحظات لا تصدق تغيب من الفتحة •• ويستوي السادن من سقطته

•• ويلتفت على الفجيعة •• وتسقط من يده كل حيلة ويخفق قلبه شديدا هلعا من هول ما حدث وما ينتظره ! ماذا يقـول ؟ كيف يتخلص مـن الورطة ؟

وكمـا حدثت الكارثة في لمحة تسارعـت خاطرة الـى ذهن السادن المرعوب •• شد خيوط حنجرته ورفع عقيرتـه بالتهليل والتكبير ورأسه الى السماء ويداه مطوحتان الى أعلى وجسمه كله يرتعش •! وفـوجيء الجمع المنتظر في الساحة بالصرخات المدوية المتصلة •• واقتربوا الى المدخل •• والصوت يتعالى بالحوقلة ويرتفع بالصياح الى أمنة السماء ! غلبهـم الفضول فدفعوا الباب ودخلوا •• لم يعرهم الشيخ انتباها واستمر غارقا في صراخه يبتهل بكـل الادعية ويد على أذنـه والاخرى الى السماء •• وجسمه يرتعش •• وصاح به الجمع المأخوذ مستفسرا ! وهم يقلبون النظر بينه وبين المغسل •• ملابس الميت مكومة •• ولا اثر للجثة وبين اختلاط الرعب والفضول امسكوا بالسادن •• وصرخ به الثلاثة بجماع أصواتهم:

ـ يا الشيخ ما الذي حدث ؟

تراجع السادن مذعورا •• مذهولا •• مصفر الوجـه •• والرعشة تسري في جسمه وتهزه كشجرة في مهب الرياح •• وعيناه جاحظتان •• ويداه الى السماء تشيران •• غمغم بكلمات متقطعة •• ولسانه يتلعثم بين فكيـه :

ـ لقد خطفت •• الجثة •• من بين يدي •• كان الامر •• عجيبـا لا يصدق •• ولكنه •• حدث •• عرج بالرجل الى السماء •• سبحان اللـه •• ارسل المولى ملائكته ، اخذوه في لمح البصر من بين يدي !! انشق دوي كالرعد اصم اذني ولمع بارق •• خطف النور من عيني •• وفي غمضة عين طارت الجثة الى السماء •• لا حول • ولا قوة الا بالله ••!

وعاد السادن صرخ بالدعاء •• ساهيا عن الجمع •• وجهه الى السماء •• ويده فوق أذنه •• والاخرى الى الفضاء •• وجسمه يهتز كشجرة في مهب الرياح •

تهامس الرفاق الثلاثة •• عيونهم معلقة بالفضاء •• والحادثة المهولـة تبعثر مشاعرهم •• انسحبوا بهدوء خارجين •• وتصاعدت مـن افواههم تمتمات تلوذ بالسماء :

ــ اللهم اختم لنا بخاتمة عمنا مسفر !

وراء جسر الذكريات (1)

بقلم حسين سالم باصديق

ــ كنا نسميها حارة العجائز .. كانت فظيعة .
قال احدهم وهو يتفرس مستغربا في وجه صاحبه :
ــ وعلى العكس ما كان فيها ولا عجوزة .
ــ صحيح ذي فيها شباب جهنمي .. رجال « صناصم » .

ــ كان كل شباب المدينة فيها .. اذكر مقهى السكران وكانت زاخرة ونحن جالسين هنا في هذا الركن .

ذكريات طافت بهم قليلا في الماضي . شيء لا يذكر اثار فيهم تلك الذكريات . في مقهى السكران عدد هائل من الرواد . كانت ثاني مقهى في المدينة تزدان بالحركة وتزدخر بالرواد . ناقلو الشاي يعبثون بالفناجين ملآنة وهي في ايديهم .. خبرة سنين طويلة في هذا العمل جعلتهم يشبهون الحواة الى حد بعيد . الصخب شديد في هذا المقهى فالشيوخ الذين يلعبون فيها الورق يدقون الامياز بتحد .. ويصبح المنتصر فرحا بانتصاره .. ويزيد التحدي . ساعات طويلة تنقضي بين الورق والدمنة وفناجين الشاي.

---

(1) نشرت بصحيفة الحكمة (اكتوبر سنة ١٩٧٦) .

في المساء تفرغ المقهى قليلا ويسمع صداها في الازقة والشوارع عند ما تتصارع « العصي » بين العاطلين من رواد المقهى ..

عندما كانت تسمع قرقعات العصي من بعيد .. تدوي صرخات الصغار والنساء .. وبعد برهة خاطفة يصفو الشارع . يهرع الرجال الاشداء على صدى القرقعات والصرخات . لم تصنع بعد صفارات الانذار ولم تعرف القوانين انذاك حالات الطوارىء . الشرطة نائمة ولعن الله من ايقظها . يركع الرجال الاشداء امام الضحية التي تصرخ وتئن من شدة وقع الضربات .

ــ ماذا جرى .. من انت يا هذا .. هاتوا سواعدكم يا رجال .. احملوه . المستشفى ..

ــ لا .. لا .. اعطوني ماء وكفى .. ليس بي شيء .. اعرف غريمي ..

ــ ولكن لا بد من تبليغ الشرطة .. المستشفى .. خذوه .. اسرعوا .

ــ لا اريد .. لا تقتربوا مني .. اعطوني ماء فقط .

★ ★ ★

يذكر هؤلاء الاصحاب انهم كانوا يجلسون بعيدا قليلا عن المقهى . كانوا نخبة مثقفة لا يعجبهم الاختلاط بأولئك الذين لا انضباط لهم ولا عمل « عيال سوق » .. فيتجنبون شرهم وبلواهم وعصيهم في الامسيات الخالية من الناس . يعرضون امامهم صورا ورسومات وهم مشغولون في مواضيعهم التي يطرقونها . تعجبك تعليقاتهم على كل المارة .. ولا يسلم احد من لهج السنتهم سواء بالشر او بالحسنى . امتزجت مواضيعهم بالنكات الحادة والمضحكة .. وكانت نكاتهم احيانا ترتفع عن صخب

اصحاب المقهى ، فتعتقد ان ذلك الصخب كان امتدادا لساحة المقهى الكبير .

قال احدهم وهو يفرك جبينه :

ــ اذكر صاحبنا ذا يا جماعة .. كان صغيرا .. كان يمشي واخوانه من قدامنا وهو لابس واخوانه ثياب العقال .. قميص .. فوطة ..

ــ لهذا كنا نسميه الشيخ علي .. الشيخ علي الصغير .. اتذكرون .

ــ ايوه ... والله صحيح ... ذكرتنا ... بس يا أخي كان قردا .

ــ كان شيطانا .. وهكذا كل صغير شيطان .

ــ لا بأس .. اذا عرفته بعد هذا نعوذ بالله .. كان ممكنا ان يكـون مجرما .. كان « روفل صغير » .

ــ الدنيا دائما تتغير يا صاحبي .. بس نحنا عادنا ما تغيرناش .

في لحظة استراحة قصيرة جلس اولئك الاصحـاب يرودون دروب الماضي رأوا اليوم شبابا حولتهم معاول الثورة عن المجرى الـذي كانـوا يتهاوون فيه . رحم الله الحاج عبد الحميد .. كان سريعا في لعبة الورق وذكيا بشكل خاص في لعبة « البيعشرة » . لا يمكن ان يغلبه احـد حتى اطلقوا عليه مرارا انه ذكي وناجح في البيع والشراء بالورق ولكنه لم يكن عمليا . واذا انتهى من اللعب مع حلول الظلام نسف الشباب بكلمتين قبل ان ينصرف .. شباب مائع .. فوشة .. « حيديني شاطاول » .. يضيعون أوقاتهم سدى في التمشيات وتدخين السجائر ومضغ « التمبل » .. الله اعلم كيف سيكون مستقبل هؤلاء .

حتى اولاده انكرهم هو بنفسه .. كانوا ستة رباهم على خلقه .. لم يختلفوا وهم صغار عن خلق ابيهم وطباعه وسلوكه . ويلبسون القمصان الطويلة ويترددون على المساجد خلف ابيهم الحاج عبد الحميد .. ولما كبروا قليلا الفوا الخروج لانفسهم . انكر عليهم ابوهم سلوكهم هذا .

كان مرتاحا منهم •• لم يسلكوا مسلك الشباب الطائش في عهده •• وكان مسرورا ان ولده البكر يسمونه في الحارة الشيخ علي الصغير • كان يفخر لذلك ولكنه كان يأبى عليهم تلك الانعزالية الجامحة التي سببتها لهم طريقة تربيته وتزمته الشديد لهم داخل البيت •• يا اولادي احذروا المسالك التي تضركم •• سيروا في الطرقات باحترام •• وانت يا علي كبيرهم ، فراقب اخوانك وقد تركت عليكم كلكم مراقبين يبلغونني عنـــكم •• فاحذروا العواقب مني •

على تلك الطريقة من التربية ساروا • ولا زال علي يتذكر ما كان عليه ان يعمله عندما توفي والده الحاج عبد الحميد • قامت أمه بكل الواجبات وضاع الاولاد في طيات الكبت والحرمان كما ضاع الاهل والاقارب من بيت الحاج عبد الحميد • مرت الاعوام والشباب لا زال في نظر الكبـــار كما كان يراهم الحاج عبد الحميد وتلبدت السماء بالغيوم الكثيفة وصعقت الرعود من كل ناحية ونزل المطر وانهمرت السيول وجرفت كل الحواجز التي امامها •• وكان يوما مشهودا في تاريخ البلاد •• وتغير مجرى ذلـــك التاريخ •

قرع الجرس وفرغت كل الكراسي والاركان من اصحابها الذين كانوا قابعين فيها اثناء الاستراحة • امتلأت ساحة المعسكر •• وفي لحظة قصيرة خيم الصمت على الساحة وطغى فيها صوت البنادق يفكها جنود المليشيا الشعبية ويفرشونها امامهم قطعة قطعة • لمح علي من ركن الصف حركات صامتة من احد جنود المليشيا الشعبية • بقي من موعد التفتيش العام نحو خمس دقائق •• لم لا يستعد هذا من قبل •؟ لم ينته بعد من فك بندقيته، فاما وصل متأخرا ودخل الصف دون ان يعلم به قائد الكتيبة او لعله عسر عليه فك جزء يسير في البندقية • الاشارة النهائية لم تطلق بعد ليصمد كل الجنود ويقفوا صفا واحدا استعدادا للتفتيش والمراقبة • اسرع علي نحو الشخص المتباطيء دون ان يلتفت اليه احد من الاخرين فالكـــل عـــلى

استعداد كامل • وصل اليه فرآه في معركة حاسمة مع زند البندقية •• عسر عليه فكه بحرص •

ــ اصبر اصبر يا اخـي • هذه مش طريقة صحيحة •• والوقـت منصرف •

ــ أنا خالص •• انتهيت •• ما بقي الا هذا الملعون •

ــ بسيط •• بس انت كنت مربوش •• كأنك جئت متأخر يا عبيد•

ــ لا والله •• بس والله يلعن الشيطان •• لا قد الواحد ارتبش ارتبش •

ــ طيب لاحظ •• بس الواحد موش لازم يكون مربوش لان هذه مسائل مهمة •

استعرض علي أمام عبيد فك الزنـد بصورة هادئة وسريعة • انتهى الامر • وضع عبيد بندقيتـه المفكوكة على الارض وانصرف علي بدون ملاحظة قاسية • قال أحد الاصحاب المصطفين وهو جامد في وقفته :

ــ والله يا عبيد حصلت لك قائد ممتاز والا كنت اليوم تستحـق العقاب •

ــ يا أخي مسألة بسيطـة •• والتسامـح ضروري وشرط أساسي لتحمل المسؤولية •

ــ الوقت يمضي سريعا • لا بد من الانتهاء من التدريب في حينه • التربيـة العسكرية أشد من غيرهـا ولكنها ليست مفزعـة الى حد ما • فالمسؤول انسان ولا بد من مراعاة حق الانسان •• وان كان الانسان لا يعرف شيئا فلا بد أن يتعلم ويتدرب لكي يعـرف •• ويعرف الكثير • تلك التقاليد التي أرهقت الماضي بكواهـل ثقيلة قد جرفتها السيـول بعيدا •• بعيدا •• بعيدا ••

آثر صوت قوي حاد أصدره علي من الركن البعيد للصف العسكري ارتجت الارض تحت أقدام الجنود المصطفين بشدة وبأس كبيرين . دار القادة حول صفوف الكتيبة يرافقهم علي قائد الكتيبة . عندما انتهوا ارتعشت سيقان الجنود فانفرجت أقدامهم عن استراحة قصيرة تحرر خلالها الجنود للفتات والحركات .. بعد انتهاء الاستعراض أبدى القائد الكبير ارتياحه من استعداد الكتيبة كاملا وتهيئتها في التدريب العسكري والراحة النفسية لدى كل أعضاء الكتيبة . انصرف القادة .. وتفرق الجند بعد أن لموا شعثهم وأدواتهم وقال لهم علي :

ــ الآن يا اخوان الى الصفوف . في نهاية هذا الاسبوع ستتم الامتحانات في مكافحة الامية وبعدها ستوزع الجوائز والشهادات .

ــ جوائز وشهادات .. والله اني أشتهيها .. سجلني يا علي . سجل .

ــ هذا لا يتطلب تسجيلا .. هذا يتطلب اجتهادا داخل الصفوف.. ياالله الى الصفوف .

فتحت في المعسكر صفوف لمحو الامية الابجدية والسياسية . تناوب المسؤولون حصص التدريس فيها وتنافست الكتائب في تحقيق أكثر النتائج الايجابية . ألقيت العديد من المحاضرات السياسية لغسل أذهان أولئك الشباب الذين كاد الماضي يثقلهم بحواجزه التي جرفتها تلك السيول التاريخية بعيدا .. بعيدا .. بعيدا ..

الكتيبة التي يرأسها علي مر عليها أكثر من عام وهي تدرس ساعتين كاملتين يوميا في صفوف محو الامية . برز الكثيرون في هذه الدروس الخاصة التي تقام في معسكر الميليشيا يوميا . أصبح كل واحد يطمح ان تكون له جائزة ولو كانت بسيطة . بالامس كان علي قائدهم أميا فتعلّم

باجتهاد خاص وقفز بترقياته المستمرة الى قائد كتيبة . وعلي شجاع مقدام لا يألو جهدا في العمل المتواصل . ويخلص لعمله ويتفانى ويجد زملاءه فيه صديقا حميما مسؤولا كبيرا لا يعرف أحوالهم . كثيرا ما لجأوا لعلي في أزمات سهّل لهم حلها سواء بنفسه او مع المسؤولين في القيادة الوطنية للميليشيا الشعبية . قال أحدهم وهو يطنب في ذكر علي :

ــ هذا ما يحتاج يتحرك من هذه الكتيبة .. لازم يكون معنا دائما يساعدنا .

ــ قد هو مابا يتحرك .. هو يساعدنا ونحن نساعده.. نحن نتعاون معه في العمل الجاد .

ــ هذا واجب على الكل يا رفاق .. ومن أثبت جدارة يثبتها بطموحاته وحده .

ــ لا .. هذا رأي خاطيء يا صاحبي.. صحيح انه يثبتها بطموحاته .. بس مش وحده .. ذي الطموحات مرتبطة بالجماعة كلها ، ولو مش هذا الارتباط الوثيق ما نجح في اثباتها .

ــ صحيح ، لكن اذا كان علي تفوق خليه يمشي الى الامام .. نوقفه عندنا ليش .

ــ هو مرتبط بنا .. ونحن جماعته .

ــ بس .. يا أخي اذا تحول برع .. هو ذكي .. بايرتبط بجماعة ثانية .. ونحن علينا أن نواصل خطه .. نقتدي بأعماله الناجحة .

كان الاسبوع النهائي لصفوف محو الامية في المعسكر يزخر بمختلف النشاطات والحركات المتواصلة . الوقت المحدد ساعتان ولكن الدارسين يضاعفونها من أوقاتهم الخاصة . حركة دائبة .. مبادرات مشجعة ومثمرة .. ترديد للكلمات التي يتعلمونها داخل الصفوف .. الجدران

واللوائح المنتشرة في المعسكر امتلأت بكتابات الطباشير • مر أحدهم ذات يوم من أيام الاسبوع وشاهد أحد الجنود وهو في نوبة الحراسة النهارية •• رآه يحرك سبابته ويرسم على الارض بيمناه وبندقيته مثبتة في يسراه •• فاحتار لما يعمله صاحبه لعله حصل على شيء في التراب ولا يعلم به أحد •• أو لعله يبحث عن شيء في نفس المكان •

وصل الى الجندي الحارس فرآه منسجما في الاستمرار في رسمه على الارض انتبه اليه الجندي وقد لمحه من بعيد •• الا انه تغاضى عنه• اقترب الآخر من الجندي الحارس وقال له :

ــ أي شيء هذا الذي تفعله •• أتبحث عن شيء أم أضعت شيئا هنا•
ــ أبحث عن شيء •• هنا •• في وقفتي هذه •
ــ يا سلام •• أنت في حراسة يا رفيق •
ــ لا تمنعني عن البحث عما أريد •
ــ وعن ماذا تريد أن تبحث •• ما هي ضالتك يا رفيق •
ــ أبحث عن كلمة •• أراجع •• نسيت ورقتي وأنا في الحراسة •• أكتب على الارض حتى لا تطير مني فأنساها •• كلمات تعلمتها فأراجعها•

انتهى الاسبوع الزاخر بالعمل العسكري والنشاط التعليمي • تأهب الكل في الكتيبة لاعداد يوم الحفل الكبير • ازدان المعسكر ذاك اليوم بالاعلام والانوار •• وصدحت الموسيقى في كل أرجاء المعسكر • علم كل أعضاء الكتيبة ان الادارة المسؤولة عن صفوف محو الامية في المعسكر انتهت من تصحيح أوراق الامتحان • في يوم الحفل الكبير تزين الجنود ببدلاتهم العسكرية الزاهية وحملوا بنادقهم على أكتافهم استعدوا للاستعراض الصباحي •• وفي المساء، سيقيمون حفلا ساهرا كبيرا ينسون خلاله همومهم التي صدعتهم الاسبوعين الماضيين •

حنانيك أيهذا المثل الاعلى •• طموحات الانسان لا تقف عند حد •

أصبح الانسان يسوؤه أن يرى نفسه خلف المسيرة .. وأولئك الذين وقفوا في نهاية الطريق أسعدهم أن مسيرة الشباب تهز الارض ترجف السمع . سارت طوابير الميليشيا في الشوارع تبشر بيوم الحفل الكبير وتعد النفوس المتعطشة للسير قدما نحو حماية الوطن وخدمة الثورة والدفاع عنهما . صاح أحد المتفرجين متحمسا :

ـ مش معقول .. ذول كانوا فين .. متى تدربوا .

لكزه جار له كان واقفا الى جانبه :

ـ أنت اللي فين يا أخي .. ما تسمعش حاجه .. فين تعيش اليوم.. هه .. متخلف .

ـ والله مدهش .. متى تعلموا .. هذول كلهم أعرفهم .. علي ، وصالح ، وعبده .. كلهم عيال حافتنا هنا وهناك .

ـ النشاط يا أخي .. النية .. ليش ما تواصل أنت معاهم .

ـ كيف .. دول اللي أعرفهم كانوا .. هه كانوا ما ينفعوش ..

ـ وذلحين .. فينهم .. باين عليك أنت الآن ماتنفعش .. صحيح مغفلين .

دقت الساعة العاشرة صباحا وعادت الطوابير الى مقرها في المعسكر. دقت الاجراس في كل أرجاء المعسكر . اصطف الجنود من جديد . أزفت الساعة العاشرة والنصف ودخل القادة ومن بينهم القائد الاول ، وأعلنت نتائج النشاطات وأولها نتائج محو الامية . برز الجميع في محو الامية ووقف علي في صف القادة يسجل خواطر عامة في مفكرته . أعلن القائد الاول وهو يلقي خطابه ضرورة استحداث بعض التعديلات في الكتائب . قرأ أحدهم الاعلان وارتفعت التصفيقات تعلو في أجواء المعسكر . وكان هناك وجوم ساد بعد التصفيق مباشرة . قال أحدهم مختارا :

ـ ايش .. علي عبده صبره يحول .. كيف .. الى فين .

ـ اص •• يحول الى مركز القيادة الوطنيـة للميليشيا الشعبية •• هذا فخر كبير •
ـ هو طيب معنا يا أخي •• كان عظيما •
ـ لا بأس •• لكن لا بد من أن يتقـدم ويتطور •• وهذه ثمـرة جهده في العمل •
لم يكن أمام علي عبده صبره الا ان يفخر بالتحويل أمام زملائـه • انفض الاستعراض العسكري واستراحت المجموعة قبيل اقامة الاحتفال المسائي • حول المنضدة جلس الصحاب وتذكروا الماضي البعيد •
ـ علي عبده صبره يا أخينا يستحق كل ثناء وترقية •
ـ ها ها ها •• يا سلام •• كيف واصل هذا الرجـل •• كان الى قريب جاهلا •• كان ما يعرفش يقرأ ويكتب •• وكان شيطانا •
ـ شوف من كان يتصور بايتحول الى هذا الشخص •• كنا نسميه الشيخ علي الصغير •
ـ الناس كلهم تحولوا ••• ما في الا سيادتـك ماتحولتش •• لا زلت تحبو •
ـ وأنت •• ما شاء الله عليك •• أنا في الطريق •
ـ فين في الطريق •• الطريق طويلة يا رفيق •
ـ لا •• مش معقول •• ذا اليأس كان زمان •• لازم تتغير •
وكان علي عبده صبره مثال الاحتـرام والتقدير الكبير في الحفـل المسائي • تفرق الجميع في كل مكان •• الكل يسألون :
ـ من يخلف القائد المحبوب علي عبده صبره •

انتهـت

السفينة العرجاء

بقلم
محمد صالح حيدره (١)

سمعت نبض القلب الحزين ، يضطرب بعنف ، ورأيت دقاته تحـرك الجبـال كالزلازل • وكانت تتفاوت دقاتـه بين المد والجزر ، تارة قوية متصاعدة وأخرى خافتـة يغلب عليها طابع الرتابة ، وتهدد بالمـوت • وسمعت أضراس الفقراء ، تقضم العيش الناشف بعنف •

كان العقل ، يتشابك بالقلب المحزون ، فيضطرب تفكيره ، فيتمـدد تارة كالحديد القابع بين سعير النار ، وأخرى ينكمش كالقماش الغير جيد حين يتعرض للغسيل • وفوق هذا وذاك ، يهدد بالتبلد ، وتموت الكثير من خلاياه ، وتنمو بعض الخلايا الناشئة •

---

(١) ولد في ٢٠ ــ ٦ ــ ١٩٥٢ بالمديرية الوسطى ــ المحافظة الثالثة ــ جنوب اليمن . ومن ابوين يمنيين ، نال الابتدائية والاعدادية والثانوية العامة من عدن . وهو الآن طالب بكلية الاعلام ــ جامعة القاهرة . عمل فيها سفره الى مصر محررا ثم سكرتيرا لتحرير مجلة « الحارس » بعدن . نشر سنة ١٩٧٤ مجموعته الاولى بعنوان « هائمة من اليمن » ، ينشر في كثير من المجلات والصحف اليمنية مثل : الحكمة ، اليمن الجديد ، الكلمة ، الثقافة الجديدة ، ١٤ اكتوبر ، الجندي .
اما قصته « السفينة العرجاء » فقد نشرت في « اليمن الجديد » (فبراير ١٩٧٦) .

رأيت الناس يحملون موتاهـم ، فكانت الجنـازات تتفاوت بعضها يتبعها مئات أو عشرات المشيعين ، وبعضها الآخر ، يتبعها أفراد فقط •

وقلت لنفسي : لماذا يميزون بين موتاهـم ، أليست النتيجة واحـدة والحفرة التي سيدفن فيها كل الصنفين تشابه الاخرى •

سمعت عظام الناس تتفرقع ، بين مخالب الفقر ، وكان المشهد المؤلم الذي يتكرر أمامي بانتظـام ، يأبى أن يتركني • أناس يسيرون منحني الهندام ، تتقوس أجسادهم ، ذات العظام البارزة ، وأناس تتراكم فوق أجسادهم ، كتل ضخمة من اللحم والشحم ••• وجوه شاحبة ، صفراء، تتوسطها دهاليز ، عيونهم المخيفة ، ووجوه منتفخة، تكاد لشدة انتفاخها، تخفي عيونهم بين كتل من اللحم ، وتعرقل النطق لهذا السبب :

قلت لنفسي دون أن يسمعني أحد : هذا منظـر رهيب حقا ، رؤيته بانتظام مثار قلق وتعاسة ، كما انه يعبد طريق النهاية المضطربة •

اذن الهروب ، النفاذ بالجلدة ، لكن لماذا الهروب ، انه قمة الحقارة •

اذن الدعوة ••• وبدا لي عهد الدعوات ، غائرا في أعماق التاريخ •

وقبل أن أضيع في دائرة ، ما أراه ، وما أسمعه ، جاءني لاهثا ، وبعد أن استعاد أنفاسه لاحظني أعوم في بحر من التأملات ، فبادرته قبل أن يستقر تفكيره على خداعي وتمويهي :

ــ ماذا عملتم ؟•

كانت خيبة الامل ، وتعب الدوران في الحلقة المفرغة ، ترتسمان على وجهه فلم يجبني ، وأخذت أرقبه بحذر لا يخلو من بعض السخرية •

الكثيرون يحاولون ، التمعن ، وتجاهل الاسئلة ، كشكل من أشكال الهيبة على ما يعتقدون ، لكنني حين أمطرته ، بنظراتي القوية ، أفلت من بين يديه تمسكه بسلوك الكبار الذي يقلده ، ولكن امعانا في السطحية أخذ يكرر بارتباك واضح :

ـ ماذا قلت ، ماذا ؟.

عرفت ما كان يدور في نفسه ، من كبريـاء واهية ، وغرور معتـوه فتجاهلته .

ـ كنت تتكلم منذ قليل .

ـ لم أقل شيئا .

ـ لا أعتقد ان سمعي يخونني الى هذا الحد .

ـ أنت تتخيل عوالم ، لا وجود لها في الواقع ، وهذا من دوافـع الخوف .

أخذ يتملقني تارة ، ويحلفني أخرى ، راجيا أن أكرر ما قلته . أدركت ان صنفه يهتم بكل كلمة يقولها من يقابله ، حين يسيطر الغموض على كل شيء ، ويكون تركيب وبناء المبررات بمثابة الغاية العليا ولكي لا أمعن في أستفزازه واذلاله قلت :

ـ قلت ماذا عملتم ؟

ـ طبعا لم نعمل شيئا .

كانت دهشتي ، تتسم ببعض الانزعاج ، مما أفجعه فأسرع .

ـ ممكن تحدد لي ، النتائج المتوقعة .

ـ أعتقد انك تفهم عمومياتها .

ـ أنا أحس بتوقعات سيئة ، لكنني لا أعرف كنهها .

ـ حين يكتب الانسان ، يحبك العمل الفني ، وقد يغرقه في الرمـز المفهوم الذي يمكن لكل قارىء أن يفسره كما يحلو له .

ـ ماذا تقصد بالتحديد ؟.

ـ مجرد وجه شبه ، قصدي ، انه في الاصول المعروفة ، لا يصـح استجواب الكاتب عن معاني رموزه ، الا اذا كان هو مقتنعا بذلك ، ونحن الآن أمام مأزق خطر ، لا يصح أن أعمم توقعاتي في هذه الحالـة ، اللغز

قائم والحلول أو التوقعات تتباين ، وكل يقتنع بالحل الذي يراه صحيحا .
ـ حاول أن تتخلص ، مرة واحدة من قسوتك .

ـ يوم بزغت على وجه الوجود ، كنت طيبا ، ساذجا ، لكن العصر معقد يا سيدي ، العالم علّمنا ان الثقة أصبحت ، كلمة قديمة في متحف تاريخي .

ـ حسنا ما العمل ... يجب أن نسرع فالموقف يتفاقم .
ـ ما رأيك بالدعوة ؟.
ـ أوافق على كل شيء ، له علاقة بتثليج الموقف .
ـ ولكنها أسلوب ، انتهى عهده .
ـ لا بأس من تنميقها ، ربطها بالشخصية الطموحة ، أو ما شابه ذلك .
ـ هذه خيانة مفضوحة ، لا أرضاها .
ـ حسنا ، سنغلفها بشكل جيد .
شعرت ، انه بدأ يشكل عبئا ثقيلا على نفسي ، فصددته بحزم قاطعا :
ـ لو تكرمت اتركني .
ـ الموقف في غاية الخطورة .
ـ من زرع الشوك ، يحصد ثماره .

ـ ٢ ـ

كنت قد دسست رأسي تحت البطانية ، وأحكمت ربط الحبال الواقية ، وكانت التقلبات أشبه بالمرجاحة ، أعادتني الى الوراء حين كنت طفلا ، ومسحت آثار الدهر الملعون ، التي تركها على عقلي كالوشم .

فنمت نومة عميقة ، ولم أعد أبالي بالموقف الخطر ، وصحوت مبكرا ، فوجدت البحر هادئا ، والسفينة تسير ببطء شديد ، تفحصت الاسرة

المعلقة بجدران السفينة الداخلية ، فكانت فارغة . ذهلت في البداية لكن حين نظرت من النافذة الى الخارج ، رأيت الشمس تتوهج في كبد السماء وترسل أشعتها الفضية ، فتتلألأ على وجــه البحر الهادىء ، فأدركت ان هذا وقت الظهيرة ، لكن لماذا استغرقني النوم الى هذا الوقت ؟.

ما أروع هذه الساعات ، التي يغسل فيها الانسان نفسه من أوساخ العصر ، ويعيش طفولته ببراءتها ، ودعتهــا ... وتساءلت ، لماذا تنتزع الطفولة من الانسان في وقت مبكر من عمــره ... آه لو يبقى الانسان طفلا طوال عمره ، لما تعرضت البشرية لكل الكوارث والمصائب .

أخذت أفكر لماذا يعبر بعض الناس ، الى ما بعد ، الثمانينات مثلا . هل تظل الطفولة تسحب نفسها عليهم . فيظلــون أطفالا ، يقابلون هذا العصر المعقد ببراءة الاطفال ... وصلت الى طريق صحراوي لا اتجاهات واضحة فيه فأكتفيت بتنهيدة طويلة :

ـــ آه يا طفولتي !.

صعدت الى السطح ، بنشاط غير عادي ، فما الداعي المهم ، والخوف ، اذا كان البحر ينعمنا بهذا الهــدوء ، لكن جانب البحر لا يؤمن دائما ، لهذا السبب ، كنت أرى انهم يعون هذه الحقيقة وانهم يبحثون الخطوات المقبلة لمواجهة تقلبات الطقس ، كتقوية الشراع مثلا ، او العودة من حيث أتينــا .

رأيتهم ، وأنا أصعد آخر درجــة من السلــم ، في حلقــات كبيرة ، تتوسطهم مجموعة طاولات صغيرة ، وعليها عشرات الكؤوس . نادوني بأصوات مضطربة متلهفة ، كل يقدم لي كأسه ، رأيت في الجانب الآخر ، كأسا مهجــورة ، مملوءة باللبن ، فحاولت ايناسه ، وانتشلته من العزلة وأخذت أتذوقه بشوق عظيم .

رأيت الرؤوس تتدحرج ، ذات اليمين ، وذات اليسار ، والنشوة تطفو على كل شيء ، والخوف من المجهول ، يذوب في بطن الكؤوس • فباغتهم بالسؤال :

ـ الى أين نسير أيها السادة ؟•

عادت الرؤوس الى وضعها الطبيعي ، واختفت العيـون النشوانه ، تتلألأ كعقد ذهبي ، على نهد فتاة في وهج نهـار قائظ • وطال الصمت والعيون مشمهرة • شعرت بغثيان مفاجيء ، فهرعت الى مقدمة السفينة ، حيث يقعد القبطان أمام البوصلة ، يرصد الطريق ، وينظر عبر التلسكوب النافذ الى أعماق البحر • وقفت أمامـه كالصنم ، والذهـول يشل كل جسدي ، أخذ يدقق النظر في تقاطيع وجهي ، فتحول تدريجيا الى صنم مثلي ، تحرك بعد حين وانفرجت شفتاه :

ـ ما رأيك يا استاذ ؟

ـ الى أين وصلنا ؟

ـ يا الهي ما هذا التبلد الذي أصابنا ••• أسألك وتسألني •

ـ لا أستطيع أن أفهم ، لماذا يلجأ القبطان • الى أحد أفراد الطاقـم حين تشتد الازمات •

ـ الازمات هي القاسم المشترك ، الذي يتجمع حوله الجميع ، بغض النظر ، عن وضعياتهم الوظيفية في السفينة •

وحين تهدأ الموجة ، تبرز مسألـة الانقسامات الوظيفية ويحظى كلٍ وفق موقعه على ظهر السفينة أليس كذلك ؟

ـ نحن شركاء في السراء والضراء •

ـ أرجوك الا هذا •• كان الجـوع ، يقض مضجع النوم ، فنسي

تتقلب على حافات السرير ، وكم تتمتعون ، وتشبعون نزواتكم ، وترصدون فوائض قيمة رحلات السفينة في البنوك الاجنبية ، كان هذا حين يكون البحر ، وديعا هادئا ، وحين يصاب البحر بنوبات الهستيريا ، تضعون على وجوهكم ، مساحيق النزاهة ، والامانة ، والمشاركة في المعاناة أو ـ السراء والضراء ـ كما قلت ، وتدعون اننا كنا جميعا نقتسم الحصير الذي نفرشه على الارض الجدباء .

اسمعوا يا سادتي .
قبل أن يغشاكم الموت الزؤام .
وفرّوا للناس شيئين فقط .
لقمة العيش النظيفة .
وضمانات الامان .

هذا الهاجس المجنون بالحماس ، يؤرقني ، لا يفتأ يتركني ، ينبش آلامي ، يربطني بمأساة ، الانسان ، في كل مكان وزمان ، وفي كل بقعة أرض ، الانسان البائس ، الانسان الذي يضحي من أجل هدف أسمى ، يتجاهل ، كل طموحات نفسه ، ويرفض متطلبات الحياة الاساسية ، ينظر للمعاناة اليومية كضريبة ، ضرورية من أجل الغد . يتفانى ، معولا على الغد ، على الطريق الآتي ، المفروش بالورود الجميلة ينظر الى عيون الاطفال البريئة ، وملامحهم البائسة ، فيظهر لهم الابتسامات ، وكأنه يتجاهل ما تعنيه هذه العيون البريئة ، معزيا كل شيء بالغد ، حين يتمتم في نفسه « هانت يا أطفال .. الصبر ضريبة الصرح القوي المنتظر ، البؤس مرحلة ضرورية للوصول الى صومعة النعيم ، بالنسبة لحالاتنا » .

– ٣ –

هبط الجميع الى بطن السفينة ، بعد أن أعياهم ، ترقب البحر المتقلب الاحوال ، فبقيت على السطح ، يشاركني هدوء البحر ، ويؤنسني القمر

حين يتوهج في كبد السماء ، كالحليف • ثم يخذلني بمراوغاته حين يختفي خلف سحابة عابرة من سحب الصيف ، وأظل أفكر ، أي حليف يصح لي أن أعتمد عليه •••

البحر لا يؤمن جانبه ، بين لحظة وأخرى يمكن أن يعكر مزاجـه ، فيفرز ، موجات هوجاء تهدد السفينة بالابتلاع والقمر يغازل السحب ، بعضها تستفزه بشروطها القاسية ، فيرفض مضاجعتها ، وبعضها تغريـه ، فيقضي ما تبقى من وقت نوبته الليليـة معها ، على فراش السماء ، فأبقى وحيدا متوجسا ، أيهما ترى يحالفني ويملك روحي حتى آمن شره على أقل التقديرات •

سئمت ، وكان الديالوج الداخلي ، الذي يعربد في بلعومي ، قد سبب لي بعض الظمأ فلجأت الى كأس القهوة ، فوجدته ، كتلة واحدة لا يميز منها الكأس من القهوة ، بفعل برودة عمق البحر •

كنت بحاجة الى شيء أشربه ، حتى أستطيع تدخين سيجارة واحدة ، ولكن مشروبي المفضل أصبح قطعة ثلج •

هرعت الى غرفة القبطان ، فوجدت بابه مغلقا ، لكن النور كان ينبعث خلف ستار ، زجاجي يتوسط الباب ، ودون أن أستأذن ، ضغطت على مفتاح الباب ودلفت الى الداخل بحـذر وخشيـة ، تراءت لنصف عيني اليمنى ، وجسدي كله لا زال بجانب الباب ، فخذان بيضاوان ، مكتنزان لفتاة حسناء ••• كان الساق الايسر ، يشد على الآخـر ، بعنف ، فقلت انها الشهوة الملعونة ، وسمعت صرخات مثـيرة ، ولم أتراجع بل ازددت تصميما ، على دفع جسدي الى الداخل ، وتركت الباب خلفي وسرت نحو مقعد القيادة ، وأخذت أنظر الى البوصلة •

كنت أنتظر حركة منتبهة ، ولكن الجسدين ظلا ملتصقين على بعضهما

وكأنهما كتلة واحدة ، من الجليد ، فأخذت أتأمل البوصلة ، ورأيت على الطاولة ، كتاب ، به بعض المعلومات ، عن الاحوال الجوية ، وحالةالطقس وكانت هذه المعلومات تقول : ان الاحوال الجوية ، خلال هذا الوقتغاية في الخطورة ، وان البحر معرض ، لرياح عاصفة من الجهات ، وان مرور السفن في مثل هذا الجو ، يعتبر ضربا من ضروب المغامرة الغير محسوبة العواقب .

عجبي لهذا القبطان ، كيف يسمح لنفسه ، أن يسبح في بحر النشوة الذي أراه يمخر عبابه الآن ، مغامرا بطاقـم السفينة الضخم ، ومعرضا نفسه وهذه الحسناء التي « تحرق القلب ، حراق » للهلاك المحقق .

همست بايقاظه فكانت تتضارب في نفسي المتناقضـات ... نهضت فسرت بجانب السرير، وكلما أخذت يديتنفصل عني لتلمسه كييستيقظ عادت الى موقعها سالمة ، وظللت حائرا بين المتناقضات ! بين أن أقطع حبال نشوته التي تقيده بسلاسلها ، وبين مصير هذا الطاقم الضخم المتراكم في بطن السفينة .

وجدت نفسي مترددا ، غير قادر على حسم هذا الامر الصعب الا انني في الاخير ، بعد معادلات دقيقة ، وصلت الى الاقتناع ، ان حيـاة هؤلاء التعساء ، أغلى من نزواته الطائشة ، فهمست بايقاظه وحين اقترب كفيمنه، وجدتها مغلولة من جديد ، وأخذت أكون معادلة جديدة ، كنت أرددها ببلاهة عميقة :

ان تركته على هذا الحال ، فمعنى هذا ، ان مجموع البشر المكدسين في بطن السفينة ، والسفينة ، وأنا أيضـا ، يجب أن نقرأ على أرواحنـا الفاتحة ... وان أيقظته ، وهو في الحالة النشوانه ، فسيعتقد انني أسعى الى ايذائه ، واستعداء الآخرين عليه ، وحينهـا سيلجأ الى التخلص مني كرميي في البحر مثلا ، وستبكي الحسناء ... وحين تبكي الحسناء رثاء

لي وهي في وضعها المزري ، سيتحول بكاؤها الى لعنات تحاسبني عليها الملائكة في عمق البحر مرددين في جوقة واحدة :

ــ كيف تبكي عليك ، وجسدها ملطخ ، ببقايا الشهوة الشيطانيــة وفمها عابق برائحة الخمرة كيف ؟..

ــ ٤ ــ

سحبت نفسي ، متسللا الى الخارج ، مطبقــا على فمي بكفي يدي ماشيا على أطراف أصابعي الامامية ، حتى لا أسبب الذعر للعاشقين .

وأخذت أتجول في الممر الذي يفصل الاكوام المكدسة من الاجساد النائمة ، ... وببــراءة وحب شديدين أتفحص هذه الاجساد الصامتة ، ولفت انتباهي شيء عجيب فأخذت أتساءل :

ــ لماذا ينامــون ، متشبثون ببنادقهــم ، وملابسهم العادية تسربل أجسادهم ، وأحذيتهم الضخمة ، تأبى أن تفارق أقدامهم ؟.

ترى الى متى يظل هذا التوجس المزمن ؟. هل نستعد لحرب جديدة أم اننا قد ألفنا على هذا النمط من الحياة ، وسمعت تأتأة متلعثمة :

ــ ما رأيك في الدعوة ؟.
ــ كل شيء مناسب ، اذا كان له علاقة بتثليج الموقف .
ــ ولكن ألا ترى انها شكل قديم ؟
ــ لا بأس من تنميقها واظهارها في ثوب جديد ؟
ــ هذه خيانة مفضوحة ، لا أرضاها .
ــ حسنا سنغلفها ، بشكل جديد .
تأملت الحوار ، وأخذت أعيد النظر ، في امكانية صلاحية ما سمعت. سمعت صوتا ، ينبعث في نفسي :

— جرّب ، فالتجربة أكبر برهان ، كما يقولون .
ولكن عهد الدعوات ، بدا لي غائرا في أعماق التاريخ .

— ٥ —

أخذ كل شيء أمامـي ، وفي داخلي ، يسربل تفكـيري بالتشوش ، ويحاصره بالحيرة والقلق ، وهرعت مرة أخرى ، الى غرفة القبطان ، وقبل أن أغامر بالدخول خلعت أحذيتي بعيدا ، وسرت على رأس قدمي الامامية وحين دلفت من الباب ، سمعت امتدادا لحوار مستتر ، كان قد بدأ قبل دخولي ، بين الجسدين المتلاصقين :

— يجب أن تعرف ، ان مجيئي هنا ، ومضاجعتي لك ، ليس حبا في نور عينيك السوداوين ، ولكنه مرتبط بموضوع هام .

ظهر لي ، ان لسان الحسناء المتكلمة ، ثقيل ، وانها لا تجيد العربية بطلاقة ، لم ألق بالا لهذا الامر ساعتها .

— ما هذا الهراء الذي تقولينه ؟.

ألم يكن جديرا بكما ، أن تنهضا سويـا ، وتتحادثا في الامر ببعض الجدية ؟

تاه عقلي في دهاليز الماضي ، فوجدت ، عبر استعـادة سريعة لبعض التفاصيل ، ان القبطان يقتله كبت جنسي هائل ، خاصة حين رأيت أطراف الحسناء تتحرك في محاولة للنهوض ، ولكنـه كان مطبقا عليهـا بعنف ، ومسيطرا ، على أطرافها المتململة .

— أنت تعلم ، ان كل شيء بحسابه .

— هل أفتح محفظتي الآن ، لامنحـك ، ما تريدين من المـال ، أم

تأخذين شيكا صباح الغد ، وهو الافضل لك تقريبا •

ــ هذا شيء آخر يا حبيبي •
ــ حسنا يا حبيبتي ماذا تريدين ؟
ــ أريد التعجيل بتوقيع الاتفاقية •

وسمعت صخبا مريبا ، في مكان ما من السفينة ، فلم أعره اهتماما ، في بداية الامر ، معتقدا ان الليــل ، قد سحب ذيوله ، وهل الصبــاح الجديد ، وهذا الصخب ليس الا صحو الطقم المكدس، في بطن السفينة•

ــ الاتفاقية ، تهمني كثيرا ، وأنا مهتم ، بالاسراع في توقيعها •
ــ حسنا ••• وماذا تعطيني يا حبيبي ؟•
ــ أمنحك ، شيكا مفتوحا •
ــ أوه حبيبي •• أنت رائع رائع •

وأخذت ، تحكم قبضتها من جديد ، وتقبّله بخبث ماكر •

بدأت تعربد في نفسي ، وفي أعماقي ، لعنة هوجاء ، وأنا أصعد السلم المؤدي ، الى السطح المكشوف ، وكانت تتراقص في ذهني هذهالعبارات:

ــ مجيئي الى هنا ، ليس حبــا في نور عينيك السوداوين ، ولكنه مرتبط بموضوع هام ، أعتقد انك تعرفه •

ــ وأنت تعلم ، ان كل شيء بحسابه •

وبرز التساؤل الملح ، الذي حاولت عقد الصلح معه منذ وقت ، لماذا لا تستطيع ، هذه الحسناء ، أن تنطق العربية بطلاقة ؟•

ترى ألم تطالها عصا الفقيه حين كانت تدرس القــرآن ، ومبــادىء القراءة والكتابة ، يا الهي كم هي غليظة تلك العصا •

وقفت بعد أن أعياني التفكير ، والغوص في المقارنات ، على احتمالين:

أما انها تأثرت بلغات أجنبية ، درستها ، فاستولت على لبها • او انها واحدة ، من بنات الاسر الراقية ، اللواتي ينطقن الكلمات بجهد مصطنع، مضيفات عليها بعض اللكنات الغريبة، التي تعني النشأة المنحلة، أو الدلع البالغ ، أو الدلال القاتل •

ولكن ألا يمكن أن تكون غير عربية ، أو مستعربة مثلا ؟•
كل الاحتمالات واردة ، وان كانت غير ذات معنى •

ازداد اللغط من الجانب الآخر ، ••• والليـل لا يزال ، على وشك الانتصاف تراءت لي عن بعد طيور النوارس البيضاء ، تحلق على ارتفاع منخفض ، وتحملق في سطح البحـر ، وكان بياضها الصارخ الجميـل ، يخترق الظلمة ، ويكون مع النجـوم الباهتـة ، العالقة في بطن السماء البعيدة ، ايقاعات موسيقية تشع بالامل المفقـود ، ولكن النوارس حين بدأت تنوح بأنغامها الحزينة جعلتني أنظر اليها بحنان بالغ ، تمنيت ، لو أضمها بين حناياي المرتجفة •

ازداد تعلقي بالجمع ، المكدس في بطن السفينة ، وازداد خوفي عليهم حين تذكرت غرفة القبطان الغارقة في التأوهات الحيوانيـة ، والروائـح العطرية والخمرية المعتقة ••• وسمعت الفقراء من جديد يقضمون العيش الناشف ويتأوهون ، تأوهات مكبوتة ، وشممت أجسادهم ، تعبق عرقا محببا وتمنيت أن يتحول هذا العرق ، خمرا يشربه القبطان ، ويغسل به فتاته الحسناء •

— ٦ —

لو أيقظته سأكون ، قد قطعت حبال الاحلام الوردية ، التي تكبله ، ••• وحينها ، سيعتقد انني أقصد ايذاءه ، واستعداء الآخرين عليه ••• وهذا سبب وجيه يمكنه من رميي في البحر •

وان تركته ، ينهل من بحر الملذات ، ليروي عطشه الابدي ، سأكون قد ضحيت ، بحياة هذا الجمع البائس ، من التعساء الذين ينامون ـــ وفي أجفانهم يقيم ، الترقب المتوجس ، وأيديهم تأبى أن تترك البنادق •

حسنا ••• سأصعد الى حيث ، يتراكمون كالسردين، وأيقظ مجموعة منهم ، وأطلعهم على ما وصل اليه الحال من خطـورة ، وأطلب منهم أن يأتوا معي ، الى غرفة القبطان ، لكي نمنعـه من التحليـق في الاجـواء الرومانسية ، ونحاول ايثاق عقاله بواقع الامر •• ووضعـه أمام حقائق الارصاد الجوي ، وجها لوجه ، ان كان قد نسيها •

وبدأت أيقظهم من النوم ، واحدا تلو الآخر ، فكان كل منهم ، وهو يدعك عينه ، بكفه الخشن ، يلعن هذا ، الذي أفسد عليه نومه •

قلت لنفسي ، وأنا أسمع اللعنات ، تتوارد من أفواههم :

ـــ ألا ليتكم ، تعلمون ، ان الخوف على مصائركم ، جعلني أهيم مع النوارس والنجوم •

وتوارد الى سمعي ، صوت أجش ، تغلب عليه بقايا النوم :

ـــ هذا الذي ينام قبـل غـروب الشمس ، لا يروق له ، أن ينـام الآخرون ملء جفونهم ••• اللعنة عليه •

« منذ متى نمت قبل الغروب ؟• أذكر ، ان هذا اليوم الثالث، والنوم يهجرني ، والقلق يؤرقني ، وكيف يطيب لكم ، أن تناموا ملء جفونكم والخطر يحدق بكم ، والسفينة على وشك أن تفقد ساقها الاخرى » •

وقال آخر ، وقد قفز الى الارض ، متخطيا ثلاثة أسرة ، تقع تحتـه ومحدثا اخلالا في توازن السفينـة ، الذي تأكد لي انها تسير على ساق واحدة :

ـ سنطلب ، من القبطان ، أن يتركك ، تراقب البوصلة ، حين ينام.

« ما أصعب ، أن يتولى ، واحد مثلي ، مراقبة البوصلة ... انها مستويات » . أدركت انهم ، سيتمادون ، في تقولاتهم ، وقذفهم ، في وقت أعاني فيه الامرين من أجلهم ، فقررت أن أحسم الامر ، وقلت بحزم:

ـ لا تقسون عليّ ... دعوني أقول لكم لماذا أيقظتكم من نومكم الهادىء ... الاحوال الجوية خطرة ، والسفينة تسير على ساق واحد ، والقبطان يعاقر احدى الحسناوات ، والسفينة تمخر عباب البحر على هواها .

انتفض الجميع ، وقد ظهرت على وجوههم تكشيرة الغضب ، فأخذوا يرددون تعليقاتهم المتوالية :

ـ يجب أن تقف عن الحد المناسب .
ـ لا نسمح ، بالطعن في أخلاق القبطان .
ـ لست مكلفا بتوجيه مصائر الناس .
ـ الاحوال الجوية صالحة للملاحة .
ـ أفصح عن رغباتك بشجاعة ... هل تريد أن تكون قبطانا ؟.

أحسست بخيبة الامل ، ولم يعترني حقد عليهم ، بقدر ما أثاروا في نفسي الرثاء العطوف ، فرددت بصوت هامس حزين مقطوعة من قصيدة لشاعر عراقي ، رأيت فيها بعض العزاء :

« قتلتنا الردة ... كل يحمل في داخله ضده » .
ثم أضفت بصوت جهوري ، عبارة قديمة مع بعض التحريف :
« لو كان الجهل رجلا ... لقتلته » ..

رأيتهم يستعدون للعودة الى أسرتهم ، وقد برزت على وجوههم ، مظاهر الانتصار ، باخراس صوتي ، ووجدت نفسي مطأطأ الرأس ، احمل

في ثناياي الانكسار ، وانا انسحب بخطوات يائسة ، صاعدا الى سطح السفينة ، وغط الجميع في نومهم العميق من جديد .

وبقيت وحدي ادخن آلامي ، وامضغ عذاباتي .. وبعد لحظات رأيت تحليلات الارصادات الجوية ، لاحوال البحر ، تتجسد حقيقة اذ بدأت المويجات الرقراقة الصغيرة ، تنمو ، فتتحول بالتدريج السريع الى موجات هوجاء غاضبة وشعرت بالسفينة تتأرجح بدلال ، وهدأت اعصابي لتأرجح السفينة الهادىء ، وبدأت ايامي الخوالي ترتسم امامي من جديد ، وعاد شريط الطفولة يطاردني .

ـ لماذا لا يظل الانسان طفلا ، حتى يغادر هذا الكون ؟ ، ومتى تعود لي طفولتي ، لتغسل اوساخ هذا العصر متى ... متى ؟.

بدا لي ان عودة الانسان الى طفولته أمر صعب ، ان لم يكن مستحيلا فتأوهت :

ـ آه يا طفولتي .

ـ ٧ ـ

آثار تخبط السفينة ، وتأرجحها ، خوف في نفسي ، فتبددت الدعة التي نعمت بها بعض اللحظات النادرة ، وكان واضحا ، ان البحر قد صعد من غضبه فنهضت الى حافة السطح ، وحملقت في الموجات الهادرة ، وهي ترتفع فتصفع ظهر السفينة بقسوة رعناء ، وعادت الحيرة تعشش في نفسي من جديد ، واستبدت بها الهواجس الملحة :

الخوف عليهم ... والخوف منهم .. ايقاظ القبطان وعدم ايقاظه .

فقلت ، ان تخبط السفينة وارتجاجها كفيل بايقاظ القبطان .

وقعدت على السطح ، انظر الى الشراع ، والرياح تتلاعب به .

وبدأت تباشير الصباح الجديد ، تغزو الافق البعيد ، وعادت النوارس الناصعة البياض ، تخلق حاجزا بيني ، وبين السماء ، وتزمجر بأصواتهــا الشجية الفرحة ، بطلوع الصباح الجديد ، فأخذت أتمتم :

ــ آه •• ما بالك ايتها النوارس ، تدغدغين مشاعري وتفجرين بركان الحزن الكامن في نفسي •• خذيني بعيدا عن هذا البؤس خذيني ، علميني كيف يموت الغليان الصاخب ، المعربد في نفسي ، علميني كيف تــداوى الجراح ••• علميني • ظهر جلــيا الان ، ان السفينة توشــك ان تفقد توازنها ، اذ بدأت تأرجحاتها تتضح بقوة ، وتيقظ بعض الذعر النائم في النفوس •• وسمعت اللغط الصاخب عامرا من جديد ، وسمعت الاصوات المبحوحة الخائفة ، تنوح في بطن السفينة ، وسمعت مشادة بين الجمع ، بلغت حدا يؤكد ان هناك ظاهرة من الصعب السيطرة عليها ، ثــم سمعت عيارات نارية تمزق صمت الصباح الحالم ، ويتضاعف نعيقها حين تتفرقع في بطن السفينة المكبوت ، وسمعت خطوات مرتبكة تصعد سلم السفينة الى السطح فتتعثر ، ويغيب وقع الخطوات المذهولة بعض الوقت، فانهض مسرعا الى عتبة السلم العليا ، فأرى القبطان ، وقد اسند رأسه على يده اليمنى ، واستند على احد جوانب السلم ، فأيقنت انه يعاني من وعكــة ألمت به ، قطعت الدرجات التي تفصلني عنه بنفس السرعة ، واسندته على ذراعي ، حتى اوصلته السطح ، وعلى السطح ظل صامتا ، حتى استعــاد انفاسه وتنفس الصعداء ، امهله الذهول بعض الوقت فبادرني بلهفة :

ــ ماذا في السفينة ؟•• ما سر الطلقات التي سمعتها ؟•• مــاذا تعمل هنــا ؟•••

حاولت تهدئته ، فقدمت له مقعدا يستريــح عليه ، وبــدأت ارد بالترتيب :

ـ السفينة ، عاودتها حالتها المزمنة ، التي حذرتك منها مرات سابقة ٠
٠٠ لا لا ٠٠ انها بحالة سيئة ٠

ـ والطلقات ٠٠ لا أدري كنهها ٠٠ كلما اعرفه ، انها تنطلق من بطن السفينة ٠

٠٠ لكن ما الذي حصل ؟٠
ـ وانا لم أذق طعما للنوم ، منذ ثلاثة ايام ، كما تعلم ٠

أخذ يثرثر والارتباك ، يسيطر على تفكيره ، وكأنه خرج من القبر لتوه ٠

ـ أين نحن الآن ٠٠٠٠ اين نحن ؟
ـ في عمق البحر طبعا ٠
ـ أعلم هذا ٠٠ ولكن في أي اتجاه نسير ؟٠
ـ من القبطان أنا أم انت ؟
ـ أنا طبعا ٠
ـ حسنا أسأل نفسك ٠
ـ أنا لا أدري شيئا ، لقد استغرقني النوم ٠

ـ استغرقك الحب ، والعشق وكؤوس الراح ، فتركت السفينة تسير على هواها ٠
ـ كفى ٠٠ كفى ٠٠ تعرف تسكت ٠

وتدافع الى السطح بعض الجماعة المكدسين في بطن السفينة ، وقد طمس ملامحهم الذعر ، طالبين النجدة من القبطان ٠

وكان واضحا ان هناك مشاكل ، وصلت حدا ، من الصعب السيطرة عليه ٠ وامعنت السفينة في تأرجحها ، فظهر واضحا ، انها تسير على جانب واحد وتهدد بالانحدار ، والضياع في عمق البحر ٠

أثار انتباهي ، وحزني معا تخبط القبطان • فحال السفينة تهدد بـين لحظة واخرى بالغرق ، والطلقات تصمت بعض الوقت ، ثم تعاود صراخها والمستغيثون يقلقونه ، اذ يتشبثون بذراعه بالحاح شديد ، وهـو تارة يحدد وجهته نحو بوصلة السفينة ، ويهم بالسير ، وتارة اخرى نحو الجمع المكدس في بطن السفينة ، وتتنازعه البوصلة والجمع ، خطر غرق السفينة والخطر الآخر ، الذي يتصاعد في بطنها ، هاتان المأساتان كل واحدة اثقل وطأة من الاخرى ••• اما الحسناء الفاتنة ، فلم أدر أين انتهت حكايتها •

وضحكت بمرارة ، وقلت لنفسي « شر البلية ما يضحك » •

ظهر جليا مرة اخرى الآن ، ان السفينة ، بدأت تستعيد توازنها جزئيا ولكن هذا التوازن يهدد بين لحظة واخرى ، بالعودة الى الحالة السيئة ، وتبادر الى سمعي من جديد ، صوت اضراس الفقراء ، وهي تقضم العيش الناشف ، وبرزت في وجهي الاجساد الناحلة ، والعظام البارزة والـوجوه الصفراء المخيفة ، وبدت لي جنازات بعضها يسير خلفها افراد وبعضهـا الآخر يسير خلفها عشرات ومئات من الناس •

ورأيت الاجساد المغطاة بأطنان اللحم والشحم ، المنتفخة الاوداج • وتساءلت عن سر هذا العالم •• وحين صفعتني بوابته المغلقة نظرت الى الارتفاع المنخفض الذي يعلو سطح البحر ، فرأيت النوارس تسرع وتمرح فرحة بظهور الصباح الجديد الحالم •

وقلت بتأوه :

آه •• ما بالك ايتها النوارس ، تدغدغين مشاعري ، وتفجرين براكين الحزن الكامنة في نفسي •• خذيني بعيدا عن هذا البؤس خـذيني ••• علميني كيف يموت الغليان الصاخب المعربد في جوانحي ••• علمينـي كيف تداوى الجراح علميني •

ضربة في الرأس

بقلم
احمد غالب الجرموزي (١)

بدأت الآن اتذكر ، بعد طول غيبوبة وفقدان وعي !!

لكن ولان الايام تمر مثل طرف العين •• لا تأبه ولا حتى تأسف على شيء •• فقد كان يوم امتحاني ذاك شاقا كصعود جبل عند مسلول بالعظام.

قد كنت شابا قويا فيما اذكر الى حد الكفاية •• مفتول العضلات • والعيون تتسلل الى كل عوارضي وامتداداتي في شيء من الاشتهاء •• كل

---

(١) ولد بصنعاء سنة ١٩٤٣ ، وفي العام نفسه توفي والده ، فانتقل مع امه الى بلاد اخواله في ماوية (لواء تعز) ، ثم تزوج عمه سنة ١٩٤٨ من امه ، وكان يسمى العميد (غالب الجرموزي) ، واليه ينتسب احمد بدلا من ابيه الذي لم يره ، سافر سنة ١٩٥٨ الى مصر للدراسة ، فنال الشهادة الابتدائية من مدرسة حلوان سنة ١٩٥٩ ، ثم الاعدادية من منازل حلوان أيضا سنة ١٩٦١ ، ثم الثانوية العامة سنة ١٩٦٣ من مدرسة صلاح سالم بحلوان ، ثم عاد الى الوطن وارسل الى تشيكوسلوفاكيا والتحق بكلية « السينما والتليفزيون » وظل بها من سنة ١٩٦٤ الى سنة ١٩٦٧ ، حيث حالت ظروف خاصة دون اكمال تعليمه ، ثم عاد الى وطنه ، والتحق بكلية الشريعة والقانون ــ جامعة صنعاء ، وتخرج منها سنة ١٩٧٧ .
اما قصته « ضربة في الراس » فقد نشرت في صحيفة « الجيش » (مارس ١٩٧٦) .

ذلك كان يروقني ، وحتى ذلك التاريخ كنت قد عدت من اكثر من رحلة صيد بمحصول وافر . وبشيء من الخبرة والحنكة في بعض الامور .

في يوم الامتحان جاء ابي الي وعلى وجهه اكثر من تعبير . لم يخف ذلك على فراستي كما وان كل تلك التعبيرات التي رسمت على ذلك الوجه الصارم الصلد بأكثر من الجفاف لم تكن توحي ــ لا لي ولا لمن يراها ــ بأي خير مرتقب او مرجو :

ــ اسمع يا عمار ..

ــ نعم يا أبي .

قطب ما بين حاجبيه وزم شفتيه .. نظر الى الشمس طويلا .. لم ألاحظ وهجها قد كسر من حدة نظراته تلك شيئا . عاد فنظر الي بما يشبه المعنى الخاص .

ــ سأضعك في امتحان .. اريد الاطمئنان عليك .

خطرت في بالي اكثر من علامة استفهام عن نوعية ذلك الامتحان وداخلتني عدة مشاعر متباينة خوف ، قلق ، حيرة .. انا اعرف ان ابي ما قال كلاما الا صيره حقيقة وكل طلباته يحصل عليها . فكر ذات مرة في بناء قصر يعانق الثريا ففعل وتم له ما اراد .

(ترى ما هو هذا الامتحان) هكذا همست لنفسي من داخلي ، كان متجهما وعلى ملامحه كل آيات الاخافة ، وسمعته يجمجم .

الآن حان وقته .. وقد رددها عدة مرات وبلهجة المصمم العازم .

أمسك برسغي يا الله ما اشد قبضته على تلك الرسغ وقد تبعته كخروف ابله اوقفني في الوسط من الدهليز في قصرنا وصرخ وكأنه يزأر .

ــ يا بلقيس .

اجابته من داخل الغرفة •

ــ نعم يا سيدي •

خرجت من الغرفة •• وقفت قبالتنا كلها جلال وعلى ملامحها كل آيات المهابة •• هي بالضبط قطرة مطر علقت على طرف من ورقة عنب • قال ابي :

ــ هذا عمار سيكون ضيفك في هذه الليلة وحتى الصباح ــ فقط ــ الليلة •

ــ والى الصباح فقط •

قال كل ما يريد وانصرف على حين بقينا لفترة واقفين احدنا قبالة الآخر ولا كلام •• دبيب الاشتياق كان يذهب نظراتنا وكل المحسوسات تحولت الى اصداء لنداءات لم يفه بها احد •• مدت يدها البلورية الدافئة فقابلتها بيدي التي كانت ترتعش وباحتراق لم أعهده من قبل •• على تلك الصورة التقيت ببلقيس التي رأيتها لأول مرة في بيتنا في ذلك اليوم ، كانت الشمس حينها تنتحر في ما يشبه الصديد المدمي ، حانت مني التفاتة فرأيت سيفي معلقا هناك قريبا من السرير الذي كان قد تهيأ لاستقبالنا بين احضانه الدافئة ، ولروعة اللحظات التي كنت اعيشها ساعتها لم أسأل عن من جاء بسيفي الى ذلك المكان • سلمت نفسي لاحضان بلقيس وانا مطمئن الى ان سيفي قريبا مني وبجواري •

كانت ليلة لا أظن ان دهري سيغفلها من حسابه أو يضعها بين عاديات الايام في كل ماضيه وآتيه •• وانا على يقين من ان بقية مني لا زالت خبيئة في رحم تلك الليلة رغم أيغالها بعدا في صميم الدهر عن هذا اليوم الذي أنا فيه •

قبلتني بلقيس لآخر مرة وهي ترتجف قالت لي وفي عيونها طبقة رقيقة من دمع ، كان الصباح قد جاء •

ـ أبوك ينتظرك في ساحة الدار .
بحزن ووجوم سألتها .
ـ هل تعلمين شيئا عما يريده مني .
ـ سمعت انه سيرسلك (الى مدينة الغبار) لتعيد بناءها .
ـ هو بهذا يريد امتحاني اذا ؟
ـ ذلك ما اعتقده ..
ـ الى اللقاء .

في ساحة الدار السندسية التراب كان ابي يقف في منتصفها وفي يـده رمح صقيل المحيا حاد السن وفي طرف الساحة الآخر رأيت جوادا أبيض يطرده اكثر من خادم يلهبون مؤخرته بأسنة الرماح فيزيد من سرعته .. لو كان له جناحان لطار .. هتف بي والدي ..

ـ اقترب مني يا فتى .
ـ نعـم .
ـ هل أخبرتك بلقيس عن المهمة التي سأرسلك لعملها .
ـ قد أخبرتني .. متى ارحل .

ـ الآن وعلى متن هذا الجواد ، ستعيد بناء المدينة الخربة وستسكن هناك حتى أذن لك بالعودة .. هيا أقفز !

ـ أقفز ؟ ألى أين يا أبي ؟
ـ ستمتطي ظهر هذا الجواد وسترحل في التو .
ـ لكنه يطير ولا يسير يا أبي !
أمسك بتلابيبي حتى اوشكت على الاختناق .
ـ ستكون رجلا وستركبه وهو في سرعته هذه .
وتذكرتها في تلك اللحظة التي أيقنت أني قادم فيها على موت محقق .

اعصابي تتضاغط على بعضها واعاصير لا حصر لها تصطخب في دمـاغي وعيناي تجريان خلف الفرس الذي كانت كل قوائمه قد تداخلت فـي بعضها الى الحد الذي لم اعد أتبين مقدمتيه من المؤخرة .

ـ وبلقيس يا أبي هل ستظل هنا حتى أعود .

أرسل نظراته الى كل أرجاء السماء . حرك شفتيه بما يشبه التـلاوة ونظر الي .

ـ هذا ما لا أعرف عنه شيئا حتى الآن . اما اذا كنت قد تركت لديها شيئا يخصك فتأكد اننا جميعا سنحتفظ لك به حتى تعود .. مهما طالت غيبتك ، الآن أقفز كما أمرتك !! زدت من تـداخلي على نفسي وضغط أعصابي وانفلت في أثر ذلك الفرس الجامح .

وبأقل من طرفة العين كنت على ظهره وعنانه بيدي !

بدأ أبي يتلاشى ويتقزم كلما ابتعدت عنه في رحلتي نحو المجهـول واختفت الساحة وسورها الضخم وأخيرا تلاشى قصرنا الكبير في طيـات العدم .

★ ★ ★

الغبار أول ما استقبلني وأنا في طريقي نحو تلك المدينة الغريبة ، ما لبث أن احتواني بين طياته وابتلعني في غياهبه شيئا فشيئا ..

وعلى ابواب المدينة التي لم يكن لها ابواب رأيت قوما يشبهوننا نحن البشر الى حد ما .. كانوا أقزاما كالمطارق ونحيلين مثل عصي الرعـاة ، يهرشون اجسادهم بأظافر بدأ الدم يتسرب من تحتها ويختلط بالدم الكالح الذي كان يتصبب من الجروح المنتشرة على طول أجسادهم الهشة المتقزمة المهترئة !!

ما أن رأوني حتى قاموا لاستقبالي بما يشبه التهليل •• اقترب احدهم مني فشعرت نحوه بالاشمئزاز الشديد ، وبلا وعي مني وجــدتني ابصق عليه •• لكنه ــ يا للدهشة ــ تعملق بسرعة وتطاول كجني سليماني اطلق من قمقم حبسه ، برأت في لحظة كل جروحه وتبخر الغبار من حوله وعاد الى عينيه صفاؤهما وبريقهما ورأيت فيه انسانا بالمعنى الذي أعرف عليــه الانسان •• اخذتني الدهشة لما حدث وكررت تلك الفعلة مع ثاني وثالث ورابع ولكن وفي كل بصقة كانت تخرج من فمي كان يحدث لمن تقع عليه نفس ما حدث للرجل الاول •

دهمني القوم من كل حدب وصوب تحلقوا حول فرسي حتى اعاقوه عن السير تماما •• كانوا جميعا من المجذومين وقد علمت ــ كما علمــوا هم ــ ان دواءهم بصقة القيها من فمي على كل منهم فيستوي صحيحــا معافى •

وحين استوت الشمس لتغرب كان القوم قد استعادوا صحتهم وتغيرت سحنهم من صرصارية الى شيء مرغوب فيه وبعد أن كانوا اقزاما في حجم المطارق وعصيان الرعاة صاروا عمالقة وسألتهم قبل أن أنزل من على ظهر فرسي :

ــ من انتم ومن أين انتم ؟

ــ أو ما سمعت بنا من قبل ايها السيد •• نحن (المعاريد) وقد جئنا الى هنا من بلاد الشلالات بعد أن أصبنا بالمرض الذي رأيتنا فيه •

أخذتني دهشة اخرى •

ما ان برىء آخرهم واصبحوا جميعا أصحاء الا وكان الغبار قــد انقشع وتجلت صفحة الافق والسماء من حولنا وفوقنا صافية تستطيب العين رؤيتها والاستمتاع ببهائها الرائعة •• تأملت بيوت المدينة كانت من

الضآلة والركاكة بحيث لا تزيد ولا تنقص عن تلك البيوت الرملية التـي يتلهى الاطفال ببنائها على شاطىء البحر العريض •

أحسست أني في بلاد العجائب وعندما ترجلت عن جـوادي ووقعت قدماي على الارض حدث ما لا يمكن لعقل بشر ان يتصوره مهما شط بعدا في مزار الخيال !!

بدأت اولى خطواتي باتجاه المدينة ولكن الذي جد هذه المرة هو انني كنت عندما انزع احدى قدمي لارسلها الى خطوة اخرى اجد انه قد نبت في موضع القدم تلك وبسرعة البرق ــ شجرة •!

وعلى أثر كل خطوة شجرة • عنبه • نخله • ورده • ساج • حلـف • صبره والغريب في كل هذا ان تلك الاشجار التي كانت تنبت في مواضع اقدامي تتعالى وتكبر بسرعة وتؤتي أكلها هنيئا مريئا اخذت القوم الدهشة وهم يتأملون معجزاتي تتوالى بينهم وهتفوا بابتهال وخشوع •• بوركت يا ابن الخضرة وتعاليت ، ليتمجد اسمك في الابدين ، وليخلد ذكرك فينا نحن الشاكرين الذاكرين •

لم اضيع لحظة • بدأت في طمس تلك المعالم الرثة الباليـة وتشييد القصور والحدائق الغناء ، اما الماء فقد تفجر في ذلك الخبث الذي اصبح جميلا الى حد ما ، تفجر من كل بقعة كنت اتبول فيها ، كثرت السواقي والجداول وسمع اهل المدينة صوت الموسيقى لاول مرة في حياتهم مـن ذلك الصوت الشجي الذي ينبعث من خرير الماء في جداوله •

بدأت أسمع اصوات الحسان الجذلى يتردد بالغناء من على الشرفـات والنوافذ ومن خلف أسوار الحدائق وكانت أكثر كلمات تلك الاغاني اما تمجيدا لي او تغزلا بي وبصفاتي « انا ابن الخضرة والبن وسليل المعـالي ورب المكرمات » •

وذات يوم تقدم مني ذلك الرجل الذي كان أول من بصقت عليه فتعافى وقال باحترام كبير .

ـ سيدي أريد ان اضع في اذنيك خبرا خاصا .. نصيحة ..
ـ قل لا تخشى شيئا .. تكلم هنا امام الجموع فلا اسرار بيننا .

ـ يا سيدي ، يعيش في انحائنا هذه مجنون اخشى عليك منـه الشر وهتفت الجموع .

ـ المجنون المجنون توقاه يا سيدنا ما استطعت فهو يتوعدك يـا ابن الاكارم بأمور كثيرة وكلها شريرة ..

لا تخافوا علي شيئا ، اذا جاءنا ذلك المجنون اكرمنا وفادته وربما رددنا عليه عقله .

وانطلقت في طريقي .. أمهد الطرق واشق السبل المتعددة الى كل ما هو خير وجميل كنت اسير في شوارع المدينة التي لم تعد تعرف الغبـار بخطوات ملؤها الثقة بما انجزت والايمان الكامل بما سوف احقق في قوادم الايـام .

كان فرسي يقف هناك في انتظاري وكلما رآني نوش بذنبه وهز رأسه محييا . وفي احد الشوارع وبينما كنت أسير بكل تلـك الثقة وذلـك الاطمئنان جاءني صوت من خلفي في مثل قصف الرعد لكنه معبأ بالخوف يفترسه رعب مهول .

ـ خذ حذرك يا سيدي .. خذ حذرك يا سيدي المجنـون خلفك مباشرة .. أحذر يا سيدي احذر احذر ، هراوتـه ستسقط على مؤخرة رأسك الان التفت لارى لكن ..!

لكن الهراوة المجنونة مثل صاحبها كانت قد سبقت التفاني وانحطت

على مؤخرة رأسي بمثل هول الصاعقة •• لكني وفي لحظة خاطفة وقبل ان أفقد وعيي من هول الضربة رأيت كل ما كان حولي واحتفظت به في ذاكرتي حتى الآن •

المجنون أشعث أغبر في لون الغبار الذي كان يجثم على المدينة قبل ان اجيئها •• في شعر رأسه وذقنه رأيت اكثر من صرصار وسحلية وخنفساء •• وعلى قدر ما في وجهه من صرامة الا ان البلادة كانت ابرز سماته •• وكان يلتف حوله عدد كبير من الصبية والغوغاء انصاف المجانين ولقد سمعتهم في اللحظة الاخيرة التي سقطت فيها الى الارض فاقد الوعي يهتفون له ويمجدون ضربته تلك التي أرسلها الى رأسي وهنا انتهت كل صلة بين عقلي وكل المحسوسات والمرئيات من حولي •

ولا أدري كم طال علي الامد وانا في رقدتي الحزينة الحسيرة تلك أظنه دهرا ليس بالقصير كانت عيناي نصف مغمضتين ورغم فقدان عقلي الا انهما ــ عينيَّ ــ كانتا تسجلان باختزال كل ما يدور حولي رأيتهم يجرون فرسي وقد عروه من سرجه ولجامه فانساق خلفهم محني الرأس مكسور الذيل •

وحينما مر بجواري ارسل صوتا حزينا يشبه البكاء •• جاء قوم آخرون فنزعوا عني بردتي وحلوني من ازاري وخلعوا قلنسوتي ، اما سيفي فقد اخذوه ولا ادري من قتلوا به ولكنهم اعادوه ملطخا بالدماء والقوه بين افخاذي فبقي هناك الشيء الوحيد من امتعتي الذي يستر عورتي •

الآن وبعد دهر لا أعرف شيئا عن طوله أو عرضه أشعر بأني استرد صحتي وعافيتي شيئا فشيئا تحسست نفسي فهالني ان اجدني على مثل تلك الصورة المحزنة المخجلة لكن اخذت سيفي ، اتكأت عليه واستويت

واقفا ولقد بدأت السير ولو ان ذلك بخطى طفل هزيل ركيك البنيان ..
الا اني وجهت مسعاي نحو بيتنا ـ قصر ابي العظيم ـ

خارج المدينة ، التفت اليها فرأيتها تحف بالرفيف والخضرة مـن كل جانب فهون ذلك من مصابي .

غدا سأكون هناك بين اهلي واحبابي ولربما سمح لي أبي بالعودة الى احضان بلقيس مرة اخرى .

حتما سأعود اليها وسأسألها عن وديعتي التي تركتها في احشائها تلك الليلة والتي لن انساها ابد الدهر .

انتهـت

الوضع الآن جاد جداً

بقلم
ميفع عبد الرحمن (١)

الثانية ليلا . ملازم ثان متعجرف . شلة جنود برابرة في تصرفهم ، عصريون في زيهم العسكري .. بنادقهم لامعة ، أحذيتهم لامعة ، أزرة قمصانهم لامعة ، وبناطيلهم مكوية منشاة ، برغم دفء الطقس . أما وجوههم الضامرة فلا تدل الا على الهدف من قيام الجمهورية الجديدة ، ومن صدور الجريدة اليومية الوحيدة . وفي الخارج سيارة عسكرية ، ودبابة من طراز انجليزي عتيق ، فوهتها مسددة نحو مبنى مطبعة الجريدة .. المبنى الشبيه بقبو تحت الأرض ، مع أن المطبعة ليست سرية . وكل شيء فيها موروث مستهلك وهالك .. حروف الصف ، وصناديقها . المداد ، الاوراق ، وآلة تقطيع الاوراق . آلة طبع البروفات ، وآلة الطباعة

---

(١) هذا هو اسمه الادبي ، اما اسمه الحقيقي فهو : محمد عبد الرحمن احمد ، ولد في الشيخ عثمان باليمن الجنوبية ، وتلقى تعليمه في المنطقة نفسها ، ووصل في دراسته الى المرحلة الثانوية ، وعمره الآن في حدود السادسة والعشرين ، بدأ بنشر القصص في مرحلة مبكرة ، وأول عمل نشر له في الصحف المحلية سنة ١٩٧٢ . أصدر مجموعة قصصية سنة ١٩٧٥ بعنوان « بكارة العروس » .
اما قصته « الوضع الآن جاد جدا » فقد نشرت بمجلة « الحكمة » (نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٧٧) .

•••• الا الكلمة ، وروح العمل ، فهما هما الوحيدتان الجديدتان في هذا المتحف الآيل للدمار •

والى هذا القبو ـ المتحف يتوافد عمال الطباعة في العاشرة صباحا ، وبقليل من هذا الوقت يصل عمال نوبة صف الصفحتين الاولى والاخيرة ـ كونهم يخرجون بعد منتصف الليل ، يليهم العاملان على آلة الطباعة ـ اللذان يحضران قرب المغرب ويغادران قرب الفجر في العادة •

يتوافد الجمع منهكا مرهقا من عمل اليوم السابق ، ومنغصا من متاعب أخرى جمة • فحتى رسائل الاهل لاتحمل عدا الآلام ، ولا تزف غير الغموم • وكل شيء بالنسبة لهم يجري عرضا •• تناول الطعام ، النوم ، تقاضي الراتب ، الكتابة للاهل ، وتتابع الايام ـ كل هذا يجري كيفما اتفق • وهم يودون لو يصرفون النظر عن انفلاش اعمارهم بهذه الصورة الفاجعة ، فلا يستطيعون • ويبقى حلمهم الجميل بالايام القادمة هو عزاؤهم الوحيد •

ـ عشنا وشفنا يا فضل • صحفيون كثيرون راحوا ، وبقينا نحن ، وجاء آخرون ، وراحوا أيضا •• ونحن باقون • لكن أنتم الذين تكتبون عنا ! هل ستلحقون بهم ؟ رغم هذا سنبقى ، وسنكتب بأنفسنا عن أنفسنا وعما نريد • أنا أسألك فقط عن المواد الباقية ، فلماذا تحتد وتنفخ مني ؟

انتظر طويلا ، أعطاه فضل قاسم جزءا من مواد الصفحة ، ووعده بالعودة بعد ساعة ، ولم يعد •

صف علوان غالب ما أعطاه فضل ، وانتظر • انتظر ثلاث ساعات كاملة •• يأمل أن يقتنص من الوقت بعض المغنم لراحته • لكنه لا يرتاح ، لا يغنم ، ولا يقتنص • فلما جاء فضل ، جاء مع موعد الخروج للغداء • وجاء ليدخل على الفور مكتب هيئة التحرير •• يريد أن يهدىء أعصابه بعض

الشيء ــ وهو العائد توا من احدى عمليات حرق الاعصاب ، وقد كان في وزارة العمل والشؤون الاجتماعية •

عند باب الوزارة ، تلقاه الحارس :

ــ الى أين ؟

سأله وهو يبرز من بــين حشد صغير ــ تجمع حولــه ، يرجوه ، يستعطفه ، ويتوسل اليه في السماح بالدخول ــ وهو يرفض ، ويستمتع برفضه ، وبأهميته التي يستشعرها من هذا الرفض •

ــ صحفي •

أوضح فضل للحارس ، فبادهه مستفسرا :

ــ ماذا تريد ؟

ارتفعت قليلا درجة نبض فضل ، وقد بوغت بالسؤال • «أريد شق رأس الوزير ، لأعرف بم يفكر ؟• » ــ قال لنفسه ، وأجاب على الحارس ملاطفا :

ــ وهل ستلبي طلبي ؟

ــ لا أدري • فما طلبك ؟

بوقار ، رد الحارس متسائلا • فبادهه فضل من جانبه :

ــ أن تسمح لي بالدخول •

وكأنما لم يسمعه الحارس ، عاجله بالرفض البات المعتمد كليا لديه :

ــ لا • ممنوع • بدون عمل • ممنوع •

أرتفع نبض فضل أكثر قليلا ، وارتفع صوته :

ــ هذا عملي ••

ــ أين البطاقة ؟

كاشفه الحارس بكلمة السر علنا • فدس فضل أصابعه حالا في جيب

قميصه • فرز بها مجموعة أوراق صغيرة على استعجال ــ منحنيا بجبينه على الجيب ــ بحثا عن البطاقة ••• ولا بطاقة • أكفهر وجهه • تطلع واجما بوجه الحارس ، فبحلق هذا بعينيه ــ وهو يهمهم لنفسه : « صحفي على باب الله • يحسبني •• يحسبني • لا أعرف ماذا يحسبني ! أهبل ! يحسبني سأسمح له • لكن كيف اذا أخرج بطاقة ؟ » في حين انتقلت يد فضل مستشارة من صدره الى عجيزته • رمشت جفون الحارس • وفي الجيب الخلفي للبنطلون ، دس فضل أصابعه أيضا • تحسس بها برهة في جيبه ، ولا يزال على وجومه بوجه الحارس • « كابوس • من الذي نصبك وكيلا على باب الوزارة ؟ هكذا أنت • وأنت مجرد حارس • فكيف سكرتيرة الوزير ؟ » •

ــ قال فضل في نفسه ــ وهو يستل بأصابعه محتويات الجيب •• مرة أخرى ، مجموعة أوراق أخرى • فرزها بين يديه ، وهو يحدث نفسه بصوت مسموع :

ــ الوقت يسر ، ولا ينتظر احدا •

ــ العجل من الشيطان • بعد سنين طويلة ، تحررنا قبل أيام من بريطانيا • فلماذا نستعجل الآن ؟

رد الحارس متهكما ، وأراد ان يستطرد ، فلم يدعه فضل ــ اذ وجد البطاقة :

ــ تفضل •

ودون ان يلتفت اليها ، سأل الحارس بلا مبالاة :

ــ ما هذا ؟

أجابه فضل :

ــ البطاقة •

وبتدقيق الشخص الجاهل بالشيء ، تساءل الحارس :

ـ أي بطاقة ؟

تلون وجه فضل .. أسود ، أصفر ، أحمر . بدت عليه الوان الغبش، وألوان الاصيل معا . وازداد افراز لعابه . « ما هذا ؟ هل أدفعه ، وأمر ؟ كلا . سيصرخ . والصراخ دائما مثل بيض البعوض .. سريع التكاثر ، وسهل الانتشار . فاذا صرخ حارس الوزارة ، قطعا سيصرخ وزيرها . المشكلة أن الجمهورية قائمة في المراسيم والاعلام فقط ، أما سلطتها فلم تقم بعد . ويريدون سحب السلاح من المليشيا . كلا . كلا . هذا لن يكون ، والرأس ثمن . » ـ تحدث فضل في نفسه ، ورد على الحارس موضحا :

ـ بطاقة العمل .

ـ أنت تعمل هنا ؟.

تساءل الحارس باستهبال منقطع النظير ، فاحتد فضل :

ـ قلت لك بأني صحفي .

ـ ها . وما شأني أنا ؟

عض فضل شفته . « شأنك التعجيل بعمر المواطن القصير البال ، والقصير اللسان .. ما دمنا تحررنا قبل أيام . » .

ـ شأنك أن تسمح بالدخول . هذا شأنك .

ـ لا . ممنوع . بدون عمل . ممنوع .

لكن فضل تجاهله ، مارقا بجواره ، مرتطما بالحشد ، مجتازا العتبة ، فالسلم ، الى الداخل بهرولة لولبيه . والحارس من ورائه ، يصيح به بأعلى صوته ـ ليرجع ـ دون أن يأبه له فضل ، ودون أن يكف هو عن الصراخ والملاحقة ـ لو أن الحشد ذاته لم ينفرط متسللا بأغلبيته الى الداخل ، مستفيدا! من أنشغال الحارس ـ وما عاد يعرف ما يفعل .. هل يتبع فضل، أم يمنع الآخرين .

ــ علوان • أرجوك • بلا تنرفز • أنا لا أعمل معك وحدك • الحكومة لم تصبح بعد بكاملها حكومتكم • هناك من يريدها لكم ، وأنا كذلك • فكيف سأحتد منك ؟ أنا لم أنفخ ، ولا أنفخ ، ولن أنفخ منك أنت • افهمني رجاء • خلال أربعة أشهر من الاستقلال صارت لنا تجربة مؤلمة جدا مع الانسحاق بالمجان •

قال فضل ، وهو يفتح عينيه دفعة واحدة ، بعد أن انتهى علوان من تقديراته القاسية عن كل الصحفيين • غير أن فضل أحس بأنه نفسه الذي بدأ التنرفز ، قائلا لنفسه عن علوان : « هو عاتبك ، وحسب • وان على طريقته الخاصة » •

ــ تأخرت كثيرا •

قال علوان لفضل ، وهو يدلف عليه في مكتب هيئة التحرير ، عقب عودته من وزارة العمل • فنظر فضل نحوه بصمت •

ــ قلت ستعود بعد ساعة بالكثير ، الآن الساعة الواحدة ؟

أضاف علوان • وأردف فضل لنفسه متذكرا كلام علوان : « ثم أنه لم يطالبك الا بما تبقى عليه من واجب ؟ وان بانفعال بعض الشيء ؟ » :

ــ لا يهم • اعطني الآن بقية مواد الصفحة الثالثة •• سأبقى اليوم بلا غداء بسببك •

فلم يتمالك فضل ما هدأ للتو من أعصابه • هب كالملسوع نصف هبة من مقعده ، ثم أنهبد عليه وهو يخبط المنضدة بكفيه خبطة أحمرت منها أصابعه نافخا بضيق شديد • « وما كان من داع للحدة والتأفف » •

أنهى فضل لنفسه بأداتتها ، وتبرير كلام علوان ، ثم أوضح له أنه لم ينفخ منه ، فاعتذر له علوان :

ــ العفو ، أنا لم أقصدك شخصيا ، لكني فوجئت ..

ــ حسنا . أعطيتني جزءا من صورة الصحفي الذي لا يعرف من هم العمال وهو يعمل معهم ، بل ويكتب عنهم . « والمسألة مسألـة سلوك أيضا . والا صارت الثقافة النظرية ترفا ذهنيا ، لا أكثر . والترف الذهني أبأس ترف وأسوأ » .

أضاف فضل لنفسه ، ثم أردف لعلوان :

ــ أنا أعتذر لك أيضا . سوء فهم مشترك ، طارىء ولا شيء مقارنة بما نواجه وسنواجه من مصاعب .؟

الولد المكرم المحترم علوان غالب بن غالب حفظه الله سؤالنـا عن صحتكم وأحوالكم ندعو الله العلي القدير أن تكونوا بخير وعافية كمـا نحن ولله الحمد نحن هنا يا ولدي ندعي لكم ليل ونهار بأن الله يزيدكم من فضلهوتكونوا تتفقدونا دائما ولو أنكم ما تقدروا تزورنا معالشغلالا الله والله نوصيكم عندما يكون هناك مسافر معروف لعندنا من طرفكم أتتم تعرفو يا ولدي أن الموت حق وهو مقدر ومكتوب وكلنا للموت ولا أحد باقي « وكل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجـلال والاكرام » ونحن ما كنا نحب نزعجكم لكن لا متى والحال عندنا ما يحمل السيل نزل وجرف الطين والبقرة مريضة علينا هذه الايام هكذا المصائب تجيء للمسلم من كل جهة وقد ماتت بنتكم « شامه » الله يعوضكم بها يوم القيامـة وتكون شفيعة لكم عند سيد الانام خاتم الانبياء والمرسلين عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصـلاة والتسليم ومن تبعهم الى يوم الدين ونحن ما قصرنا لما مرضت جرينا من عند سيد لعند سيد وسلمنا الامر والخيرة لله لما شفنا خسرنا الحال والمال واتتم يا ولدي لا تخلى على قلبك ولما يفتـح الله عليك ترسل لنا بفلوس خمسين والا مائة شلن مع حامل الخطابنقضي بها حاجتنا قضى الله جميع حوائجك والسلام ختام ويبلغكم السلام من

طرفه كاتب هذه السطور الفقيه الفقير الى ربه القدير حميد بن جازم بن حزام غفر الله له ولوالديه وأسكنهما فسيح الجنان ووفقه واياكم لما فيــه الصلاح والتقوى •

المعرف اليكم والدكم
(غالب بن غالب بن سعيد)

صعوبة أخرى !

لكن ليس كالصعوبة في أن تكون الحكومة للمحرومين من الحياة ــ وهم الذين يمنحونها البقاء والبهاء •

انسحاق آخر !!

لكن ليس كالانسحاق من أجل أن يعاد تصحيح وضع الحياة •

هنا التكريــم والاحترام عرضيان ، بالصدفة جــاءا • والسؤال عن الصحة والاحوال سؤال عرضي أيضا • الدعاء ليل نهار ، ذكر الله، الرغبة في تبادل الزيارة ، الشعور بمشقة العمل ، الارض المجروفــة ، المرض ، الموت ، وحتى كتابة الرسالة •• كل هذا جاء محكوما بالصدفة •

لكن !!

★ ★ ★

ــ سنواجهها • الصعوبات ! سنواجهها يا فضل ، مهما كانت • سنتعلم مواجهتها ، وسنتعلم كيف نواجهها • ماذا نملك حتى نخاف أن نخسره ؟

أجاب علوان ، فتلألأ شيء ما في صدر فضل وفي رأسه ــ شيء صغير صغير كالنجمة البعيدة البعيدة ، في الافق القصي ــ لتتلألأ عيناه وشفتــاه بابتسامة رقيقة شفافة •

ـ الآن نملك جمهورية • ملك يعز علينا •

قال فضل ، فتحرك علوان الى الامام قليلا ، باتجـاه فضل وتساءل باستغراب مشوب بالتوجس :

ـ نخاف أن نخسره !•

ـ طبعاء الوضع الآن جاد جدا • فاذا صارت الجمهورية علما وسلاما جمهوريا ومكتبا لوزير ومعسكرا لعقيد ، ضاعت من أيدي الشغيلة •

أجاب فضل ، وأردف مفصلا :

ـ الوزير لم يقاتل ضد الانجليز الا بدافع الطموح في الوزارة •• ووزراؤنا اليوم صنفان •

ـ ومن لا يطمح أن يكون وزيرا ، ما دام يشعر انه يستحق الوزارة ؟•

ـ من لا يستطيع أن يطمح بها ، حتى وان كان يستحقها ، لكن مـن الذي يحدد هذا ؟ هل الشخص نفسه ؟

ـ بالتأكيد لا •

ـ إذن ! من ؟•

سأل فضل • فأتكأ علـوان على حائط المكتب تحت لوحـة الازرة الكهربية بين المنضدة والباب ، وأجاب بنبرة تحصيل الحاصل :

فبادهه فضل :

ـ ولكنهم لم يسألوني ، مجرد سؤال فقط ، عندما أختاروا وزير العمل مثلا ، هل يستحق الوزارة أم لا ؟

فضحك علوان بأنشراح ، وأضاف من جانبه :

ـ ولم يسألوني أيضا • لكن ربما لاني غير مثقف في نظرهم ، أو لاني قاتلت أقل :

ـ هذا ليس مقياسا كافيا الآن ، والقاعدة هذه تكاد تكون مقلوبة ـ لاعتبار واحد هو أن الجبهة القومية مزيج مركب من البشر .

ـ واذا قلنا ان القيادة العامة هي التي تحدد ؟
تساءل علوان . فأجابه فضل :

ـ سننبش جرحنا الغائر غير الملتئم ـ لان القيادة العامة ، في الواقع ، قيادتان ـ أحداهما هي العامة بالفعل وهذه قطعا ليس منها أمثـال وزير العمل .

ـ اذن . لماذا لا تكتبون عن هذا في الجريدة ؟

ـ ليس الآن . ونحن لا نريد أن نموت ببطء بسبب الكلمة . تكفينا حوادث الاغتيال المعنوي من جراء افتتاحية (الثوري) في يناير الماضي .

ـ تعرف اني أحس بأن الرجال يحبلون أيضا .
ـ اليوم صارت اليمن كلها حبلى .
قال فضل ، وصمت قليلا ـ ليستطرد :

ـ هنا يحبـل الجميع . وفي الشمال يحبـل الجميع فكما يحبـل الجمهوري الديمقراطي هناك ، يحبل الملكي المجمهر أيضا . وهنا كما يحبل الفلاح الفقير وتحبل أنت وأحبل أنا ، يحبل العقداء في الجيش ومـلاك العمارات والمنازل المؤجرة ورجال الدين .. أما من الذي سيضع حملـه قبل الآخر ، فالشيطان وحده أعلم . لكن هذا أفضل لليمن من أن تكون عقيمة .

ويسر الوقت . تنصرم ساعة أو بالكاد . ينصرم موعد الغداء . ينساه علوان كليا ، ما لبث فضل بجواره . وكلاهما مطرق ـ يسرح النظر في القريب البعيد . « الترقيع لا يعـوض عن مشقة تفصيـل قميص جديد للدولة ، من قماش الثـورة . والتخبط في الموروث والمألـوف سيؤدي

بسفينة الجمهورية والجبهة القومية الى الغرق في لجة محيط الوصاية من وراء المحيط • » ــ يقول فضل لنفسه ، ويرفع علوان هامته ــ وهو يهز يده قائلا :

ــ ايه • ايه • حبال الثورة طويلة ، والعمر قصير • لكن لن نفصل الاثنين عن بعضهما ، ونحن لا نعيش لانفسنا • وراءنا أطفالنا ، والموت مرة في العمر • اعطني المواد ، سأذهب •

ــ والغداء ؟

ــ يكفي أن يتغدى عني الوزراء والعقداء ؟

ــ سنتغدى سوية هنا •

ــ لا داعي • سأصبر الى أن أنتهي ، وأخرج •• أتحمم وأبدل ثيابي وأذهب للغداء والعشاء معا • اليوم فقط منذ نصف شهر أعادوا الماء الى المكان الذي نسكن فيه ، وهو بلا كهرباء هل تصدق ؟

ــ يحدث ، وسيحدث • أنكم في السكن بلا كهرباء فبالصدفة • وأنكم فيه بكهرباء فسيكــون بالصدفة أيضا • لكنكم مسلوقــون على سوء الصدف • هذا من جانب ، وأنهم قطعوا الماء ، فبالصدفة وغيركم لم يسدد ما عليه قانونيا منذ الحرب الاهلية الاولى ، لان الصدفة صارت هــي القانون • وأنهم أعادوا الماء اليوم ، فصدفتكم الحسنة الوحيدة • كل هذا لا يهم الآن •• المهم ألا تبقى بدون أكل •

قال فضل • ثم أقترح فجأة :

ــ ما رأيك بأن تتغدى عصيدا من الدخن مع المرق الحامض ؟

يعجب حتى الوزراء !

فابتسم فضل بامتنان بالغ ، ووافق بشهية مفتوحة على آخرها •

ـ أما المواد فسأغطي بنفسي ما نقص منها . كنت في وزارة العمل دون جدوى . خرجت منها متسللا ، كما دخلتها مشفوعا بغضب الحارس .

أردف فضل وهو ينهض ، يسبقه علوان ، خارجا من المكتب .

(في الركن الايسر من مدخل المطبعة ، يقع مكتب هيئة التحرير . جحر .. ولا يمت الى الجحور بصلة . غرفة .. ولا تمت الى الغرف بصلة . قطعة لا مستطيلة ولا مربعة ، مفصولة عن بقية القبو بحاجز من (الماسنيت) ـ لأمكان تشغيل جهاز التكييف القديم فيها . وفيها ثلاثة مقاعد ، وتلفونان ، ومنضدتان ـ احداهما هي الصالحة والمستخدمة للعمل . أما المنضدة الثانية ، فبمثابة سطح للنفايات غير الضارة للغاية بالصحة .. اذ تتراكم عليها أشياء كثيرة غير متجانسة : قصاصات أوراق مستهلكة ، محابر مواد فارغة ، قاموس انجليزي ـ انجليزي ، دليل هاتف يرجع اصداره الى سنة ١٩٦٤م ، كتيب (التقويم الفلكي) المشهور الصادر عن دار طبع مصرية لمؤلف يمني مشبوه من زبيد لعام ١٩٦٧م ، بقايا بيض مطبوخ بالفاصوليا ، فتات خبز يابسة ، علب ثقاب فارغة ومسامير بأحجام مختلفة .. خليط غريب لا يربطه أي رابط ، لا بالجريدة ولا بالمطبعة ولا بالمكتب ولا بالمنضدة ولا ببعضه . والى يسار باب المكتب من الخارج ، في الممر الضيق بين حاجز المكتب والجدار الايمن القائم عليه سلم الطابق الفوقي المسكون تتكدس اوراق الطباعة البيضاء المصفرة ، داخل أغلفتها الزرقاء الحائلة الزرقة ، تتكدس في وضع يشبه وضع فراش قطني ملفوف نصفين . أو يشبه بالاحرى ـ في هذه الحالة ـ وضع وسادة كبيرة . أجل .. وسادة تفي بالغرض من كونها متكأ لمقيل عمال المطبعة بعد عودتهم من الغداء ـ سواء لمن يمضغ (القات) منهم أو لا يمضغه) .



ــ من سيكون معي الليلة في النوبة ؟

سأل توا ، بعد ان حياهم • هو احد الصحفيين في هيئة التحرير • اسمه الشائع : محمد عمر عبدالله • مثله مثل فضل قاسم في الثلاثينات من العمر ، سريع الحركة ، حاضر البديهة ، حساس تجاه المهازل ، وذو قدرة عالية على التقاط الحدث أو الظاهرة وتحليلها واعطاء رأي واضح ودقيق عنها • وكفضل قاسم أيضا عمل مدرسا قبل اختيـاره عضوا في هيئـة التحرير • وقد برز كمثقف وكاتب ثوري ديمقراطي منذ ان بدأت النشرات اليومية والاسبوعية التنظيمية في الظهور ، وكان واحدا مـن محرريها الاساسيين •

وبدون ان ينتظر الرد على سؤاله ، أضاف محمد عمر :
ــ الافتتاحية جاهزة وخبران للصفحة الاولى •

ــ الى الآن لم نرتب من سيصف الصفحة الاولى مع سعيد عثمان • لان عبد المجيد نعمان مريض وعلي مقبل مسافر •

رد العامل المختص بتوزيع العمل بين الصفافين •
ــ عليك مهمة الترتيب ، وهذه المادة الجاهزة ، ليبدأ بها سعيد •

سأذهب واعود في المساء ، واذا وقعت على خبر بالصدفة سأمليه عليكم تلفونيا • اتفقنا :

ــ وهو كذلك •
قال مسؤول التوزيع مصادقا على مسؤول النوبة التالية :

ــ وكما يتوافدون في العاشرة صباحا ، يتوافدون في الثانية ظهرا • نفس الوجوه المهمومة ، نفس الاكتاف المتهدلة تحت الثقل غير المرئي اياه، نفس الايدي المعروقة ، نفس القمصان و (الفوط) والشباشب ••• ونفس الروح الخفيفة الحالمة التي ولدت الجمهورية ، وولدتها الثورة ــ سيان ،

والولادة واحدة . يتوافدون بضجيج مكبوح . يتناوبهم معه احساسان. الاحساس بأن ضجيج المطبعة ، الشارع ، المدينة ، الوطن ، والعالم كله انما انعكاس لضجيجهم هم — لضجيج احاديثهم وصمتهم ، تعليقاتهم وانطوائهم ، نكاتهم وغضبهم ، ضحكهم وحزنهم . اما الاحساس الآخر فمبعثه كونهم يعملون تحت مبنى سكني ، فيه الطفل النائم والمسن المريض .

يتوافدون ، وينتظرون . ينتظرون ما تبقى من مواد للصف ..

وهذه في توفرها تخضع لمشيئة الصدفة ، التي لا تختلف في الغالب عن مشيئة حراس أبواب الوزارات والدوائر الحكومية . فالمشيئتان من بعضهما .

غير ان عمال مطبعة الجريدة اليومية الوحيدة، في الجمهورية الجديدة لا ينتظرون عبثا . انما يجلسون سوية ، من يمضغ (القات) منهم ومن لا يمضغ . يتحدثون في شؤون الحياة والناس ، ما دخل منها في الذكرى والتاريخ ، وما هو حاضر منها ، وما هو آت . حلقة صغيرة من صنع المطبعة، لكنها غير خاضعة لها ، اذ يسلك أفرادها حق الحديث عما يشاءون، مما في نطاق القانون والعرف والتقليد أو خارجه . واذ هم على وشك التجمع لعقد حلقتهم اليومية ، عائدين الى المطبعة من السوق ، عقب الغداء يفاجأون بعلوان واقفا أمام الباب الخارجي للمطبعة ، وكانوا قد افتقدوه اثناء الغداء .

— أنت هنا لم تخرج ؟

تساءل الاول متعجبا ، فأتبعه الآخر بسؤال محدد :

— لم تتغد ؟

— سنتغدى أنا وفضل . تحدثنا حتى انتهت ساعة الغداء .

ـــ ومتى عاد فضل ؟
ـــ بعد خروجكم بقليل ، وكنت سأخرج بدوري .
ـــ ولماذا لم تخرج ؟

فاذا بفضل يهل . يهل تسبقه يداه عند دخول الباب ، ويسبق يديــه طبقان نحاسيان أحدهما فوق الآخــر ، وتغطي أعلاهما ورقة من جريدة أجنبية .

ـــ صلاتنا ليست ضعيفة . لنا علاقة حتى بباعة العصيد .

علق فضل بحبور ، وهو يومــىء برأسه نحو الطبقين ، ويدلف الى مكتب هيئة التحرير .

ـــ والاوعية من أين ؟

جاءه السؤال مازحا من أحدهم ، عبر الباب المفتــوح ، فأجاب عليه فضل ، وهو يضع الطبقين فوق المنضدة الاستثناء في المكتب :

ـــ هذا سر لا يكشف .
ـــ لك علاقة بامرأة عجوز أيضا .
مازحه آخر معلقا ، فانطلقت ضحكة جماعية خفيفة جذلة .

ـــ العجوز تعطي ، ولا تأخذ ، هل تعرف ؟ ثم لماذا افترضت أنهــا عجوز ؟ لماذا لا تكون شابة مطلقة أو أرملة .

رد فضل وهو يطل من باب المكتب ضاحكا ، فارتفعت وتيرة الضحك الجذلان .

حين يتقاسم العمال مواد الصحيفة لصفها ، يبدو وكأنهم سيتناولون وجبة غير مستساغة وهم جياع فيأخذ كل منهم ما عليه بدون رضىوبدون سخط باستكثار النصيب الشخصي وتقليل قسمة الآخرين .

ــ أنا بشر ، ولست ماكنة ٠

يحتج أحدهم ، فيثنيه مسؤول التوزيع عن احتجاجه :

ــ ما معك أقل مما مع غيرك ٠

فينبري آخر ساخرا دون استياء ، وقد حدس أنه المقصود من عبارة مسؤول التوزيع ٠

ــ ولماذا لا تعطوني كل المواد أصفها ، وتهجعون من التعب ؟

فيجيبه أحدهم معلقا :

ــ كلنا أولاد تسعة ٠ وكل العمل معنا رصاص في رصاص ومداد في مداد وسم وموت ٠

ــ وكيف عرفت أننا سنموت مسمومين يا وجه الغراب ؟

ــ حلمت بذلك في النوم ٠

ــ وبم حلمت ؟

ــ حلمت بأننا جميعنا مرميون هنا في المطبعة على الارض ، نسبح في بركة من القيء وفوقنا أسراب من الصراصير والذباب تأكل من لحمنا ٠

ــ وما الفرق ؟ سواء متنا مسمومين برصاص الحروف أو متنا بالسل والتيفود ؟

سأل آخر ،فساد على الاثر صمت ذاهـل بين الكـل ، عدا الرنين الخافت للاحرف الرصاصية في أيديهم ، تتسق الكلمات من خلاله ٠ وبغتة يتنبأ أحدهم بلهجة متشائمة :

ــ أحس ان ١٤ اكتوبر اخرى ستنفجر ٠ ١٤ اكتوبر او ١٤ ديسمبر او ١٤ ابريل ٠٠ المهم ١٤ أخرى ٠ لكن ضد سود العيون هذه المرة ٠

ــ سأكون فيها أول من يحمل بندقية ويقاتل ٠ ولو انها لن تكـون

الفاصلـة ، ما دامت طائرات الهوكر هنتر ودبابات صلاح الدين لا تزال بيد عقداء الجيش •

ــ ولماذا ؟ نحن نستطيع ان نقاتل أيضا من هنا اذا أردنا •
ــ من الوالد ؟

سأل علوان متأكـدا من زائره بسهوم غير ملحوظ • فأجابه الزائر بالايجاب ، ثم ودعه على أن يعود اليه صباح اليوم التالي ، وانصرف • كان علوان قد صف الخبرين الاولين للصفحة الاولى ، ما دامه سيحل في نوبة العمل محل أحد العاملين الغائبين ، على ان تحسب له بالمقابل ساعات عمل اضافي • ثم نهض متجها لفضل في مكتب هيئـة التحرير ، ليعـود مستوفيا بقية مواد الصفحة التالية ، فينكب عليها •

واثناءها يصل الى المطبعة شخص غريب يسأل عن علـوان • يراه • يقترب منه يحييه • يلتفت علوان على الصوت • يزهر وجهه بابتسامـة سرور جميلة • يرد التحية • يمد نصف ذراعه العلوي لزائره • يتصافحان • يتبادلان الاعتذار برقة ومودة • الزائر يعتذر لانه جاء في ساعة عمـل ، ويوضح انه ظل يبحث عن مكان المطبعة منذ الظهـر • وعلوان يعتـذر للسبب ذاته • ثم لا يبرح الزائر حتى يسحب مظروفا مدعوكا من جيب داخلي في معطفه المهترىء • سلم المظروف لعلوان • يحدق علوان بوجه المظروف ، ولا زال بيـد الزائر • يقرأ بصمت : (الولد المكرم المحترم علوان بن غالب حفظه الله) • يعرف الخط ، ويعـرف من خلاله جهـة الارسال ، لكنـه مع هذا يتأكد من الزائـر • يقرر علـوان في نفسه : « سأقرأها في الليل • بعد أن أخرج • يريدون فلوسا لا شيء آخر • لا يشتاقون • ولا يحنون • ولا يحزنون لي » يفكر بالمبلغ المتوفر بحوزته « مائة شلن لا تكفيهم ولكن •• من أين لي أكثر ، ثم يضيف متذكرا قد بعثت لهم بمائة أيضا في الشهر الماضي » ويصمت برهة خاطفة ليستدرك

« لا قبل شهرين وهذا هو الشهر الثالث ، وأنا لم أبعث لهم بشيء • كيف تمر الشهور بسرعة • الارض تكفيهم والبقرة تغنيهم • ولو لا بد من تدبير خمسين شلن أخرى ، او ثلاثين • سأستدينها من المعاريف اذا رفض الخباز » • ثم لا يلبث حتى يعود كليا الى صندوق الحروف أمامه • فينتهي من صف آخر كلمة في العمود الاخير من الصفحة الثالثة مع انتهاء زميله من صب الصفحة الثانية كاملة في قالبها الاخير •

وتدور عجلة آلة طبع البروفات ، فما ان تبرز بروفة الصفحة الثانية حتى يكون علوان في الخلف من زميله ، يعقبه على عجلة الآلة • واذ تبرز البروفة ، يسحبها ويمضي بها الى مكتب هيئة التحرير لتصحيحها • ثم يعود ومعه بروفة الخبرين مصححة بالقلم ، كما يصححها بدوره في قالبها مباشرة •

وتدور عجلة العمل أسرع وأشمل • يصل العامل على آلة الطباعة • يخلع قميصه ويعلقه بين بقية قمصان زملائه بعيدا عن الايدي • ثم يتجه الى الآلة • ينحني تحتها • يدهنها من الاسفل • ينتصب • يكشف غطاءها • يدهنها من الاعلى ، يعبئها بالحبر المعجون من أنبوبة طويلة ، يتجه الى أكداس الاوراق • يحمل رزمة وأخرى وثالثة • يشرع يعرق • يلقم الآلة بالرزم • يتركها • يصعد على مرتفع خلفها • يسير باتجاه المرحاض •• ولان الآلة هالكة من طول ما اشتغلت ، يظل عاملها صاعدا هابطا المرتفع خلفها ، باتجاه المرحاض ، حتى ليحسب الشخص الغريب على المطبعة ان العامل مصاب بمرض ما ، يضطره الى دخول المرحاض بين الفينة والفينة ، اذا فات هذا الغريب أن ينتبه الى أنه على جدار المرحاض من الخارج تقع لوحة أزرة المطبعة الكهربائية ، حيث يقف العامل ليضغط أحدها ، فتعلن آلة الطباعة عن وجودها ، طاغية على جميع الاصوات داخل المطبعة الى الشارع • ويسأل الطبّاع حينئذ عن قالبي الصفحتين

الثانية والثالثة ، فيدلونه عليهما • يتجه نحو أحدهما • يتعرف على رقم الصفحة فيه • يحمله الى الآلة • يضعه في موقعه منهـا •• وهكذا قالب الصفحة الاخرى • ثم يسويهما معا • يشدهما بخيوط متينة ، ويوضبهما نهائيا بقطع صغيرة خاصة من حديد الزهـر • وبعد ذلك يضغط زرا في الآلة أسفل يده الى اليسار ، فيأخـذ جزء من الآلة يتحرك مراوحا الى الامام والخلف ، يقذف في كل حركة أمامية بنسخـة مطبوعة • فتقفـز الاولى ملطخة بالحبر ، والثانية مشربكة الحروف ، وتقفز الثالثة واضحة نوعا ، والرابعة والخامسة نصف وضوح ، وما تلي أوضح فأوضح محتوية مواد الصفحتين الثانية والثالثة من الجريدة اليومية الوحيدة في الجمهورية الجديدة لعدد يوم الجمعة الموافق للعشرين من مارس ١٩٦٨م•

ويتوالى الصف والطبع محتفظتين لوتيرتهما بالاطـراد • وتكـون الصفحتان الاولى والاخيرة في طريقهما الى آلة الطباعة • ويكون الطاقم الليلي من عمال الجريدة على وشك الانتهاء من عذابات أحد أيام العمر حين بلغ الوقت الساعة الثانية ليلا• واذا بملازم ثان متعجرف، ثلة جنود، سيارة عسكرية ، دبابة ، فوهتها مسددة نحو مبنى مطبعة الجريدة •

ــ أوقفوا العمل •

انزلق بصوته الى قلب المطبعة ، شاهرا مسدسه •

ــ أين الجريدة ؟

وترابيس البنادق تحشرج • ويحتل جنديان مكتب هيئـة التحرير ، ويركض أربعة آخرون خلف الملازم • فاذا بعلوان يشزر الملازم بنظـرة شرسة ، وهو يقول له :

ــ وضعتم حملكم مبكرا •

فيسأله الضابط بتوتر :

ــ ماذا تقول ؟

ـ ماذا تقول أنت ؟
رد علوان ، فصرخ به الملازم :
ـ وقح •••
قاطعه علوان بشجاعة :
ـ سنتفق على هذا فيما بعد • ماذا تريدون ؟
ـ لم تسمع !• ستسمع الآن •

قال الضابط وأشار بيده الى الجندي القريب من علوان ، لتطبق في الحال كف الاول على كتف الثاني بخشونة •• ويختفي علوان على الاثر من المطبعة ، وهو ما استحم ، ولا قرأ رسالة أبيه بعد ، وفيها الخبر بموت طفلته (شامة) ثالثة بناته الاربع ، وما بقي له حيا منهن سوى الصغرى والاخيرة •

ـ أقول أين الجريدة ؟•
أعاد الملازم سؤاله مهتاجا ، فطالبه الطبّاع بغيظ مكتوم قائلا :
ـ اتصلوا برئيس التحرير •
ـ أنا الآن رئيس التحرير • لا أريد مزايدة •

صرخ الملازم بالطبّاع . واذا بمسؤول نوبة الليل يتصدى له ، وقد خرج من المكتب ، بعد أن أخفق في استدراج الجنديين لمعرفة ما حدث :

ـ ومن الذي يزايد الآن ؟ لا نفهم شيئا مما يجري ••
فحدجه الملازم ، متسائلا باستهتار :
ـ صحفي •
ـ تقريبا •
ـ صحفي أحمر ! أو أسود !
ـ صحفي تقدمي •
ـ تشهد لنفسك !•

ـــ معك ، أتشهد على نفسي •• وهذا شرف لي •
ـــ ما أسمك ؟
ـــ اسمي لا يهمك • ورغم هذا ، فأنا المواطن محمد عمر عبدالله •
ـــ مواطن ملوث • مستورد •
ـــ أخطأت ، وأنت تعرف من الملوث حقا •
ـــ من ؟
صرخ الملازم بغضب مذعور :
ـــ من أمر بتفريق مهرجان اليوم أمام مقر التنظيم ، بالدبابات ••
ـــ هه • للاسف •• مع أنكم كنتم تريدون قراءة الفاتحة جماعيا الى روح لينين !•
ـــ كنا نريد قراءة آية الكرسي لسحق جهاز الكراسي الانجليزية في الجمهورية •
ـــ والجيش • أي آية كنتم ستقرأونها لسحقه ؟
ـــ لا قرآن مع الجنود في الجيش • انما سنغني سوية نشيد الحب للميليشيا والوطن •
ـــ لا تتحدث عن الوطن يا قذر •
ـــ أي وطن تقصد ؟ أنت واهم اذا كنت تحسب أن اليمن ستكون وطنا لابن شيخ قبيلة رصع الانجليز اكتافه بالشارات العسكرية •
لكن الملازم استدار مشمئزا ، يسأل العمال :
ـــ ألا تسمعون ؟•
فلم يدعه مسؤول النوبة :
ـــ لماذا تريدون الجريدة ؟ ولماذا جئتم قبل كل شيء ؟
ـــ أسكت •• هذا لا يعنيك •

ــ رد الملازم على الصحفي ، دون أن ينظر اليه .
ــ أنا مسؤول النوبة ، ومسؤول أيضا عما يحدث الآن في المطبعة .
ــ أنا المسؤول الوحيد الآن . هل تفهم ؟
ــ أفهم .
وأستدار بحدة ، قائلا :
ــ سأتصل بوزير الثقافة .
ــ بالرفيق !!
تساءل الملازم بسخرية شديدة ، وأردف ضاحكا :
ــ زمانه الآن في جهنم .. يعتذر لماركس وأنجاز عن فشله .

فتخور قوى الصحفي . يلبث مصعوقا في مكانه . يغيب عن نفسه . تتلاطم أمام عينيه أمواج من الدم الاحمر القانـي .. تهـدر متدفقة من زنزانة ما . تكتسح كل أراضي الوطن . تغرق البحر والسهل والجبل . فينتفض الصحفي من غيبوبته خائفا عنيفا :

ــ خسئت . شعرة واحدة من رأس رفيق منزوعة بأيديكم ، سننزع عليها حناجركم واحدا واحدا . والجريدة الآن لكم و ...

وتدوي صفعة شديدة من كف الضابط بوجه الصحفي .
ــ لن تنام مع زوجتك الليلة يا خنيد ... فاخرج حالا من هنا .
ــ لن أخرج . سألحق بالصفاف . أعرف .

ويغتاظ الملازم أكثر . تثور ثائرته . ويتلقى وجه الصحفي صفعتين متتاليتين ، ورشة من رذاذ فم الملازم :
ــ أقول لك أخرج ، تخرج بسرعة كالفأر .
ــ الامر واضح .. انقلب سادتك الليلة .
رد الصحفي ، وهو على وقفته بوجه الضابط ، فاختطفه هذا من كتفه بقسوة شديدة ، ودفعه أمامه بغلظة وهو يهذي مسعورا :

ــ شيوعيون كلاب •• أينمـــا تذهب تجدهم • سنصفـــي الارض منكم ، ونصفيكم منها •

دون أن يدعه الصحفي وهو يتدافـع تحت قبضته ، باتجاه البـــاب الخارجي للمطبعة هادئا ، رابط الجأش اذ أجابه بقوله :

ــ سنرى من سيصفي الآخر • عساكـــر أوباش •• يضيع كل شيء على أيديكم • سنصفيكم صباح يوم ما •

موسكو ــ اكتوبر ١٩٧٧م

السفينة

بقلم
محمد مثنى (١)

كان نصف قرص الشمس يلوح من خلف جبـال السماء الشرقيـة الداكنة ، ويرسل بعضا من شعاعـه الذهبي الى شاطىء البحر الاحمر ، فيلامس الشعاع رؤوسنا وأجـزاء من ظهورنا ، وكنا منشغلين عنه بحزم أمتعتنا والتأكد من حاجياتنا التي أعددناها للرحلة .. تلك الرحلة التي لم نكن قد فكرنا بها بصورة جدية مسبقا وأعددنا لها العدة ، وانما كانت بالنسبة لنا مجرد أمنية منذ زمن بعيد وحلما يراودنا كجمهورية أفلاطون الفاضلة ، واسطورة الف ليلة وليلة نحن الاصدقاء الاربعة ، أنا والملازم حسن قبل أن يكون ملازما ، والجندي حزام قبل أن يكون جنديا بالحرس الوطني ، وصالح الشيخ سابقا ومدير المؤسسة الحديثة حاليا ، وصديقنا المصري الجديد (وهبة) الذي انضم الينا حديثا .

---

(١) ولد سنة ١٩٤٥ بمدينة الحديدة ، وهي اكبر موانىء الجمهورية العربية اليمنية ، بدأ حياته الادبية سنة ١٩٧١ ، وأول قصة نشرها هي قصة « الجوهرة » بمجلة «الكلمة» ، اصدر سنة ١٩٧٦ مجموعته القصصية الاولى بعنوان « في جوف الليل » ، ينشر في معظم المجلات اليمنيةمثل: الكلمة ، الحكمة ، اليمن الجديد .

اما قصته « السفينة » فقد نشرها في مجلة « اليمن الجديد » (مايو ١٩٧٦) .

كان الناخوذة (ابو علي) منهمكا بتنظيف سكان السفينة وتشحيمه بالزيت ، ومساعـده (الخليل) يوضب المجـاديف ، وكنا الخمسة .. صالح وزوجته وأطفاله ، والملازم حسن وزوجته الحامل ، وأنا والجندي حزام ، وصديقنا الجديد وهبة .. نقف على الشاطىء بين شمس الشروق نحمل أمتعتنا المحزومة بين أيدينا ونستعد للصعود ...

وبهزة من رأسه أشار الينا الناخوذة بالصعـود . تقافزنا الى ظهـر السفينة في فرح ، وشغل كل منا حيزا على ظهرها . جلس صالح بالقرب من زوجته وأطفاله . وجلس الملازم حسن بالقرب من زوجتـه الحامل ، وجلسنا أنا والجندي حـزام ووهبة في الجانب المقـابل . نظر الناخوذة أبو علي صوبنا في ابتسامة ودودة ، وهز رأسه ، ثم قال والابتسامة ملء شفتيه :

ـ لنتوكل على الله .

كان قرص الشمس يناضل دؤوبا للتخلص من جبال السماء الداكنة يرسل الينا بعضا من أشعته البنفسجية الهادئة عبر صفحات مياه البحـر وأمواجه ... لكزني الجندي حزام بمرفقه وقال :

ـ الى أين « بانروح » الآن ؟؟

ـ الى الطايف ، هل « رحت » للطايف من قبل ؟

ـ لا ...

ـ الطايف منطقة باردة .. اذا خيرت فلن أختار غيرها .

ـ ولكني سمعت صالح وصديقنا وهبة يقولون الى جزيرة أ ...

ـ سنقنعهم برأينا .. أنت معي ؟.

ـ أنا لا أعرف الطايف ، ولكني أثق بك .

استدار وهبة صوبنا بعد أن قطع الحديث مع صالح ، وقال :

ـ ما رأيكم لو ذهبنـا الى « جبل زقر » .. احنا عندنا بيحبـوا الرحلات في الجزر اللي تحتها ميه .. بيقولوا ان هذا الجبل عندكم حلو زي ما عندنا .

قلـت :

ـ أنا لو خولتموني .. لاخترت لكم (الطايف) منطقة النخيـل والهدوء والبحر والمياه العذبة على بعد أمتار من الشاطىء ...

ضحك صالح طويـلا بصوت مسموع في سخريـة ، ثم توقف عن الضحك وقال :

ـ يا جماعة .. يا جماعة أنتم تختلفون من الآن والسفينة لم تخلف من الشاطىء الا بضع مترات ... دعونا نمشي وبعدين نتفق .

قال الملازم حسن في جدية :

ـ لكن الرحلة رحلتنا ، وما يمنعنا من تحديد مسارها من الآن ؟

اغتصب صالح على شفتيه ابتسامة وقال :

ـ أنتم أحرارا اتفقوا أما أنا .... وصمت .

ـ أما أنت فماذا ؟

ـ أنا مع رأي الناخوذة .

ـ ليس من حقك يا صالح الاتفاق من وراء ظهورنا .

ـ على كل حال اطمئنـوا قال انه سيأخذنا الى الجزيرة التي قال عليها وهبة .

وأضاف وهو يستدير بوجهه بعيدا :

ـ وأنا شخصيا موافق على رأيه .

تراشقت عيناي وعينا الجنـدي حزام والملازم حسن بنظرات صامتة

تحمل ألف معنى • استدرت بعدها الى اليسار ورنوت الى أعلى ، وبهمة من عزت عليه رحلة الحلم التي لا يمكن الا ان تكون بهيجة ومرحة الى أقصى حدود البهجة والمرح مهما اعتراها من خلاف قلت :

ـ انظروا • وأشرت باصبعي نحو الشمس • استدار الجميع ينظرون • كانت الشمس تبدو ساكنة في حافة الافق البعيدة الى الشرق بلونها الوردي ، تحيط بها سحابات داكنة ممزقة كالشظايا على مبعدة منها •• تغازل الشاطىء والامواج ووجوهنا بذيول أشعتها الوردية •• فتضفي على الشاطىء احمرارا خلابا ، وتزيح الدكانة من رؤوس الموج ، وتمسح من أعيننا بقايا النعاس •

الناخوذة يمسك بالسكان في ثقة ، ويهمهم بأغنية •• « يا بايك البحر خذ من البحر أصدافه وأسماكه •• جدف بهمة وخوض بين أمواجه •• شوف البحر لاهل الهمم يعطي أرزاقه أما الكسالى فتاهو بين أمواجه »• تحملها نسائم الصباح وتردد أصداءها الينا • المساعد الخليل •• يجدف بهمة ، ورأسه تتلاعب نشوى من الاغنية • تسربت عدوى النشوة الى نفوسنا ، فاستدارت وجوهنا ترقب الناخوذة في فرح ، أعماقنا تهفو ، وآذاننا لا تستوعب من الاشياء الا هدير الموج الهادىء وأصداء الاغنية •• السفينة تمخر عباب البحر وتتهادى راقصة بدجلها الشامخ كالعلم بخطوطه البيضاء والسوداء والحمراء •• تشق أمواجه بهدوء ، وتخلف شقوقا من الرغو كالشظايا على سطحه • صديقنا وهبة يجهد نفسه ليفهم معاني الاغنية ، فتطوعت له بايضاح ما لبس من كلماتها • لم يكن للوقت ولا لساعات الزمن حساب في أذهاننا •

كانت السفينة قد خلفت الشاطىء ببضع مترات • نسمات الهواء المحملة بروائح الطحالب والسمك تداعب أنوفنا ، وذيول شمس الضحى تغمرنا بفيض من أشعتها • معنوياتنا مرتفعة، وفي أقصى حدود الاستعداد

النفسي للتمتع بالرحلة • تململ وهبة ورفع ذراعيه الى أعلى يمططهما ، ثم أعادهما الى وضعهما السابق وقال :

ــ يا جماعة ليه ما نلعبش ، أو نعمل أي حاجــة تسلينا في الرحلــة الطويلة دي •••

ــ مثل ماذا ؟

ــ أي حاجة •• كوتشينة •• طاولة •• تنس •• أحضرت معاي كل حاجــة •

تناول الجراب برفق من تحته ، وفتح رباط عنقــه بهدوء ، وقبل أن يضع يده على لعبة منها •• قال صالح :

ــ التنس يا وهبة •• التنس لعبة مناسبة •

أخرج المضارب والكرة ، وقذف لصالح الذي كان قد اتخذ مكانه في مقدمة السفينة بمضرب ، وأخذ هو المضرب الآخر بيد ولملم الكرات في اليد الاخرى • وقف في الجانب المقابل •

وثق المضرب في يده وقذف لصالح أول كرة • طارتالكرة فيالهواء، ولاحقتها عينا صالح في بلاهة • سقطت الكرة الاولى في الزاوية اليسرى للسفينة طيّر اليه الكرة الثانية ، فاهتــز عدة اهتزازات وطوّح بجسمه ليلحقها ، لكنها سقطت في الزاوية اليمنى • صد الثالثة فطارت مائلــة ، وانحرفت الى البحر • كنا جميعا والناخوذة ومساعده الخليل تتفرج على اللعبة ، وأعيننا تلاحق الكرات المتطايرة في الهواء • صوّب وهبة نظرة صامتة في اتجاهنا لا تخلو من معنى ، وطوى مرفقه على المضرب ، وراح يجمع بقية الكرات • سحب الجراب من تحت مقعده وفك رباطه برفــق مرة أخرى ودحرج الكرات داخله واحدة بعد أخرى ، وأتبعها بالمضارب•

جلس واستنشق هواء ملء صدره ونفثه بزفرة واحدة • نظر الى صالح وهو يغتصب ابتسامة على شفتيه ، وقال :

ـ قليل •• قليل ، وستجيد اللعبة من أحسن ما يكون •

كانت الشمس قد استقـرت في منتصف السماء •• تعابث المـوج وصفحات المياه والسفينة بأشعتها الفضية (السبتمبرية) الدافئة وسحب خريفية داكنة تحيط بها ، ولكن لا بأس على مبعدة ، وكانت السفينـة تتهادى بدجلها الشامخ حثيثا وتواصل طريقهـا في خطوط مستقيمة الى الجبل • أعدت لنا زوجة صالح شايا ، فقدمه الينا زوجها في أقداح مذهبة • ارتشفنا الشاي في نهم ، وقدم وهبة في تأدب مصري وكرم عربي لكل واحد منا سيجارة (بلمونت) أشعلنا السجائر ، وتطايرت ثرثراتنا المرحة مختلطة بسحب الدخان ونسائم الهواء الممتزجة برطوبة البحر وروائح الطحالب والسمك ••• ولما كان الجبل قد بدأ يلوح لنا بقممه بعيـدا كالحلم من خلف الضباب المحيط بمرتفعاته •• رغب الملازم حسن في اللعب ، وقال من خلف سحب الدخان :

ـ وهبة ما رأيك لو نلعب ضربتين طاولة •• أنا لعبتها في مصر •

قال وهبة مازحا :

ـ ستخسر •••

ـ سأهزمك •

ـ طيب يا سيدي نجرب •

الزهرتان تتدحرجان في قاع الطاولة ، والحبوب السوداء والبيضاء تطقطق بقوة وتنبث على الخطوط •

ـ أدي يا سيدي ستتين •• طيب ودي يا سيدي خمستين •• شفت بقى •

ـ طيب دي الاربعة ، وهذي الخمسة • قال صالح للملازم :
ـ لا دي محبوسة ما تلعبش •

حدقت والجندي حزام نحاول أن نفهم ، لكننا في الواقع لم نفهم شيئا من اللعبة ، فاكتفينا بأعيننا نلاحق سحنات الوجوه لاستشفاف النصر والهزيمة •

وكان وجه الحامل ممتقعا وهي تتربص بملامح زوجها • أغلق وهبة الطاولة وأعادها للجراب بالرفق المعهود ، وقال في ابتسامة واهنة وهو ينظر الى الملازم :

ـ ستجرب حظك معي عند العودة •

السفينة ماضية تشق طريقها عبر ألسنة البحر ، ولكنها ببطء هذه المرة ، اذ كانت رياح جنوبية قد فاجأتها تدفع بها في اتجاه الشمال ، والناخوذة يدير سكانها في اتجاه الريح بمرونة شبه مجهدة ••• الشمس تواصل زحفها تعدت الزوال ، وسحب الخريف تتدافع نحوها من كل جانب وتقترب ، ربما اللحظات وتكتم أنفاسها نظر الناخوذة الى الاطفال والحامل بعينين شبه مثقلة ثم قال :

ـ ساعدونا يا رجال •• المجاذيف قدامكم •

نهضت وأخذت مجذافا ، وتبعني الجندي حزام والملازم حسن • نجذف ، أو قل انا نلطش في الماء ، فتلطم القطرات وجوهنا ورؤوسنا ، غير انا نجاهد بهمة الشباب اذ امتلكنا زمام السفينة بأيدينا ، لندفع بها في الاتجاه المضاد للريح • الوقت عند الاصيل ربما لم تتبين اذ كانت سحب الخريف قد استكملت اطباقها على الشمس عدا بصيص منها يناضل بدأب للتخلص ، وكانت السفينة بفعل السواعد •• تندفع في الاتجاه المضاد لقوة الريح • صالح ووهبة يقتلان الوقت بتدخين السجائر • أعينهم

تلتهمنا في قلق وأعين الاطفال ترقبنا في فرح ، والحامـل يدها على بطنها بقوة تكتم ألم المخاض •

نظر صالح صوبنا نظرة بلهاء لم تخف ملامح الذعر منها وقال ملتاعا :

ــ جذفوا بين •• بين ضد الريح ومعها •

رمقه الجندي من تحت خوذته شزرا ، ولم يأبه لكلامه أحد •

التجذيف على أشده ، والسواعد تعتصر بقايا قطرات الدم والعرق• الشمس تزحف حثيثا للتخلص • قلت لم نعمل حسابا للزمن ولا لساعاته، لكن لحظات العسر والضنى المرهقة تعتصر نخاع الذهن دقائق وثوان • ربما مضى من الوقت سبعون دقيقة أو تزيد قليلا •• حسبنا الدقائق ليال تمر بنجومها المطموسة والمتوهجة ، وأيام بشمسها اللاسعـة والدافئـة تخلصت الشمس من سحب الخريف وخلفتها بعيدا ، فأرسلت الينا ذيولا أصيلية دافئة موزعة بين السفينة والجبل ، والريح خففت من غطرستها ، وبدا الجبل يلوح جليا بمداخله ، وانفاقه (الستة) • صالح ووهبة كفا عن التدخين ، أعينهم تحدق في اتجاه الجبل ، وملامحهما تعبران عن رسم خطة النزول • الاطفال عاودوا لعبهم ، والناخوذة أبو علي عقف كوفيته على رأسه وأطلق لاغنيته الجديدة العنان •

الحامل عاودها المخاض ، لكن وجههـا يشي ببعض من طمأنينـة ، المساعد وحده الذي بدا غاضبا •• يجـذف أو يطرطش ، وعيناه تنهب كوفية الناخوذة المعقوفـة على رأسه بغير رضى • انفجرت زوجة صالح بالضحك ، وواصلت ضحكاتها من خلف غطاء وجهها بلا سبب •

رمقتها الحامل في تقزز ، وعندما التفت زوجها حـرج ، توقفت عن الضحك وقالت :

ــ سأعمل لكم « شاهي » بمناسبة النجاة •

ارتميت أنا بركن في السفينة ، وكذلك فعل الجندي حزام والملازم

حسن •• أنفاسنا تتلاحق في صدورنـا ، وأجسادنا تتصبب بالعـرق ، وملامح وجوهنا تكشف عن فظاعة الجهد والانهاك الذي خرجنا به •••

قدم الينا صالح أقداح الشاي المذهبـة ، وفي ابتسامة كالزيت من أسنانه الصفراء ••• ربّت على كتف كل منا بمفرده على حدة • استعدنا بعض أنفاسنا وارتشفنا الشاي كل على طريقتـه ، وسارع وهبة بعلبـة البلمونت في تأدب مصري وكرم عربي ليعزمنا على سيجارة •• سيجارة غير انه لم يكن في العلبة معه الا سيجارة واحدة • أشعلها لنفسه وسرح بنظراته مع سحب الدخان المتصاعدة حوله • ربما فكر بمصر لحظتها •

قرص الشمس يرسي على قمم الجبـل ومداخلـه وانفاقه (الستة) ويرسل الينا بقايا من أشعة حمراء غروبية ، وسحب الخريف تجمع شتاتها وتتدافع حوله ، والسفينة تتهادى بدجلها المهتـز صوب الجبـل ، وكان الجبل قد بدا يقترب ، او انه خيّل لاعيننا المثقلة في عتمة الغروب •

نفوسنا ظمأى ، وقلوبنا متلهفة •• أجسادنا متعبة والسواعد منهكة لتوها تخرج من معركة التجذيف •• عيوننا تحدق صوب الجبل ، وتلتهمه بصمت من خلف العيون الناعسة بليالي السهر والحلم، والرموش الساجعة على معجزة التحقيق وهو يلوح لها قريبا بعيدا كالخيال •

بعد لحظات لم تكن محسوبة من عمـر الزمـن •• (تكسر قرص الشمس خلف الجبل ، وتمزقت أجزاؤه الحمراء شظايا باكية ، فتلقفتهـا سماء الغرب وابتلعتها وليدة وئيدة) • تكاثفت سحب الخريف من فوقنا تلملم شملها ودوت انفجارات رعدية مفزعـة ، وانبرت الرياح تقـذف بالسفينة من كل جانب وفي كل اتجاه • تصارخ الاطفال في فزع وانزووا بركن في السفينة مذعورين كالارانب الصغيرة ، واشتد المخاض بالحامل، فأطلقت عدة صرخات مكتومة • اختبأ صالح وزوجته ووهبة في زاويـة الى حين ، وفي استسلام حدقت أعينهم فما القدرة صانعـة • تأرجحت السفينة على غير هدى ، وراحت تضرب في دوامة البحر وقوة الريح وغبش

العتمة ، فانفلت الزمام من يد الناخوذة • ترهل جسده من التعب ، وكفت يداه من على السكان ، وانحنى رأسه نصف انحناءة الى الاسفل حتى كوفيته المعقوفة على رأسه وقعت على القعر • حملنا جثته المترهلة الى ركن في السفينة • انحنى المساعد الخليل نصف انحناءة بتؤدة وسكينة كأنها صلاة ، وبيد مرتجفة رفع الكوفية من قعر السفينة ووضعها على رأسه • وبهمة الشباب ، أو من لاح لهم موتا محققا فراحوا يتشبثون بالحياة مهما كانت ضآلتها ومرارتها •• سارع المساعد يمسك بالسكان، وأنا والجندي حزام والملازم حسن الى المجاذيف ، لكن الرياح اشتدت وعلا صفيرها في قلب السفينة اللحظة، فكانت أقوى من سواعدنا الضعيفة المنهكة ، وبالرغم من كل ذلك فقد ظلت تقاوم !!!

(الليل يعم ويوغل في جهامته ، والريح تعبث في أجسامنا المتجمدة ، وتدفع بالسفينة شمال غرب) •• والى متاهة الاعماق البعيدة • أعين الاطفال تحدق عبر ضوء الفانوس الشاحب في توسل ، والحامل تذوب في تأوهاتها ، والمساعد الخليل يطمئنها بكلمات خرساء ، ونحن نواصل التجذيف ، او نطرطش بالمياه بما تبقى لنا من دفء سواعد جمدها البرد، فتلطم القطرات الطائشة وجوهنا ورؤوسنا • البحر يفتح أعماقه السحيقة، والاسماك تفغر أفواه الموت • وفي أواخر الليل •• كانت قوارب الصيادين تحيط بسفينتنا المشرفة على الغرق من كل جانب ، وعلى أضواء فوانيسهم الواهنة •• أنزلونا واحدا واحدا • الناخوذة جثته منخورة القوى ، والمساعد خليل جامدا نظراته بلون الزجاج ، والحامل في أقسى اشتداد المخاض ، وأنا والجندي حزام والملازم حسن •• أجساد متضائلة جمدها برد الليل وبقايا نظرات ناعسة تقعي الى الطايف جنوب والاطفال بنظرات التوسل تلك • ووهبة وصالح وزوجته كان ما زال بهم بعض من حيوية ، وبوسعهم تقديم شاي لنا في أقداح مذهبة ، وسجائر بلسونت حتى نعود الى الشاطىء الذي بدأنا منه رحلتنا •••

العطش

بقلم
حسن اللوزي (١)

كالكلب في رمضاء الصيف ألهث، أتشقق كالارض عطشا، كالصحراء أتفتت في ريح النار • يتساقط جسدي لحما محترقا ودما داكنا ولزجا • بعيدا عنك اللحظة منشار يخترق رأسي ببطء ، كسلحفاة خبيثة ومدربة• والمكان مصلاب شرس ، وضيق في حدود جثتي • آه انني أعاني حصارا قاتلا لا يمكن ان أنفذ منه الا من خلال جسدك الطري ، الساخن • يومها سوف أولد من جديد في هيئة بـرق ، وقد أتساقط رذاذا كمطر صغير ، أو أنتصب قامة فارعة مشبعة بألوان الفرح القزحية •

---

(١) ولد سنة ١٩٥٢ بمدينة صنعاء، وبعد ان أتم تعليمهالابتدائيوالاعدادي بصنعاء ، سافر الى القاهرة حيث حصل على الثانويـة الازهرية ، ثم التحق بكلية « الشريعة والقانون » بالازهر الشريف ، ثم عاد لليمـن بعد التخرج ، وعمل مديـرا لمكتب رئيس الجهـاز المركزي للرقابـة والمحاسبة ، ثم أصبح سنة ١٩٧٦ وكيلا لوزارة الثقافـة والاعلام ، وهو يعمل الآن (١٩٧٨) نائبا لوزير الثقافة ، له ديوان شعر مشترك بعنوان « أوراق اعتماد لدى المقصلـة » ، وقد أصدر سنـة ١٩٧٨ مجموعته القصصية الاولى بعنـوان « المـراة التي ركضت في وهـج الشمس » (منشورات دار الكلمة ـ صنعاء) .

أما قصته « العطش » فقـد نشرت في مجلـة « اليمن الجديد » (ابريل ١٩٧٥) ثم أعاد نشرها في المجموعة ص ٩ .

هذه التي أخاطبها هي جارتي الحسناء التي هاجر زوجهـا من عشر سنوات مضت ، وتركها مع طفل كان قد زرعه في بطنها ••• والآن لا أحد يعرف عنه شيئا • يقول البعض « انه مات » يقـول آخرون : « انه لن يعود » بينما هي تصر وتؤكد بأنه سوف يرجع ليحبلها بمزيد من الاطفال والافراح والتأوهات الرطبة !! سوف يأتي غنيا لينقذها من نار التنـور والخبز الذي تعيش على بيعه في الاسواق •

أما أنا فشاب لم يتجـاوز الثلاثين من عمـره • غير مثقف • أكملت تعليمي الجامعـي •• وقرأت بعضا من الكتب الغير مدرسية •• لا أحب الاحاديث السياسية •• مللتها •• كنت وأنا في الغربة أتلذذ بالحديث عن الوطن والثورة والسلطة والتغيير •• وحتمية الحل الاشتراكي •• وأجنح أنا وزملائي بطموحاتنا الى مستقبـل بعيـد ناصـع الخضرة ومكدس بالارغفة والاجساد المرتوية والشبعانة • ونحلم بعالم زاخر بكل الاشياء الجميلة •• ولكن ذلك يبدو تبخر أمام مسؤوليات جزئية أتحملها الآن • اعترف انها تافهة •• ولا تستحق •• ، أسرتي تريد نصف مرتبي لتعيش وتحسن من وضعها في القرية •• أنا أعيش هنا بالنصف الباقي •• أوزعه بينايجار البيت والكهرباء والماء والمطاعموالمقاهي والسينما «والغصارين» والبقالات •• لي الآن سنتان على هذه الحالة •• من يوم ان مات ابن جارتي • دون أن أوفر شيئا لكي أتزوج •• أثمان البنـات غالية جدا • جدا • واليأس من أن يكون في يدي ذلك المبلغ جعلني أندفع في تبديد ما معي •• في أي شيء •• المهم انني أسحق الوقت •• أقاوم الشعـور بالحصار والغربة •• حتى « البلدي » صار يتعبني • ويحولني في كثير من الاحيان الى مستنقع يتثاءب بالديدان والصراصير والطحالب والروائح المقرزة •• أين أنت يا قوارير البيرة أيتها الآلهة المخضلـة بأرواح شريرة وبهيجة !! أين أنت ؟؟ ومع ذلك لا يمكـن أن أعيش يوما آخر بـدون

زواج ••• « يا طريق العصاة والمتمردين لا تقفل أبوابك في وجهي ، كما قفل النخاسون أبواب متاجرهم المكدسة باللحوم البشرية •:• لانني لا أملك الثمن المطلوب ••• والمحدد في مراسيم العرف والعنجهية • ولان تعاليم النبوة صارت جثثا من الحروف والكلمات تتقلب في كهوف الكتب الصفراء ، وتتأكسد في العقول العجفاء •••

ـ قال النبي : التمس ولو خاتما من حديد •

ـ نحن الآن في عصر البلاتين والماس ؟

ـ النبي زوّج بعض الصحابة بآية أو سورة من القرآن ؟

ـ أنا لا أزوج ابنتي الا كما زوّج جاري ابنته بخمسة عشر ألف ريـال ؟

ـ يمكنني أن أدفع لك خمسة آلاف ريال !!

ـ « ما يخورجنيش !! »

حدّثت صديقا لي بالازمة التي أعاني ، والظمـأ الذي ألوب فيه • وشكيت له عن استعصاء جارتي في برجها الذهبـي المدجج بالمخـاوف والاسنة الغيبية • والاوراق المهترئـة في دولاب الذاكرة • رثى لحالي وعرّفني بشخص يوفر لي كل ما أطلب ••• اتفقت مع ذلك الشخص •• انتظرته في المكان والموعد المحـدد ••• مضت ربع ساعة ولم يأت ••• قطعت الحبال المرتعشة التي تربطني به • ولكنه ظهر من بعيد وبصحبته ولد لم يتجاوز السادسة عشرة • اقترب مني • سرت في جسدي قشعريرة سألته عن المطلوب قال وعلى وجهه ابتسامة صفراء عريضة :

ـ ما رأيك ؟

ـ رأيي فيماذا ؟ أين الفتاة ؟

ـ ألم يعجبك ؟

ـ لعنك الله ... أنسيت اننا يمنيون أيها القذر !! اذهب من قدامي أنت والذي معك والا هشمت رأسيكما !!

يا للويل .. هل يمكن أن أبلغ في يوم ما هذه الغاية ... الحيوانات لا يمكن أن تكون دنيئة الى هذا الحد . أشعر بدوخـان ... وحالـة غثيان حادة ... آه لو أستفرغ ما في بطني من الرمـال والاحجار التي حشروها فيها يوما ما ... سألت رجلا مر بجانبي :

ـ هل كفت الارض عن الدوران ؟
ـ وهل الارض تدور يا أبله ؟
ـ اذن فقد توقفت ؟

لم يعبأ بما قلت . سار في طريقه كررت العبـارة السابقة على نفسي المتعبة في خفوت « اذن فقد توقفت الارض » ومن سوء حظنا اننا ربكنا كالجمال التي أنهكتها الصحراء والاثقال في الجانب المظلم منها ... قليل من الشمس أيها الرجال الافذاذ .. افتحوا مسامكم لقليل من الشمس.. حاولوا أن تركضوا نحو السهول والوديان وان تتسلقوا أعالي الجبال.. سوف ترون أشياء عجيبة ومدهشة ... آه ها هي بكـارة الارض بين يديكم تقشر نفسها ... وتستلقي ساخنة وموجعة تحت أقدامكم ... من لي بسيف أبقر به بطون الغيوم العنينة وأمنعها من الاسترسال في عاداتها السرية ... من لي بامـرأة أسكت في اندلاقة جسدها حريقي وتمزقـي الغريزي واسترخي كطفل أرهقه اللعب في ظل نهديها الشامخين . آه لا يمكن لانسان مثلي أن يعيش بدون زواج ... او فلينتحر وحيـدا بين جدران أربعة شديدة البرودة وهو يحاول أن يواقع أحلامه المجندلة !!

أحدث نفسي بأنني ذات يوم ستجدني العجوز التي تحضر لي المـاء الى البيت جثة هامدة عارية ... يومها قد تحدث نفسها بأن تفعل أشياء غريبة معي قبل أن تبلغ الشرطة بما حدث ـ قدرة الانسان العظيمة في ان

يتمسك بأي قيمة أخلاقية او انسانية لا يمكن ان تتأكد الا عندما يكون وحيدا مع نفسه ــ لملمت جراحي وأوجاعي المتناثرة وقمطتها بملابسي حتى اعتدل تكويني وقررت أن أجـول في الشوارع ولا أعـود حتى أتعب الحراس والشرطة صفيرا وصراخا وسؤالا عن اسمـي وبطاقتي ومن أين أتيت ؟ وما مقصدي ؟ عند خروجي من البيت رأيت جارتي ••• الكمامة التي تكتم أنفاسي بهدوء كما يكتم الرمـاد أنفاس الجمرات الملتهبة من تحته •• آه أيها الحلم الذي أتعبني في ملاحقته من غرفة الى غرفة ومن شارع لشارع حتى رسمته على كل الجدران والسقـوف شجرا دامـي الرغبة وممشوق الافخاذ وعشبا له رائحـة الاثداء المكتنزة والموقوتـة للانفجار في لحظة اللمس الحيواني •• ألقيت عليها تحية المساء •• بعد قرن من الزمن ردت باستحياء وبصوت خافت •• طوال تجوالي الليلي انشغل ذهني بالتفكير فيها وبرسم الصـور الفوتغرافية والسينمائية لما عسى ان يكون بيننا لو كنا وحيدين !! خارت قدماي داخل جمجمتي •• أنا الآن متعب للغاية لا بد ان أعود الى البيت ••• عندما عبرت الشارع رأيت غرفتها مضاءة ترى من تسامر ؟ هل أدق الباب ؟

دخلت مسكني وظللت مسمرا على النافذة التي تتسرب من خلالهـا الاضواء • ذهني يحاول جاهدا ان يتسلل من خلال الثقوب والشروخ•• في يوم مضى باغتها وهي خلف النافذة • لم تكن ملثمة ••• رأيت وجهها المدور • وتوغلت في عينيها الغابتين المشتعلتين بالخضرة والليل والمذنبات الجارحة ••• من ذلك اليوم صرت أقـوم مبكرا لاتلصص عليها ••• وأظل أحترق ••• وأزداد احتراقـا ونضجا لاوزع سندوتشات بائسة على كلاب المقابر •• في عصر اليوم التالي قررت أن أقول لها شيئا •• أي شيء وليكن ما يكون •• اقتربت من بابها •• طرقته بهدوء •• أجابت •• هذا هو صوتها الذي يتفتق عن فراشات ذات ألوان زاهية ومؤثرة :

ــ من في الباب ؟

ــ أنــا !

ــ ماذا تريد ؟

ــ أريد أن أتكلم معك ؟

فتحت الباب ووقفت قدامي كريح سامقة ومعبئة بغيوم دافئة وأطفال من الاعاصير •• كانت ملفعــة بأرديــة سوداء وكانت عيناها الغابتــان المشتعلتان بالخضرة والليل والمذنبات الجارحة تبرقان وتزدادان غموضا وهروبا الى الفيافي البعيدة حيث الارانب والوعول تركض ويجن جنونها:

ــ قل ما عندك !

ــ كيف تعيشين وحدك في هذا البيت العريض الطويل ؟

ــ ما دخلك في هذا الموضوع ؟

ــ والله هذا حرام ؟

ــ وقــح !

ثم بصقت وصفقت الباب بشدة •• احتلت البصقة مساحة لا بأس بها من وجهي لم أجد منديلا •• اضطررت أن أستعمــل طرف الكوت • مضيت في طريقي •• يكفي أن تحدثت معها قليلا ••• وحدقت في عينيها قليلا وناوشت نظراتي المستشاطة ثديها المبرعمين •• رابع يوم الحادث اقتربت من بابها كان مفتوحــا وكانت في « الدهليز » رأتني وسارعت لتغلق الباب •• قدمت يدي وقلت لها :

ــ ألا تشعرين بالندم ؟

هوت على وجهي بصفعة قوية تجمّع على دويها أطفال الحــارة من الزقاق الآخر ••• نزعت يدي من مكان الاعتداء ••• لكن طفلا منهــم أخذ يضحك بصوت مرتفع ••• يبدو انه اكتشف حقيقة ما حدث ••• أحسست بالانكسار ••• مضى اسبوع ••• في المساء طرقت بابها من

جديد ... عقلي كان قد بدأ يتمرجح بنشوة الخمر على تموجات خيوط وردية وشفافة :

ـ مَن ؟

ـ أنـا !

ـ أنت مرة أخرى .

ـ نعم أنا مرة أخرى .

كان صوتي مرتفعا ولهذا نزلت بسرعة وفتحت الباب في خوف . هي التي فتحت وأنا الذي اقتحمت عليها « الدهليز » ... كأنها كانت تتوقع مداهمتي لها ... حاولت أن أمسك بها ... أن أحضنهـا ... نفضت ذراعي المرتعشتين بقوة .

ـ ما الذي تريد ؟ اخرج ...

ـ لن أخرج ...

ـ سوف ألم عليك الناس والجيران ؟

ـ حاولي أن تفعلي ؟

ـ هل أنت مجنون ؟

ـ للأسف أنت آخر من يعلم بذلك رغم انك السبب !

اقتربت منها أكثر وأنا أحمم وهي تتحفز كقطة شرسة ... أمسكت بها بقوة ... أبدت نوعا من الاذعان ... وندت منها ضحكـة خافتة وقالت :

ـ اذن تفضل ادخل !!

قادتني الى احدى الغرف وطلبت مني أن أجلس حتى تنجز عملا في « الديسة » وتعود . ظننت انها ستخرج من الغرفة ثم تغلق الباب وتصرخ

لتجمع الحارة وتشهدهم عليَّ . وسوف تقد ثيابها من قبل . لتقول لهم بأنني اقتحمت بيتها ... وحاولت اغتصابها .

توقعت ان يرتفع صوتها في هذه اللحظة . لكنه لم يحدث . فتح باب الغرفة . دخلت وأخذت تقترب مني ببطء وحذر . فجأة أخرجت السكين من جيبها وهوت به على رأسي . أمسكت بيدها ، حاولت أن أخلصها منها كانت قوية جدا . وعصبية جدا . لم أستطع ...

أخذنا نتصارع ونتقلب في عراك موجع من طرف المكان الى طرفه.. كنت أتوقع أن تصرخ أو تستغيث . فلم تفعل . يبدو انها واثقة كثيرا من نفسها . لكن العراك طال وتفاقم وأخذ أشكالا وتعرجات مختلفة .. هي بالقرب مني قمة شامخة توشك أن تلين وأنا في كفي سرائر الرياح .. والرياح تحمل المزن .. والمزن حبلى بالمطر .. والمطر بدأ ينهمر غزيرا وجارفا .. والحيوانات البرية صارت ترتعد وتركض الى مخابئها .. وفي المخابىء والحجور تتصاعد الانفاس المبهورة وتتعالى التأتآت وتتلاحم الذكور بالاناث والصغار تحتمي بالزوايا الدافئة . والارض على امتداد حواسي ومشاعري تتشكل في هيئة أنثى ناضجة وجائعة باغتها الرجال المتضورين فتعرت أمامهم ضاحكة ومرتخية الوديان والسهول والهضاب لتغتسل بفيوض الفرح الغريزي وتدوخ بنشوة الارتواء الجسدية . ها هي العروق تتدفق بسيول الدم الفائر ، ويتقلب اللحم الناضج في خلايا اللحم الجائع . واللحم الجائع في خلايا اللحم الناضج ويتحول العالم مقصفا تؤدي فيه الخليقة الاغاني والرقصات والطقوس الوثنية البهيجة. ها هي تسقط السكين التي تلمع في يدها المخذولة .. وبدأت تقوم بمناورات لحرب جديدة . وأخذت تنشب أسنانها وأظفار حرمانها في لحمي وأنا أغمد أضلاعي واحتراقي المتنامي في لحمها .. هي تتوجع وتتأوه وأنا أزفر وألهث .وقليلا قليلا أخذت الاصوات تهمد وتنتحر...

والحركات تتباطأ وتسكن والمطر يهدأ ويخور ... حتى همدنا معا ...
وتجشأت الارض بفرح طفولي وأصدرت زفرة رضى مترامية الاطراف..

بعد فترة من الزمن حدث ان خرجت من ذلك البيت جنازتان لرجل وامرأة !!

انتهــت

القوي والأقوى[1]

بقلم
سعيد عولقي

- ١ -

لا أحد يدري على وجه التحقيق كيف استطاع خميس العفيفي أن يكون جيشه الصغير الذي تناقلت أخبار بطولاته الانباء حتى تعدت هذه الاخبار حدود قريته الصغيرة وحدود السلطنة كلها •• بل حتى البلاد نفسها •• لكن الحقيقة التي يعرفها الجميع هي أن خميس أحسن تدريب جنوده المغاوير حتى صاروا أسطورة ادخلت الرعب في قلوب فرق الغزاة المستعمرين •

وقد ألحق جيش خميس الصغير ، الذي لا يزيد عدد جنوده الفدائيين عن خمسين مقاتلا ، الهزيمة تلو الهزيمة بكل القوات البريطانية الغازية التي حاولت حتى ذلك الحين أن تدخل المنطقة لتخضع تمردها وتجعلها محمية خاضعة تابعة لمستعمرة عدن •

وأصبح خميس العفيفي وجيشه الصغير كابوسا مزعجا يقض مضاجع

(١) « الحكمة » (سبتمبر ـ اكتوبر ١٩٧٧) •

ضباط القيادة العليا البريطانية في مستعمرة عدن •• وأصبحت هزيمته هي المهمة العاجلة الاولى التي يسعون الى انجازها ، بل التحدي الاكبر الذي يعملون ويخططون لمواجهته بعد أن استفحل امره ووصلت اخباره الى اروقة وزارة المستعمرات في عاصمة الامبراطورية البريطانية •• لذلك لا يجب بعد اليوم ان يلطخ ذكر ذلك الهمجي وعصابته وقار مجالس تلك الوزارة وهيبتها وجبروتها •

– ٢ –

سكت صوت البرق واستكملت مراسيم توديع السرية السابعة من قوات المشاة التابعة لقيادة سلاح الطيران الملكي في ميدان الاستعراض بمعسكر « خطوط سينجبور » بعدن وتحركت السيارات محملة بالجنود بعد الغروب مباشرة ايذانا بالبدء في تنفيذ « عملية البدوي » التي تتلخص خطوطها العريضة في محاصرة عصابة خميس العفيفي والقبض عليه وعلى افراد عصابته حيا او ميتا وبأي ثمن وتسليمه لسلطات المقاطعة ، على أن يبدأ الحصار بعد أرسال فئة انتحارية من جنود السرية عبر الوادي للتمويه واشغال العصابة بينما تقوم القوة الحقيقية بعملية التطويق بصمت وبعد ذلك « يقع الفأر البري في المصيدة وهو يحاول التهام الطعم » على حد تعبير اللفتننانت دونالد بارتلت قائد السرية •

– ٣ –

بعد ان وصلت قوات السرية الى المنطقة التي يسيطر عليها خميس ورجاله نزلت الفئة الانتحارية الى الوادي الكبير •• وأخذت تسير بحذر في تشكيل عسكري منظم قبل ان تدخل الى مرمى نيران خميس وجنوده وكان في مؤخرة الفئة أصغر الجنود سنا وأكثرهم غضبا •• كان العرق

يبلل ملابسه (الكاكية) أكثر من غيره ، وكان عصبيا في حركته أكثر من غيره وكان في سيره يرفس الارض بحنق ظاهر بخطواته المتوترة ويلعن الاقدار التي ساقته الى هذه المنطقة اللعينة النائية الجرداء .

وتقدمت الفئة الانتحارية في طريقها بثبات رغم كل شيء ..

قال الميجور برادلي ولكنسون وهو يودع جنود السرية السابعة « لا بد من السيطرة على هذه المقاطعة الريفية سيطرة تامة وقمع اية تمردات فيها وجعلها محمية آمنة ، تابعة وخاضعة لمستعمرة عدن بدلا من الاكتفاء بولاء سلاطينها ومشايخها الذين سرعان ما ينكشف ضعفهم امام اول حركة تمرد .. يجب فرض الحماية عليها مهما كانت الصعوبات ، فهي تمثل العمق الحقيقي لقاعدة عدن ولن يستقر الامن في مستعمرة عدن الا بالسيطرة على المقاطعة الريفية المحيطة بها وفرض الحماية عليها بالقوة .. وهنا تكمن اهمية مهمتكم في « عملية البدوي » التي تمثل جزءا هاما في الاستراتيجية العامة » .

— ٤ —

صعد خميس الى تل مرتفع وراح ينظر الى الوادي ، والى الخلاء الفسيح اللانهائي بعينيه المجردتين .. منظر اجرد احجار لعلها من الجرانيت وصخور كلسية شديدة القسوة .. وتراب وغبار واشجار لا لون لها ولا رائحة .. اشجار وشجيرات واعشاب متعددة الاشكال والاحجام والانواع .

كان هذا المنظر يشبه على ما بدا له نثرا جيدا باللهجة العامية .. متقن الصنع بسيطا خاليا من التكلف قويا جزلا .. انه يعبر عما هو اساسي بأبسط الوسائل .. انه لا يتبختر ويرفض التبرج .. انه يقول ما عليه ان يقوله بصرامة رجولية ، لكننا نلمس بين السطور القاسية حساسية وليونة

غير متوقعين •• فبين هذه السطور قلوب تنبض وروائح تعبق واشعار تنبع •• لكن لا يستطيع ان يحس ويشم ويسمع الا من ارتبط بهذه الارض منذ عصور سحيقة واندمج فيها •• ومن هذا الاندماج يستمد القوة التي بها يستطيع ان يصمد في مواجهة قوات الاحتلال الاجنبي ويطردها •

كانت الشمس قد انتصبت مرتفعة والسماء صافية •• وربض خميس بين الصخور مختبئا كصقر في حفرة واحتمى رجاله بالنتوءات والتجاويف الصخرية وجلسوا ينتظرون اوامره في هدوء ومتعة •

— ٥ —

حل الظلام فرفع خميس رأسه من مخبئه •• وأخذ يتأمل الوادي •• ثم هدأ وعاد الى مخبئه ويداه المشققتان العصبيتان تمسكان ببندقيته « الشرفاء » بحذر وحنان وكأنهما تخلعان ثياب امرأة •• وكلما مر الوقت كان يحس بجسده يمتلىء قوة •• وتزداد قوته الى ان اصبح عقله طيعا رطبا ويتموج فكره وهو يتابع حركة سير فئة الجنود التي دخلت الوادي في ايقاع منظم غير مسموع •• ويخضع فكره لايقاع حركة الجنود وبعد ذلك يخضع فكره دون اية مقاومة لايقاع الرصاص بعد ان يأمر باطلاق النار •

— ٦ —

التواهي •• البحر •• العذوبة الخريفية •• والشواطىء الغارقة في النور •• والحجاب الشفاف من الغيوم الناعمة التي تغطي السماء الصافية ••

— ما أسعد الانسان الذي يتاح له بعد ان يرحل الاستعمار ان يعيش على هذه الارض او يموت فيها •

كانت الريح قد توقفت قبل المغيب •• ومزقت الشمس الغيوم وظهرت ناعمة عذبة لم يمض وقت طويل على اغتسالهـا وراحت تداعب الميـاه والاراضي الحبيبة بأشعتها •• وكان عبده تشوتيه يقف منتشيا بحبه لهذه الارض حتى الاعماق وقد تملكته الشفقة •• لا على نفسه او على ابنـاء وطنه المحتل فحسب •• بل على العالم كله •• العالم الذي يناضل ويصرخ ويبكي ويحلم ولا يرى ان محاولة احلال السلام لا تتحقق في الغالب الا بحراب الحرب •

كان عبده يفكر ويتأمل ويرى أكثر من غيره •• الا ان حدود عبـده تنتهي عند هذا •• فهو ليس ممن يصنعون التاريخ •• لكنـه يعد نفسه شاهدا على التاريخ ، وفي هذا عزاؤه •

لقد استطاع عبده بدراسته المتقطعة غير المنتظمة ان يتعلم الكثير من خلال قراءاته الكثيرة المتنوعة التي اتيحت له بسبب علاقاته الواسعة النطاق بالناس على مختلف مستوياتهم سواء في مجالس السمر العامة •• او في المجالس الخاصة او من خلال عمله الثابت في دكان « السيت منشرجـي بروالا » او بيتـه •• او من خلال عمله الموقت المتقطـع كدليل سياحي ومترجم في فترات خصامه مع السيت أو احد افراد اسرته •

تعلم عبده ان القوي ـــ وهو الغني غالبا ـــ هو الذي يكسب الجولة مهما ضعف منطقه •• وتعلم ان العقل يتوقف اذا تحدثت النقود •• وتعلم ان الطريق الى الحق طويل مرير ويحتاج الى الكثير من التضحيات المكللة بالدم والدموع •• لكنه تعلم أيضا ان الباطل لا يسود ولا يدوم كثـيرا مهما طال به الزمان •

تعلم عبده كيف يفهم قدر نفسه •• وكيف يفهم حدود قدرته ، وكيف يكيف نفسه للدوران داخل هذه الحدود دون ان يتجاوزها •• ومع ذلك كثيرا ما حاول ان يتجاوز هذه الحدود •

وتعلم عبده ان الانسان خاضع لبعض القيم المطلقة وان لا متعة هنالك في الشكل الانساني تؤدي الى تمثيلية كما هو على حقيقته •• وانما هو مشوه احيانا •• او متكامل الجمال احيانا اخرى ليناسب اشكالا توحي بانفعال أشد وأقوى ••

وتعلم عبده أن يجعل للكذب وظيفة •• وان يجعل ايضا للصدق وظيفة وبرع في استخدام الوظيفتين حتى ذابت معالم كل منهما في الاخرى•

– ٧ –

برد الطقس •• وصمت عبده تشوتيه لحظة •• كان البحر وراء الحاجز الصخري يتنهد باطمئنان وحنان •• وسكنت الريح ، وابتسم القمر لتزداد أشعته ضياء وهوى نجم على بعد مئات السنين الضوئية ، ومر طائران من طيور البحر في السماء فوق الجالسين فصفرت أجنحتهما كأنها قطعة قماش تتمزق ••

حل المساء بظلامه على ضوء « الجلوب » الكهربائي الضعيف بغباره الذهبي الملتهب •• ومن حوله بعض الحشرات الطائرة تتفرج •

كان رواد مجلس السمر من اهالي المدينة يعتبرون ساعات السمر التي يقضونها تحت ضوء « الجلوب » من أمتع لحظات حياتهم •• كانت المتعة بادية على عيونهم وفوق شفاههم وفي وجوههم وداخل قلوبهم •• انهم هنا يتحولون الى نوع آخر من البشر •• بسيط ودود وديع متسامح نبيل كريم وطيب ••

انك لو لم تكن تصادفهم في غير اوقات السمر لتصورت ان هذا النوع من الناس مصنوع من نسيج خاص •• رائع رائع رائع اسمه الحب •

ولكنهم في الاخير بشر •• اناس عاديون لهم مشاغلهم ومشاكلهم الصغيرة والكبيرة •• ولهم اطماعهم ونزواتهم وتفاهاتهم •• وهم لا يلامون

اذا اقتطعوا من حياتهم الجافة الكئيبة المليئة بالهموم لحظة صفاء •• انها ليست غلطة البشر اذا هم يمرحون والله حزين ، على حد تعبير عبده تشوتيه نجم المجلس المتألق •

نعم •• فعبده تشوتيه هو نجم هذا السامر الذي يلتف فيه هذا الحشد الصغير من الناس الذين تجردوا من البغضاء •• وبعد قليل سيبدأ صوته العذب الطري يطرق مسامعهم بنقل رواياته المتجددة التي لا يملون سماعها •• وسيخشعون لكلماته وكأنهم في حضرة نبي يلقن تعاليمه تمهيدا لنشر دعوته •

« أمس أمطرت ببطء •• والتحمت السماء بالارض في حنان لا متناه ذكرني بنقش هندوكي من الابنوس الابيض كان يضعه السيت بروالا على مكتبته في البيت ، ويمثل رجلا يلف ذراعيه حول امرأة في اتحاد حنـون مغرق في العذوبة والاستسلام للمطر الذي كان يهطل فوقهما بلا أنقطاع •• حتى انك لتحس ان الحب الذي يجمع بينهما اقوى من المطر •• ومن الارض والسماء •• هل سمعتم عن قصة تاج محل ؟ »

هكذا يستهل عبده تشوتيه حكايته عن اسطورة حب هندية لا بد انه قرأها في كتاب من كتب السيت بروالا وقع بين يديه •

– ٨ –

عاش عبده تشوتيه منذ طفولته المبكرة في مدينة التواهي خادما في بيت السيت منشرجي بروالا ، التاجر الهندوكي •• وفي فترات عطـف السيت أستطاع أن يتعلم القراءة والكتابة ، وان يدرس بارتجـال بعض العلوم الاخرى وفي سبيل ذلك تحمل الكثير من المتاعب والمشاق•• ولكنه اعتمد كثيرا على نفسه في تنمية مداركه وتوسيع ثقافته ••

ولا يذكر عبده تشوتيه عن ابيه الا لقاءات متباعدة مضطربــة كان يراه فيها في بداية كل شهر عندما يأتي الى السيت ليقبض منه اجرة خدمته .. ولما مات ابوه كانت أمه ترسل رسولا عنها ليقبض الاجرة .. الــى ان تزوجت وانقطعت أخبارها عنه فنسيها كما نسي أباه .. وكما نسي أجرته التي كان يدفعها السيت لهما في مطلع كل شهر . ولما كبر عبده كبــرت مطالبه .. وبدأ يستعيد أجرته يوم ان خطا الخطوة الاولى في سن الشباب .. لذلك فالسيت بروالا وعائلته هما الشيء الوحيد الحقيقي الذي يعرفه عبده عن العائلة والبيت .. والاهل .. أما أهله الحقيقيون فانهم بالنسبة له مجرد ذكرى بعيدة تروح وتجيء . وكثيرا ما تروح بدونأن تجيء ..

وهكذا قدر للاسم الذي اطلقه السيت وأسرته على عبده أن يلتصق به ويعيش معه اكثر من اسمه الحقيقي الذي لا يكاد في الحقيقة يتذكره .. وهكذا اصبح أسمه عبــده « تشوتيه » وهي تعني في اللغــة الارديــة « المبهدل » وقد كان عبده بالفعل « مبهدلا » حتى صار من الصعب فصل هذا الاسم عنه ... أو ايجاد تعريف آخر له أدق منه .

واليوم صار عبده تشوتيه رجلا .. وأهم من هذا صار شخصيــة شهيرة في ليالي السمر بمدينة التواهي .. اشتهر بأنه أبرع راوية للسير والحكايات والروايات .. سواء تلك التي يرويها بقراءتها مــن الكتب مباشرة كسيرة عنترة بن شداد أو أبو زيد الهلالي .. أو حكايات ألف ليلة وليلة او الاساطير الشعبية المختلفة وغيرها .. أو تلك التي يرويها من الذاكرة أكانت من تأليفه او كان يفبركها ببراعته التي شدت اليه الاسماع وحببت مجلسه الى أهل المدينة من رواد مجالس السمر الاسبوعية المتعة.

— ٩ —

بينما كانت المعركة تدور بين خميس ورجاله وبين الفئة الانتحارية .. كانت بقية قوات السرية تطوق المنطقة التي يتمركز فيها خميس ورجاله في

صمت ، وتحاصرها وتضيق عليها الخناق تدريجيا •• ولما أحكمت من حولها الحصار •• بدأت بأطلاق النار •• ووقع خميس للمرة الاولى في الفخ الذي استدرج اليه •• وانهال عليه ورجاله جحيم متصل من النيران التي لا ترحم •• وسقط كثيرون من رجاله لكنه تماسك رغم كل شيء •• وأعاد التخطيط لمعركته على أساس الا يموت رجاله الا بعد أن يلحقوا اكبر خسارة ممكنة في صفوف العدو • ومع انه ورجاله قد احسوا ان لا أمل لهم في النجاة الا انهم واصلوا القتال بنفس العزيمة والروح التي بدأوا بها المعركة •• ولم يفكروا لحظة في الاستسلام •

وفرغت ذخائر خميس ومن تبقى من رجاله على قيد الحياة ــ وكانوا لا يزيدون عن ثمانية ــ فلما سكتت نيرانها أمر اللفتنانت بارتلت جنوده بالتوقف عن اطلاق النار •• ثم أخذ يشرح للمترجم الذي اصطحبه معه شروطه لاستسلام خميس ومن تبقى من رجاله لينقلها اليهم وتقدم نحو خميس وبقية رجاله على رأس نخبة من ضباط الصف الاقدمين •

توقف موكب المنتصرين على بعد خطوات من خميس ورجاله •• وارتفع صوت المترجم في لغة عربية تشوبها لكنة آسيوية يشرح حقيقة الموقف لخميس ، ويطالبه بالاستسلام الفوري بلا أدنى مقاومة •• لكن خميس الذي لم يذق طعم الهزيمة من قبل أجاب ملوحا بخنجر مسلول في يده :

ــ ماشي تفاهم بيناتنا •• ماشي الا طعن يا بريطانية •

وتصل كلمات اللفتنانت بارتلت الى خميس عبر المترجم :

ــ لا فائدة من المقاومة •• نحن اقوى منك فلا داعي للعناد •

ــ لا أنا اقوى منكم •• لانني لن انفذ رغبتكم واستسلم •• من أراد أن يأسرني فليتقدم •

ولما وصل الحوار الى هذه النقطة ، تطوع المترجم باضافة بضع كلمات حملها وجهة نظره •• قال له :

ـ لا فائدة ترجى من محاولة التفاهم مع هذا الانسان الغبي المتحجر أنا اعتقد يا سيدي اللفتنانت أن أفضل طريقة هي فتح جمجمة هذا المخلوق فأنا واثق تماما من أن بداخلها بدلا من المخ •• حفنة من حبات الذرة •

ويحتار اللفتنانت بارتلت •• فشرفه العسكري يأبى عليه أن يقتـل عدوا أعزل •• وليس من طبعه أن يمارس الغدر ضد اعدائه •• علاوة على أن قهر خميس وأسره مع من تبقى من رجاله افضل في الميزان العسكري من قتلهم •

وهكذا يختار اللفتنانت المخاطرة بحياة ثلاثة من أشجع وأقوى جنوده حين يأمرهم بالقبض على خميس حيا •• على أن يتولى باقي الجنود أسر من تبقى من رجال خميس بالقوة •

ـ ١٠ ـ

عندما تصدر عبده تشوتيه مجلس السمر بعد صلاة العشاء كـانت شبه الجزيرة الكبيرة الرئيسية تمتد على يمينه مزهوة وحشية •• والجبال السمراء الشاحبة تبتسم وراء الغيوم تحت شمس الخريف •• وخلفه كان البحر الازرق ثائرا هائجا ••

ـ « كثيرة هي أفراح هذا العالم •• واكثر منها احزانه •• لكني لا أعتقد ان ثمة فرحا يغرق قلب الانسان في الجنة أكثر من فرحة اصحـاب الحق حين يعملون لنصرة حقهم •• هل تصدقون أن بطل الابطال المحارب الصنديد خميس العفيفي هزم قبل أيام برجاله القلايلين خمس وعشرين فرقة أخرى من فرق جيش الاستعمار البريطانـي ؟•• نعم لقد هزمهـم ومرغ أنوفهم في التراب •• كان اذا تصدى لقواتهم ينفرد وحده بدحر كتيبـة بأكملها » •

هكذا كان عبده تشوتيه يصور خميس العفيفي في رواياته التي يرويها

عنه في مجالس السمر مع ما يروى من الحكايات •• مع انــه كان ينسج حول خميس الكثير من المبالغات الخيالية ، ويصوره في بطولات اسطورية لم يقم بها ولا يمكن تصديقها •• الا ان ذلك كان يصادف استحسانـــا ومتعة عند مستمعيه ، لانه كان يدغدغ وترا حساسا في نفوسهم ، ويثـــير فيهم رغبة ظنوا انها ماتت بتراكم السنين •• ويوقظ عندهم حلما عزيزاً الى قلوبهم •• واملا عظيما لم يأملوا في أفضل منه •

واخذت بطولات خميس تنتقل على لسان عبده الى كل مجالس السمر التي كان يرتادها في مختلف احياء ومدن مستعمرة عدن •• وصار صيته على كل لسان •• صار خميس بطلا قوميا ، وأصبحت حكايـــاته افضل مفتتح يبدأ به عبده حكاياته في مجالس السمر •• وكلما ارتفع شأن خميس في عيون الناس •• كلما اوغل عبده في نسج الاساطير البطولية من حوله •• ومن شدة تعلق الناس بهذه الشخصية آمن عبده تشوتيه نفسه بها •• وتجسدت في كيانه كله •• ووجد نفسه دون ان يدري يتعامل معهـــا في خياله كما يتعامل العبد مع معبوده •

– ١١ –

في موكب حزين تحرك ركب الاسرى في حراسة جنود الاحتلال فـــي طريقه الى قصر السلطان •• وفي مقدمة الموكب تحت حراسة مشددة كان خميس العفيفي يرسف في الاغلال •

– ١٢ –

دخل « الصافي دريس » (المخبر) علوان الى دكان السيت بروالا يحمل أمرا باستدعاء عبده تشوتيه الى مكتب مكافحة التخريب التابع لقلم المخابرات البريطانية •

- ١٣ -

صرخ الحاجب بقوة في وجه خميس العفيفي :

ــ أركع لمولاك السلطان .

قال خميس :

ــ لن اركع .. أنا لم أركع لمخلوق مثلي قط .

وبصق في وجه السلطان .

- ١٤ -

وقف عبده تشوتيه أمام « الجمعدار » حسين خان محاولا اخفاء دهشته .. ابتسم الجمعدار وقام من على مقعده واتجه نحو عبده وربت بيده على كتفه ملاطفا وقال :

ــ لك عندي مفاجأة لم تكن تحلم بها ابدا .. ان صاحب السعادة (الوالي) شخصيا ارسل لك هدية متواضعة مع اطيب تحياته .

- ١٥ -

كانت تعليمات صاحب السمو السلطان صريحة وواضحة .. كانت تعليماته تقضي بأن يجلد خميس العفيفي حتى يستسلم ويركع بين يدي سموه .. أو يستمر جلده حتى يموت .. لكن خميس كان حاسما قاطعا كالسيف في رده .. وقال للسلطان ما معناه :

ــ أنك لن تستطيع ان ترغمني على الركوع رغم سلطتك .. فأنا أقوى منك .. نعم انت تملك السلاح والمال والسلطة والاتباع .. لكني رغم ذلك أقوى منك .. تستطيع أن تقتلني نعم .. لكنك لا تستطيع أن تقهرني وترغمني على الركوع .. لذلك أنا أقوى منك ..

- ١٦ -

أشار الجمعدار حسين الى احد العساكر اشارة خاصة •• وبعد قليل جاء العسكري يجر خلفه حصانا جميلا نظيفا أبيض اللون •• وقبـل أن يفيق عبده من دهشته قال الجمعدار :

ـ هذه هي هدية صاحب السعادة •• انظر كم هي جميلة ورائعة •• هذا الحيوان الجميل الاصيل ملكك يا عبده منذ اليوم •• وليكن عربون صداقتنا •

- ١٧ -

مات خميس العفيفي بين يدي زبانية السلطان •• ودفن بتكتم شديد في مكان مجهول •• وسجن من تبقى من رجاله سجنا مطلقا •

- ١٨ -

سأل عبده تشوتيه الجمعدار بتهكم :

ـ ومنذ متى يتبادل صاحب السعادة الهدايا مع أمثالي من الناس ؟

قال الجمعدار :

ـ وما المانع ؟ خذها •• انها لن تكلفك شيئا •• فقط نريدك ان تكف عن ترديد حكايات المتمرد المدعو خميس العفيفي •

ـ اذن هذا هو الثمن •• قل لسيدك الوالي أن عبده تشوتيه يشكر الك كرمك •• ويعتذر عن قبول هديتك •

- ١٩ -

تحولت سيرة خميس العفيفي عند عبـده الى هستيريا تتصاعـد باستمرار يزيد في كل مرة من هياج جلساء السمر واصبحت مصدر اقلاق حقيقي للقائمين على الامن في المستعمرة •

وذات ليلة انتهز الفقيه مسعد فرصة مغادرة أغلب رواد السامر واقترب من عبده وعلى وجهه امارات الجد وقال له بهمس :

ـ ماذا دهاك يا بني .. انك تعرض نفسك لخطر عظيم .. أتعرف عاقبة الذين يتحدون السلطة ؟

ابتسم عبده في دهشة وهو يرى الفقيه مسعد جادا معه للمرة الاولى في حياته .. الفقيه مسعد الذي طالما نعته بالكفر والزندقة .. وكان يلومه دائما على قطع الصلاة والافطار في رمضان .. ويعنفه على مضغ «التمبل» ويشبهه بالمجوس لكنه شعر بالامتنان لهذا الرجل .. فشعورك بان هناك من يقلق عليك يمنحك نوعا من الراحة يفتقر اليها الكثيرون .. وقال مجيبا :

ـ لا تلمني على تصرفاتي يا عم مسعد .. فما دامت الخطورة موجودة فعلا .. وما دام الانسان يعرفها جيدا فان من الحماقة أن أعيش في توتر عصبي وقلق دائم بسببها .. لان ذلك يناقض الحقيقة القائلة بأن المحافظة على الحياة تعتمد على ادراكنا للموت .. انك اذا عرضت انسانا للبرد الشديد والحر الشديد فقد تتكون لديه قابلية على احتمال برودة او حرارة قد يموت غيره منها .. لذلك فانا اتخذ من شعوري المؤلم بخطورة الحياة وضعفي حيالها .. مقياسا أزيد به من قوتي .

ـ ٢٠ ـ

جعل الجمعدار حسين من عناد عبده قضيته الخاصة . بل اعتبره تحديا سافرا يستهدف النيل من هيبته والتأثير على مقدرته عند جهات الاختصاص .. لذلك بذل جهودا كبيرة لاستصدار امر باعتقال عبده ليتمكن من قمعه واذلاله انتقاما لنفسه وارضاء « للجهات العليا » .. وهكذا حصل على تصريح سام بأن « يتصرف بما يراه مناسبا لمعالجة هذه القضية مهما كانت النتائج » .

واقتيد عبده الى السجن ليقضي فيه ثلاثة اسابيع بدون تحقيق .. وفي

اليوم الثاني والعشرين بدأ الجمعدار حسين يباشر بنفسه استجواب عبده بشهيةمفتوحة وبتلذذ جم•• وقد بدأ الاستجواب برصانة مفتعلة وفيرداء موضوعي محايد •• بينما كان في الواقع يخفي في ثناياه رغبة عدوانية ظالمة وشهوة وحشية للانتقام •

وتدرج الجمعدار في تنكيله بعبده من التعذيب الجسماني بتصاعد محكم وصبر مثير •• كل ذلك لينتزع منه أعتذارا عما بدر منه •• وليرغمه على الكف عن ترديد حكايات خميس العفيفي السابقة في مجالس السمر واستبدالها بأقاويل ملفقة تسيء الى خميس وبطولاته وقدره عند الناس •• ولما فشل في ذلك راح يجدد له الاتهامات وينوعها يوما بعد يوم •

– ٢١ –

كان السكون يخيم على مجلس السمر على غير العادة •• وسحابة من الحزن الثقيل تظلل الجميع •• وبدأ « مهدي » الحديث بصوت مشروخ ••

كان مهدي يحتل مكان الراوية عندما يغيب عبده عن السامر •• وها هو الليلة يحتل مكان عبده الذي اجبره السجن على الغياب •• لكن الكلمات على شفتيه كانت ميتة منذ أن غاب عبده •• اما اليوم ، وبعد غيبة طويلة فانه يجد ما يقوله للسامرين رغم وطأته على قلبه •• وقلوبهم •

بدأ مهدي يمهد لقراءة رسالة تسربت اليهم من عبده في سجنه •• وكان السكون شاملا ومهيبا في استقبال كلمات الرسالة •• وقرأ مهدي كلمات عبده :

« لقد جربت قوتي في هذه القضية لانني اعتقدت انها ستجعلني اعرف نفسي •• الا انني حين فعلت ذلك ظهر لي ان قوتي محدودة كما كانت قبلا طيلة حياتي •• وقد سمعتم كيف احتملت صفعات الجمعدار وأصررت على

اعلان رأيي .. اما على اي شيء أطبق قوتي فأن ذلك ما لم أعرفه .. ولا أعرفه الى الآن .. ان ما عرفته هو أن رغباتي ليست قوية بما يكفي .. لانها لا تستطيع أن تقودني .. وهنا تكمن مأساتي » ..

بكى طفل في البيت المجاور .. وانطلق صوت مواء قطين يتصايحان في الزقاق .. وانحدرت من عيني مهدي دمعتان وهو يتابع كلمات عبده :

« لن أنسى ما حييت تلك الليلة من ليالي الخريف التي تمزق فيها القناع الذي كان يفصل بيني وبين عدم ثقتي .. لقد تتبعت افكاري بلهفة وهي تهبط طبقة طبقة لتوطد ادراكي مبددة كل الضلالات التي كانت قبل ذلك تمنعني من رؤيتها .. وتوضحت نفسي شيئا فشيئا .

كنت خائفا من الفراغ المجهول الذي كنت احس بانني سأطفو فيه بين لحظة وأخرى وانا اغرقكم طوال تلك الليالي في أساطير وحكايات فارغة .. ورجعت بي المشاعر الى طفولتي وعائلتي وقريتي .. وكل الاشياء العزيزة عليّ التي فقدتها .. الا ان تيار الفكر أجبرني على تلك المشاعر وعلمت فيما بعد انه لم يبق في أعماق ذهني شيء قط .. وشعرت بحياتي السابقة تلتهب فجأة ، وبحياتي الجديدة تبدو كئيبة لا فرح فيها .. فلم يبق لي الا ان اسير وحيدا وراء فكري القاتل الذي نفاني الى السجن » .

— ٢٢ —

ــ هل أنت شيوعي ؟

سأل الجمعدار حسين عبده في حقد وتهديد .. سرح عبده الى البعيد .. وبعد لحظة تأمل طويلة أجاب بصوت عميق رصين :

ــ لا أعرف على وجه التحديد .. ولكني لا أظن ذلك . لا لست شيوعيا .

ــ ماذا تقصد ؟

ـ لا أدري كيف أعبر عن ذلك .. ولكن .. ولكنني أحس ان الاحداث المعاصرة ليست سوى امور قديمة في روحي .. فانا قد تجاوزتها . كل معجزات العلم والاخلاق السائدة والحروب والتقاليد تبدو في عقلي كبنادق صدئة .. لان روحي تتقدم بأسرع مما يتقدم العالم » . لم يكن الجمعدار حسين خان ممن يفهمون مثل هذا الكلام .. ولم يكن ذلك غريبا على من يمارس مهنة كمهنته .. لذلك قال :

ـ اسمع لا داعي للفلسفة والكلام الفارغ .. اريد ردا واضحا ومحددا . قال عبده :

ـ للاسف لا املك ردا اكثر وضوحا وتحديدا .

ـ لا داعي للمراوغة وادعاء الذكاء .. فنحن نملك الوسائل التي ستحملك على الكلام المفهوم .. الا تريد ان تفهم .. نحن اقوياء .. ولو اردنا لمزقناك اربا .

ـ لا انا أقوى منكم .. صحيح انكم تملكون القدرة على قتلي بسهولة .. ولكن هذا ليس دليلا كافيا على قوتكم .. بل ربما كان دليلا على العكس .. تستطيعون قتلي .. نعم لكنكم لا تستطيعون قهري .. تلك هي القضية .. لذلك فأنا أقوى منكم .. بل أنا أقوى ممن همأقوى منكم .. بل أنا اقوى هل تعرف مرة كنت أمسك بالدول الاستعمارية الكبرى .. أمسكها هكذا .. هنا على ركبتي واجلسها هكذا .. أنظر هكذا .

حرك يديه النحيلتين حركة مكوك من أعلى ألى اسفل وكأنه يلاعب عذراء على ركبتيه .

ـ هنا .. هكذا ..

صفعه الجمعدار بقسوة . لم تؤثر الصفعة فيه وكأن قوة شيطانية قد تملكته وأخذ يؤكد :

– انني لا أكذب اقسم لك ان هذا ما حدث •

وتوالت صفعات الجمعدار حسين ولكماته ورفساته على جسم عبده المهدود الذي بدأ في الانهيار التدريجي تحت وابل الضربـات الشرسة المجنونة •

وفي اللحظة التالية لاح لعبده وكأن شيئا ينفجر أمامه •• وطفق شعاع بديع يسطع في روحه استمر ذلك نصف ثانية • ثم احس انه سمع نواحـا حزينا غريبا صدر عنه دون ارادته •• وبعد ذلك غاب عن وعيه الـى أن مات •

الشمس تغطس في المحيط [1]

بقلم
عبد الفتاح عبد الولي

الليل والظلام والسماء بلا نجوم .. البيت معلق فوق الجبل وصوت امرأة على وشك الوضع يملأ المكان . كان الصوت يسرح بين الجبال ويذهب الى اعماق الوديان مزعجا هدوء الليل ثم يعود ثانية الى الغرفة المضاءة بثلاثة فوانيس . فتحت الشبابيك فانطفأت الفوانيس الثلاثة .. وأبصر المولود ظلام الحياة .. كان هادئا .. وبسمة لا ترى مرسومة على وجهه .

الرعد يجلجل والبرق يشق السماء .. والرياح تقتلع الاشجار من عروقها .. انهمر المطر غزيرا .. بدأت النجوم تتلألأ وترسل ضحكات مكبوتة على هذه الارض الغريبة .. شقت سنبلة لنفسها طريقا بين الصخور .

ثلاث سنوات مرت منذ انتهاء الحرب ، وسنة الجوع ما زالت ضاربة خيامها في هذه البقاع .

---

(١) الجيش (مايو ١٩٧٥) .

ـ قتل الاحرار الامام في صنعاء •
ـ هناك حرب في فلسطين •
ـ الحرب •• الجوع •• الجوع •• الحرب •

★ ★ ★

الظل يغـادر المكان هاربا يتخطى التـلال الرملية بخطى طويلة ، والرمال الممتدة الى ما لا نهاية أخذت تتعرى وتكشف عن لـون بشرتها الذهبي وعن نهودها التي لا تحصى •• سقطت عليها أشعـة الشمس ، وبدون حياء كانت توزع القبل عليها وتلثمها بل وتغوص فيها الى الاعماق واهبة حلمات النهود الرملية الشهوة والدفء •

سافرت السحب الى الجهات الاربع حاملة على ظهرها بحار المطر • وبقت عين السماء الوحيدة تقدح شررا • في هذه الاثناء هبت ريح ساخنة مثيرة دوامات من الرمال المتطايرة التي ارتفعت عاليا الى عنان السمـاء ، محتجة على سفر السحب ومحاولة حجب نور الشمس المحرق • كـان عويلها ونياحها يصم الآذان كأن « ايوليوس » رب الرياح يعذب روحها •

★ ★ ★

لقد شب واصبح يغازل الفتيات في المراعي وعند الابار •• يذهب كل يوم الى (الفقيه) حاملا لوحة على ظهره •••
ـ أمست قناة السويس ••
ـ حرب في بور سعيد ••
ـ اعدم الثلايا في تعز ••• تلاه اللقية في نفس المكان •••
تغني العصافير في قلب أمـي ، لكن القلـب ما زال يقطر دمـا •• « والشمس كسول •• لا تدور » •••

ــ أماه •• أماه •• لقد اقتلعت الريح كوخنا •• أخذت سترتي معها •• انا عريان •• هل تسمعين يا أماه •••؟

أركض وراء الريح عاريا • لا تتركها تنزع سترتك و ••• جرى بعد الريح عاريا وكانت حبيبات العرق كاللؤلؤ تلمع على بشرته الداكنة، سقط ثم قام •• انكب على وجهه ، تمرغ بالتراب •• والريح تضحك •

ــ عد يا بني لا تطارد الريح ، عد عاريا سنبني الكوخ من جديد •• سأتقاسم معك سترتي •• عد •• عد •

★ ★ ★

تحطمت قصور هنا وهناك •• وانمحى ظلام طال امده • لاح من بعده الفجر في الافق ، فأعطى الايادي البيضاء قوة وصمودا • وسارت الاقدام نحو البناء والتعمير •

ــ المعاول رفعناها عاليا نحو الشمس •

البركان هنا زلزل الارض •• الفجر هنا رائع •• ترك قريته واتجه الى المدينة اينما يوجد السلاح ، وكان أمله ان يكون الفجر أكثر ضياء • وطارت الملكة عاليا في الفضاء في اتجاه قرص الشمس المنحدر نحو الغروب ، وطارت ذكور النحل خلفها • لم ينجح في الوصول اليها الا اقواهم وأشدهم بأسا ، عانق الملكة وذاق رحيق شفتيها المسكر تداخلت احشاؤه في احشائها وعاشا لحظات حب • عادت الملكة بعدها الى مستعمرتها وفي مؤخرتها تعلقت جثة حبيبها الشهيد • عادت الملكة وفي احشائها حياة ، واحتفلت مستعمرة النحل بدفن شهيدها الذي مات من اجل حياة من سيأتون بعده •



التهمت دود القطن كل اوراق الحقل وها هن مجتمعات تحت الوريقة

الاخيرة يناقشن ــ نصيب من ستكون ••؟ لم يصلن الى حل•• تقاتلن•• سالت الدماء مكونة بركة حمراء تحت الوريقة الاخيرة الحرب مـا زالت مستمرة ، انتحى ذكر وانثى أنهكهما التعب جانبا واخذا يتغزلان ويمارسان لهو الحياة وعندما عادا وجدا ان المجموعة قد انتهت •• ماتت وبهدوء مرا من على ظهور الموتى وتسلقا ساق شجرة القطن واقتسما الوريقة •

★ ★ ★

صوت أنثى من اطراف الصحراء •• يغني :

ــ صهلت جيادي تريد الرحيل •• اجتازت دجلة والنيل •

صوت ذكر من بعيد •• يغني :

ــ بأشارة اصبع •• سلكت •• جهات اربع تبحث عن منبع •• عن قوت يشبع •

★ ★ ★

تحت وهج الشمس كان طابور طويل من العرايا يسير فـي وسط الصحراء نحو الجبال ، وسرب من الغربان الجائعة يحوم في السماء منتظرا سقوط رجل ، هناك في الساحل كانت ألسنة الموج تقبل الرمال وتدخـل فيها تدغدغها وتهرب وكانت الاسماك الذهبية في اعماق البحر تلعب وتمرح وتحب ، والاسماك الكبيرة تطارد الصغيرة وتلتهمها ثم سافرت مجموعة الاسماك الى مواقع جديدة الى اينما يوجد القوت •

من أرض فلسطين عاد الى ارض البن شهيدا ، ترك دوائر حمراء عربية تضحك في وجه الشمس فاحتفلنا بمقدمه وسرنا خلفـه ونحن واثقون بأن الدنيا ما زالت بخير •

ــ الدنيا بخير •••؟

ــ ما زالت بخير ••!

وبحذر بالغ لملمت الشمس اشعتها وغطست في المحيط •• وأرخى الليل سدوله •• ولم ينم كل الاحياء في انتظار يوم جديد •

المايسترو البدين [1]

بقلم
كمال الدين محمد

كان اللحن يزحف ببطء ...

وقف المايسترو البدين بسترته الضيقة السوداء ، حتى ليكـاد كرشه يندلق من بين ازرارها ، يلوح بعصاه السوداء القصيرة ببطء .

زحفت الانامل على الآلات الموسيقية .. ببطء .

بدأت الآذان تسترخي على مقاعد الصالة ذات الظهور الضيقـة .. وتنام ، بالتدريج وببطء ..

اقعت المرأة ذات المؤخرة الضخمة كملكة نحل ، فاشخة فخذيها وبالت حزنا وكآبة ..

استمر رقاص الساعة المشنوق اعلى الجدار ينتفض بأطرافه محـاولا تخليصها من حبل المشنقة الرتيب ، واللحاق بعجلة الزمن الصاعدة ..

كان الزمن يحبو ، والمايسترو البدين يتطلع الى الخريطة الموسيقيـة من وراء عويناته ، ويشير بعصاه السوداء الى مواقع العـدو ، فتنبعث ارتعاشات الآلات الموسيقية خافتة واهنة تحت الايدي السئمة .

---

(١) الحكمة (مايو ١٩٧٦) .

ازداد استرخاء المتفرجين ، حتى اندلقت بعض الكروش من على الكراسي ورقدت على ارض الصالة حيث الفرش والبسط والحشايا الرشيدية .

استشعرت بعض الاكتاف المنهكة العريضة بالضيق من مساند المقاعد الضيقة ، تمطت فزلقت اجزاؤها السفلية ، وبقيت اجزاؤها العليا منكسة على كثبان رمل حشايا المقاعد الناعمة ..

اوجعت المقاعد الضيقة الاكتاف الاعرض ، فلم يعد بوسعها الصمت أكثر ، بدأت تهمهم وتلغط ..

ظل اللحن يزحف ببطء ..

انبعثت من الاكتاف الاعرض همهمات حنجرة اقوى ، وبدأت تستبين ملامح اصوات ..

ــ أوجعت ظهورنا المقاعد الضيقة .. افسحوا لنا الطريق الى السلم .. التفت المايسترو البدين الى ذوي الاكتاف الاعرض ..

ــ الصبر مفتاح الفرج .

ــ جئنا لنسمع لهدير سيمفونية بيتهوفن الغاضبة لا لقرقعة سلسلة مفاتيحك الصدئة .

ــ تريثوا قليلا .. بيتهوفن سيجيء ، بعد موتسارت . بذلك همس كرش بدين بلهجة متعالمة مقعرة وهو يلكم بطن المرأة ذات المؤخرة المنتفخة ، المقعية على ارض الصالة ، ويغمز بطرف عينه الوحيدة المطلة من سرته الداكنة ..

ــ انقذونا من هذا البطء القاسي ..

ــ ارهقنا النوم .. عطشى على مقاعد ضيقة ، تدغدغ افئدتنا احلام الاسترخاء الرخية البلهاء ..

ــ اطلقوا سيمفونية الغضب الحمراء ..

وصلت صرخات وزغردة ذوي الاكتاف الاعرض الى العازفين الحالمين، فأفاقت من خدرها أذرعهم ، وتجرأ فوه على النفخ في البوق : «الحرب!»، وبدأ اللحن يسرع •

ارتفعت يد المايسترو بهلع ، واشار الى الخارطة ••

ــ ليس موجــودا هذا •• غير ان البــوق انطلق كهزيم الرعــد ، واستمر اللحن يسرع صاعــدا سلــم الغضب الاحمر ، والعصا القصيرة البدينة تركض لاهثة أثره وهي تنشف العرق الغزير بكم سترتها الضيقة ، محاولة اللحاق باللحن •• واللحن يصعد ويصعد متسلقا النجــوم الى السماء ، فيما بدأت خطوات العصا البدينة تتباطأ حتى توقفت في منتصف السلم الهارمونــي تعبة منهكة ترقب اللحن وهــو يطلي السماء بحمرة الغضب ••

ارتجفت مفاصل المايسترو البدين ودارت الدنيا في عينيه من شدة الرعب لرؤيته بقع الدم الحمراء فداخ وذابت من فرط النصب والارهاق نصف كمية شحم ردفيه الثقيلين ، فتراجع خطوة •• ثم خطوة •

ظل اللحن يسرع وناداه • غير انه لم يسمع النداء من فرط الدوار الذي أصم أذنيه •• وشرع ينزل السلم الهارموني خطوة اثر خطوة •

بدأت العصا الغليظة تهبط ببطء •• ببطء •

عادت الايدي والافواه لتزحف في سراديب الآلات الموسيقية ببطء •• ببطء •

وعلى ارض الصالة المعتمة فشخت المرأة ذات المؤخرة الملكية ساقيها وبالت حزنا وكآبة •

واسترخت الكروش المنتفخة بالغازات على الحشايا الوثيرة ثم انسحبت ببطء ، ونامت تحت مؤخرة المرأة الضخمة حيث الدفء (ستبيض عندئذ

المرأة بيضات ملونة ، وستوزعها على الكروش في عيد النسيم ، وستغني جوقة المغنين : « آمان •• آمان ») •

ويلتفت المايسترو البدين الى ذوي الاكتاف الاعرض • وهو يلعب في يده اليمنى بسبحة سوداء ، وبين أصابع يده اليسرى ترقص مفـاتيحه الصدئة •• ويهتف بصوت جهوري : الصبر مفتاح الفرج •

فيرد عليه ذوو الاكتاف الاعراض : « جئنا لنسمع لسيمفونية بيتهوفن الغاضبة ، لا لسلسلة مفاتيحك الصدئة •• » •

وفيما تعزف الاوركسترا الخليطة سيمفونية
« آمان •• آمان » ،

سيظل ذوو الاكتاف الاعرض يتململون على المقاعد الضيقة ، ويحلمون بمقاعد متسعة •

انسحاب الارض

بقلم
عبد الله الامير (1)

أضرب بعصاك البحر فينشق البحر طريقا لتعبر فيه ..
ـ البحر : لماذا البحر ؟ أهاجر .. لا لن أهاجر : أنا أمتلك في خزائن ملكي حبيبات الرمل وامتلك الماء .

أمزج الرمل بالماء فأخلق الطين ومن الطين يولد الزرع والسنابل فتفرز حبيبات القمح والذرة ، والدخن ذو اللون الاسمر كوجوهكم ايها الاستوائيون من تصهر الحرارة وجوهكم فتموتون في الرمل وفي الماء وتحيون في الطين .

(1) ولد سنة ١٩٤٨ في تعز ومن ابوين يمنيين، بدأ تعليمه الثانوي باليمن، ثم سافر الى بغداد فحصل على دبلوم صحافة ، وهو يعمل الآن مدير عام الاعلام والثقافة باب . زار مصر وسوريا ولبنان والسعودية والكويت وقطر وليبيا ، نشر اول قصة له مسلسلة بصحيفة الجمهورية سنة ١٩٦٩ وبعنوان « طفل يباع في المهد » . وآخر قصة نشرها كانت سنة ١٩٧٨ بمجلة الكلمة وتحت عنوان « الدم والدخان » ، نشر قصصا في اليمن الجديد ، الكلمة ، الحكمة ، الثورة ، الجيش ، الجمهورية ، الرسالة ، وقد تأثر في كتابته بتولستوي وموباسان وتشيكوف وفيكتور هيجو ، ونجيب محفوظ .
أما قصته « انسحاب الارض » فقد نشرت في الحكمة (ديسمبر سنة ١٩٧٦) .

تهميشه
انا حقيقة هذه القصة لست بطلا خرافيا ايها الاصدقاء •

— ١ —

لم يبقما يثير الاهتمام، الحياة بضجيجها وألوانها، بحرارتها وبرودتها لم يعد لها في ذاتي انشراد •

— ٢ —

أن تتحرك عقارب الساعة أو تتوقف مسألة ليست ذات أهمية اطلاقاه

— ٣ —

ان تكن هذه النقطة التي اقف عليها نقطة البداية أو نقطة النهاية لا يهم ذلك وليس ثمة بداية او نهاية •

مدخل رقم « ١ »

هكذا صرت متمردا على قيود الزمن والوهم وعلى الطقوس الخرافية من حين كنت طفلا مرميا في هذه المدينة •
المدينة غير التي تعرفون ••

خلفني أبي الذي ودع هذا العالم الى حظيرة النسيان والتصوف •• أحسسه بعدها أن العالم خرافي وأن الوجود عبثي •

هكذا أنشئت في جو مليء بالفقر والتعاسة غيب عني مرحلة الطفولة اذ فقدت شيئا اسمه السعادة والابتسام حتى ما يقال عن براءة الطفولة لم أعرف ما نوع البراءة التي يدعونها •

تلك طفولتي القريبة البعيدة ، تعلمت منها كيف احب الناس لا كيف أكرههم •

مدخل رقم « ٢ »

أمي •• يرحمها الله •• كانت تجمع من عرق جبينها على المطحنــة الحجرية في قرية التعاسة والفقر مكايلا من الحبوب تطعمني اياه • أمــا أبي فانه لم يهتم بنا كثيرا ، لقد أنذر نفسه للاله في مسجد القرية تطارده اشباح ، الشيخ وشظف العيش •

مدخل رقم « ٣ »

ايها الاصدقاء : هي ليست قصة انها حقيقة هل تصدقون ما أقول ؟
ــ لا يهمني أن تصدقوا •
المهم أني متأكد من ذلك •

ــ ظللت احرث في جراحاتي •• أزرع في واحة نفسي الشوك لأعطي الناس الوردة وحينما كنت في السادسة عشرة كان أخي قد بلغ العشرين وكان الزمن قد طوى حباله على وجهي أمي وأبي فولد عندي حالة الرفض وعدم الاستسلام للأمر الواقع وظللت أحس بالاغتراب والتشرد • أحدق في وجه أخي المصلوب في الافق الشرقي يطالع في تجاعيد السماء المحمر : يقرأ الرمز ويفــك مغالقه : كان يجيد قراءة الرمــز في الالــوان ، وفي الاصوات ، علمني ذلك أيضا : حتى وجوه الناس من يحدق فيها مليــا يستقرىء أشياء كثيرة •

مدخل رقم « ٤ »

لنترك أيها الاعزاء الحديث عن الطفولة والصلب في جدران السمــاء وقراءة الرمز في الالوان وفي الاصوات وفي وجوه الناس لنقف هنا ••

هذه محطة الوقوف •• نزلت عندها ساءتني رؤية الناس يحملــون وجوها مقنعة يتلونون في الحرارة والبرودة •
أحسه أن الزمن وأنا أعبر دخان حرائق المدينة زمن الثورات في كل

العالم عندها أصبح التعامل بصدق ضرورة والوفاء للارض واجب مقدس والانتماء للوطن أصل الحياة .

مسلمات عدة آمنت بها في محطـة الوقوف لتحديد الاتجاه وبدأت المسير في زمن المجاعة والموت ..

الحزن كان يكبر كل يوم غير أني أحسست أن الابتسامة تشق طريقها اليه . ضحكت حتى كدت أن أستلقي .. لكن وجدت أني أبكي ..

بكيت أيها الرفاق .. اذ مات أخي .. مات يرحمه الله ..

ـ أتدرون لماذا مات ؟

كان قد حلم البارحة بأن أمه تضمه اليها وترضعه من ثديها الايسر .. قص رؤياه في الصباح فتداخل العلم بالواقع وبقيت أنا ذاتي وذات أخي أرسم في التراب لوحة العذاب البشري ووجه أخي الذي قيل أنه قتل ..

« ان من يريد أن يقتلك يحبك » هل تصدقون ؟. هذه الحقيقـة « أن القاتل من لا يأمل بالمـوت حياة » . لا أدري كيف علمتني الحياة المواجهة والصبر .

طعنوني في أكثر من موقع .. قالوا عني رجل عاشق يحب العذارى ويمارس طقوس الجسد مع الثيبات .

ملأوا ملفي الورقي بتقارير زائفـة ، جعلوا من كل خرافة قضيـة ، ملأوا الادراج الخشبية بزيف الكلمات .. ومات كل شيء ..

ذهب أيها الاصدقاء .. وبقيت أنا العاشق للارض .. لعيون الارض .. للهواء .. للمطر .. لعيون المطر .. يا صغار البلاد هللوا للمطر .. أزرع في ليالي الجوى طرقات المدينة بحثا عن التي :

(غابت رمالا في الصحارى

أو سرابا في الجبال الصلد

خلف مزارع الكرم النخيل الورد ،

والتمر الذي اقتات الرعاة)
قيل أنها في الارض
(صدق الذي قد قال أن الارض موقعها ..
وما بين النجوم خوى
وهي القريبة من شوارعنا التي ،
عبرت ركام رمالنا وصخورنا المتناثرات
أسقيتنا ماء الحياة)

مدخل رقم « ٥ »

مر الزمـــن .. لا أدري هل مر أم انه توقف .. لا يهم أن يدور أو يتوقف الزمن .. المهم في الامر أنني أحسه بصوت يتداخل في أعمـــاقي يدور عبر مسالك الدم ..

(الدم هو الحزن

ما برحت سحائبه سمانا
في الحزن بابحار مرأت اكتشاف الغيب
مرأت انتظار الغيث من رحم السماء
حملق ففي الافق البعيد ،
كوكبا تبدو تهاجر
أو تظل على سمانا
أعبر شواطىء الحزن
استقرأ جرامات اليتامى والارامل
خذ من ظلمة الليل المهيمن في سمانا
من عذابات الذين بكوا بدمع القهر
خذ سيفك وقاتل) .
تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير .

بما يشبه الدهشة أجبته :

ــ من ••؟

ــ وجه أخيك •

ثانية من ؟•

صوت أخيك •

(سبحان من يحيي العظام وهي رميم) •

ــ ألم تهجر هذا العالم ؟• قيل لي انك مت •• رأيتهم ذات يــوم يحملون جثمانك يمرقون به عبر شوارع المدينة وكان الاطفــال يرددون خلفك ترنيمات لها ايقاعات حزينة ••

أجاب بصوت قوي : لا ••• لا •••

ــ أنا لم أمت لا زلت حياء أمي لا تزال ترضعني من ثديها الايسر•• الايسر فقط • جئتكم حاملا قراءة جديدة غير التي تفهمونها أيها الاعزاء •

مدخل رقم « ٦ »

هذا صوت أخــي •• هل سمعتموه أيها السادة ؟ هل سمعتموه أيها الاصدقاء ؟ هو ليس ككل الاصوات • صوته له لون • لونه أحمر •

أحمر لون صوت أخي •

ــ من •• من •• غير أنه توقف •

أيها الاصدقاء أنا رجل فقد أعصابه هذا المساء •

الالوان أمامي تتغير •• والارض تنسحب من تحت قدمي •

أحاول أن أضغط على الارض •• لتستقر تحت قدمي •

أصرخ بكم أيها الناس •

الارض تنسحب • تنسحب الارض والجباه تسقط • تسقط الجباه اضغطوا معي ••

فينصب العرق من جبيني في حين تتخدر أعصابي لكني أحس بضرورة المقاومة •

هل تحسون أنتم بذلك ؟

تبدو القاعة مليئة بالناس ، يرفع أحدهم يده • أحس به سيقول نعم• أصرخ به •• لا •• لا ترفع يدك أعرف أنك ستقول نعم لكنك ستدفع الثمن ••

هذا العصر تتغير فيه اللغة والمقررات تصبح ملك الرب •

الرب •• هل تعرفون الرب ؟

هو الذي يتحكم بالحرف •

والحرف تصقله العذابات فيتحول الى خنجر •

من منكم يحمل خنجر •

من منكم يحمل خنجر • في صدره • في لسانه • في قلبه • في رأسه• في أي مكان • المهم هل منكم من يملك خنجر له حدان •

الصمت يسود القاعة والعيون تريـد أن تقول شيئـا • استرجعت الرؤية •

تنفست بحرقة ورأيت الـدم ينساب وينبت الورد وأشجـار الكرم السبئي •• أحس بالكلمات تتطاير من فمي •

ـ احمليني يا مزارع الكرم حبيبة تتدلى من بين وريقاتك الخصبة•• احمليني حبيبة تجنيها حارس الكرم •

فيعبق من مائلها العسلي •• سائلا أحمر ينصب ، ينصب في القنائن يتعاطاه الناس يقتلون به هموماتهم ينسيهم أشياء كثيرة لكنه يدفـع بهم نحو الغاية •• فاتنة المدينة معشوقة الدم والسيف •

ـ أيها الناس أحس أنني أهـذي منذ بدأ هذا المساء •• دعونـي

أهذي .. هذا زمن الهذيان .. أخبركم أيضا أنني بحاجة الى ثدي أمي الايسر القريب من القلب الذي رضع منه أخي .

— من منكم أرضعته أمه من ثديها ؟

لبن الثدي له طعم مذاقه حلو أقسم بذلك ان لبنه حلو المذاق .

لم ينطق أحدهم بكلمة غير أن الصمت صار هو اللغة أعرفه جيـدا حدقت بهم فرأيت أنظارهم تتجه نحوي كالحراب تحدق بحدة بشعـري المطلق للريح المعفر بالتراب يعكس منظرا ترتد عنه الرؤيا . أو على الاصح تثبت عليه .

— أخذوا يتهامسون فيما بينهم ، قال أحدهم : هذا قادم من معبـد الشمس .

— نعم أنا قادم من معبـد الشمس . من معبـد « المقه » من سبأ جئتكم « نحن أولو قوة . أولو بأس شديد » جئت أعلمكم نطق الكلمات، أعلمكم حب الناس .

أسمع أصوات تنساب في أعماقي .

— اسمك ؟

— معذرة اني لا أعرف اسمي الآن .

— ميلادك ؟

— هذه الارض الخضراء المدفونة بالرمل وبالنار .

— الهوايـة ؟

— جمع خيوط الشمس .

— المهنـة ؟

— رصاص حروف الكلمات .

— الحالة الاجتماعية ؟

— أربعة أطفال ما بين ذكر وأنثى متزوج منذ أربعة عشر عام .

قيل لي ذات يوم لماذا تزوجت في وقت مبكر أما كان الاجــدر أن تنتظر ؟ حدق بأطفالك أجسامهم عارية ، أنصت الى سماع أصواتهم أظنهم جياع .. جياع لا شك من ذلك .. انهم يحومون حولك عند مجيئك كل ظهيرة يطالعون في بريق عينيك ويلصقون عيونهم فــوق يديك وحين لن يجدوا معك شيئا يلوذون بالصمت فيكون بعدها وعندهــا تحس أنك تموت وراء كل دمعة وتمتد بك الرواية في مدارج الافق البعيد القريب . ويسحب شريط ذاكرتك عبر خلايــاه صور الطفولــة والشباب . الام والاب .. وأخيك .. والناس . والقاعة . وبائعي الشمــوع في أسواق المزاد ومفكري الرغيف . تتأوه كالعادة ثم تبصق فوق الجدار المتداعي فتثقبه ليدخل الضوء . وتهتم في أعماقك . لا لم يكن زواجي مبكرا . لا لم يكن .. ولكن الاطفال جياع . صحيح هذا . وتوقف .

الخروج رقم « ١ »

أصرخ بالناس في حالة استنفار .. أيها الناس .. لكنني أتوقف ..
ــ ثم أصرخ ثانية ...
ــ أيها الناس ...
ــ عسى انني أخاف .

في داخلي تعتمل الكلمات براكينا . أتمالك قواي كالمجنون. أصرخ. أصرخ .. هذا زمن الفجيعة ، زمن تموت فيه الحقيقة . قلت لكم انني أنا بطل هذه القصة الفوضوية . أنا بطلها فعلا .

ولكنها ليست قصة ، هي مجرد هذيان . استنفار .. او .. قولــوا عنها ما شئتم . المهم انه ليس بالضرورة ان تكون قصة . ان تكون نوعا من أنواع الصمت أو الافراز النفسي أو ... الحداثة .

الخروج رقم « ٢ »

الطريق كان يمتد • ويمتد • ويمتد : وفي الطريق كان الليل يتعثـر وصياح الاطفال بملء نحو كف النفس وديـوك كثيرة تصرخ من زوايا المدينة • والزمن كان قد ضاع • ومن جديد عدت أصرخ :

ــ أيها الناس من لم يملك في معصمه ساعة فليجدف بالنجـوم • النجوم الراقصة الاضواء تعطيكم الزمن •

الزمن من خلال النجوم •• والضوء من خلالها منحات الليل• وحنين يبرز النجوم في الليل •

يبدأ الضوء في الاشعاع فيتلاشى الليل •• وترتفع أصوات الاطفال مبشرة بالفجر الجديد القادم من صحراء الظلمة والحزن •

ماذا تعني هذه المقابر ؟ [1]

بقلم
حمزة هب الريح

ليست لملامح الشمس هنا من وجود ••• ووجه الشمس قد انسحب منذ أمد بعيد ••• في مثل هذه الاوقات ، ترتكب زهرة (عباد الشمس) خيانة عظمى ، اذ هي تعبد القمر فتحق علينا تسميتها (عباد القمر) •• كانت حتى ليالينا شمسية منذ قرون لا نعرف ــ نحن هذا الجيل ــ حتى ملامحها ••• وها نحن نطالب بعودة عقود الشمس •• هــذا عيننا ••• الطريــق كانت رملية تتعرج بين كثــبان وحفر عندما كان يسير و (س) متماسكي الايدي غارقين في لحظة حب عظيمة •

ــ الحب عظيم •••

ــ وأعظم منه أن نحب ••

المقبرة في الليل لا شك مخيفة ومرعبة ••• تحرسها كلاب أكثر اخافة وضراوة • المقبرة تسبح بسذاجة في ظلام دامس الا من نور خافت توزع هنا وهناك •

---

(١) الحكمة (يوليو ١٩٧٦) .

كادا يدخلان المقبرة .. تخوفا .. تشجعا .. لم يدخلا المقبرة فحارس المقبرة اشترط عليهما شجاعة كافية .. تأملا في المقبرة من وراء السور...

ــ فيم تفكر ؟!

ــ في المقبرة .. هنا ينام « فهد » .. و « محجوب » .. و ...

ــ و .. و .. واقف انا الى جوارك هنا .

ــ وهنا كان يجلس « جبران خليل جبران » لا ادري هل يتأمل ليكتب أم يكتب ليتأمل ؟!

ــ مجنون !!

ــ اذن فالجنون ابداع .

ــ كــذاب ..

ــ سأضطر الى الاثبات والبرهنة .

ــ لن تستطيع ..

شدها اليه .. ذابا في حالة اشتعال نادرة بالنسبة اليه . انتبه «جبران» وسجل هذه اللحظة بأسلوب استغربه هو نفسه . ابتسم « محجوب » وكذلك « فهد » .. « بن فهد » اسم للشجرة العائلية له . اشتــد النور والتفتا بذعر ووجل .

ــ تأمل في المقبرة .. انها مضاءة .

ــ تخيلي شبحا يفتح باب قبره ويجلس يحادثك . ماذا تفعلين ؟!

ــ ألا تصيبك الغيرة ؟!

ــ لنفترض .. ماذا تفعلين ؟!

ــ لا شيء سأخاف وارتمي الى حضنك مثل طفلة مذعورة ..

ــ ولكن أهذا صحيح ؟!

ــ ما هو ؟!

ــ الشبح ...

ـــ وماذا تعتقدين ؟!
ـــ جدتي كانت تقول •• ان الاموات تصير ارواحا في السماء •
ـــ هل تصدقين جدتك ؟!
ـــ بالطبع •••
ـــ وماذا عن تفكيرك العلمي ؟!
ـــ اني أخاف جهنم والنار السعير •
ـــ هل تعتقدين بجهنم والجنة •
ـــ ربما لا •• ولكني أخاف النار •• ولهذا اعتقد •
ـــ لا تخافي سندخلها سويا •
ـــ اذن اتفقنا •• سيداتي ، آنساتي ، سادتي :

« ما عدت أخشى النار » •

ضحكا •• تراقصت لاول مرة القبور وحتى الاتربة • وزعت منشورات يسارية لساكني القبور •• استغرقا في الضحك •• تشابكت الايدي والشفاه والتحم الجسدان • تشممت أنفاسه وتشمم أنفاسها •• شعر ببرودة كفه فخبأها بين نهديها تتدفأ •••

ماذا تعني هذه المقابر •• وماذا يعني الجسدان الملتحمان • في طفولته كان يغالي كثيرا في احتشامه فيكافأ بقطعة من الحلوى كبيرة ونصف شلنج • ولما يعرج على المسجد امام الناس جميعا للصلاة كان يتألم كثيرا لجبينه الرقيق اثناء السجود •• ويصلي في الصف الاخير • اذ انه احيانا يتواجد الشيطان في المساجد على الرغم من تلاوات الاعاذة بالرحمن من رجسه ••

انه يعترف في سره بكل شجاعة : كنت غبيا الى حد كبير وانا أمثل التأدب والاحتشام • ولم أكن أعلم ان الجنس غريزة مشروعة من غرائز الانسان ودليل صحة •

ماذا تعني هذه المقابر ؟! وماذا يعني الجسدان الملتحمان ؟! كان يتساءل عما ذهب بهما الى المقبرة •• وهل التجآ للخلوة والهدوء ام خشية لالسنة وعيون ؟! ولكن ثمة امكنة اخرى تتوافر فيها نفس هذه الصفات •• ماذا تعني هذه المقابر ؟! ماذا تقول ؟!

ــ قل لي ماذا تقول حين لا تقول ؟!

ــ أقول : ما يحدث لو انني قعدت ليلة مع اوراقي في المقبرة ؟!

ــ تكون (جيران) ••

ــ لماذا (جيران) ••؟

ــ لانني أخاف عليك وأريدك لي •

ــ أنت انانية •• ولكنك فاتنة •• وتعجبيني كثيرا •

وجد ذات يوم ــ وهو كعادته في المقهى يحدق في الوجوه ويتأمل في الاشياء والحركات ــ من يقول : « العالم يحترق » • لم يقاوم حكة لسانه فأعلن للملأ بلادة هذا القائل • وان مخاوف هذا الهلاك تتلاشى تماما •• مثل هذه القبور التي يجاورها مصنع تتحرك فيه الايدي بحيوية غير مبالغ فيه •• ولكن •• هل تتحرك الايدي في هذه المقابر وهل تتشكــل المقبرة مصنعا • ماذا تعني القبور اذن ؟! وما الحكمة من طمأنينة المقابر في حضن هذه المدينة • وما الحكمة وراء غفوة حبيبته في حضنه •

ان زهرة عباد الشمس ترفع رأسها عاليا للشمس انها تتحدى الشمس ولكنها عباد الشمس فكيف يعقل هذا اذن ؟! انها ليلا تطوع رأسهــا في انحناءة للقمر •• والعباءة رمز الخيانة ولكن هل هي كذلك منذ أمــد بعيد ؟!

انجرفت تيارات عنيفة لتجبر رأسه على الانفصال عن عنقه • اصابه الضيق • غرس أنفه في شعرها واخذ نفسا عميقا شعر بعده بارتياح عميق•

ـ احبك انت •• يا رمزي الوحيد •

ـ وهل هذا بفعل تأثير العطر في شعري •

وكان منه ان اثبت حبه لها من غير حاجة الى تنبيه عطورها • احيانا يفقد الزمان شخصيته • يصير دون هوية •• لا يحس •• لا يشعر به احد • هتف في سره : ان عملية الحب هي ثورية ايضا • مرة اخرى ماذا تعني هذه المقابر ؟! وماذا يعني التحام الجسدين ؟!

ـ لماذا تحدقين هكذا ؟!

ـ أريد ان التهم كل ملامحك •

ـ ثغرك اضيق من ثقب ابرة •• كيف تلتهمين ؟!

ـ أتنوي السخرية بي •؟

ـ انوي ان امزح •

ان هذه القبور حزينة • وفلسطين قضية تتشبث بها حقائب السفر •• و •• و •• عناوين كثيرة لاشهر ممثلات (هوليود) • وفلسطين جريدة تستوعب وريقات القات في محافله • ان القضية الحزينة لا يعيها الا الحزين •

ولكنهما يتعانقان يسترهما صمت القبور •• وحارس المقبرة قابع مسندا رأسه على تراكمات الشحوم القائمة في بطنه •• وصفير المصنع يدوي على غير ما يحدث كل يوم •• فزعا فاشتدا تلاصقا وامتزاجا • ارتعشت المفاصل •• ليس بدافع من برد او خوف طبعا • احسا بدفء على الرغم من برد (تشرين) وامتناع الوقود • خف صفير العاصفة ـ أقصد المصنع • واكتست الساحة صمتا وسكونا •

ـ هل أبدو جميلة ؟!

ـ قد اراك اجمل • وقد يراك غيري جميلة • المسألة طبعا نسبية •

ـ سأصاب بالقرف •• اذا أكثرت •

ــ لا تنزعجي كثيرا •• يكفي ان اراك اجمل مما أرى •

المقبرة رهيبة لانها تشير الى مصيرنا الرهيب •• ردد في سره : « كل نفس ذائقة الموت •• لو كان في الامر خيار لما ذاقت أية نفس هذا الموت» •

ولكن ما الذي أتى بهما الى هنا • ماذا تعني هذه المقابر ؟! وماذا يعني التحام الجسدين ؟!

ــ أنظر •• أنظر •• هل ترى ؟!

سمع في نبرتهـا ما أرعد لـه فرائصه •• ولكنه لا يعتقـد بالجان والعفاريت • هل يعقل ان تتحول المقابر كهوفا للجان كما أوحت اليه نبرة صوتها الخائف • حتى اللحظة هذه لم ينظر ؟! من المؤكد ان يكون مفزوعا •• الجان ــ لديه ــ أمر وهمي لا تعرفه ايهامـات جدته التي احتفلنا هذا الشهر بعامها الستين • أيقن انه ما زال تحت سطوة تلقينات الطفولـة الغارسة في النفوس اعتقاد الجن •••• « وخلقنا الجان من مارج مـن نار » •

ــ أنظر •• أنظر •• هل ترى ؟! اني خائفة •

لم يسعفه اعتقاده الراسخ ووعيه الرصين • حاول تمالك نفسه تذكر أقاصيص جدته ايام كان طفلا « نحن نقص عليك احسن القصص » مرة ثانية ، حاول ، ثم ثالثة • نظر •

كانت توزع اشعاعات عينيها الى كل قطعة من تلك الساحة •• خاف ان تكون قد تسمرت وتصنمت بفعل الخوف الكبير من الاشيـاء شعر برعشة وقف لها شعره المزروع في جلده • ولم تسعفه أيضا لحظات الاحتراق والتحرق ومداعبات الشفاه وشقاوة الاصابع واخيرا نظر •

اين المقبرة ؟! اين القبور ؟! ما هذا الذي اراه •• صرخ في نفسه سرا حتى لا تنفزع •• يكفي ان تفزع اليه نفسه ••

اين المقبرة ؟! ما هذه الاضاءة الشديدة •• صاح بصوت مسموع هذه المرة ••

ــ يا •• ماذا ترين !! لا أكاد اصدق !! هل اصابني العمى •• كيف يحدث هذا ؟! أيعقل ذلك ؟!

ــ تمهل •• تمهل ••

ــ انها كما ترى عيناك منازل عامرة ••

ــ منازل عامرة !!

ــ وأطفال يلعبون ••

ــ أطفال يلعبون !!

ــ وهذه اشجار كما لم تر عيناي من قبل •• وذاك نهر وتلك مصابيح مضاءة •

ــ منازل واطفال •• اشجار نهر ومصابيح •• هل نحن في حلم •

ــ ليس حلما ما ترى ••

مرة اخرى •• ماذا تعني هذه المقابر ؟! وماذا يعني التحام الجسدين؟! حدق قليلا •• كثيرا •• تأمل •• زالت عنه الدهشة وانصرفت مـلامح الاسئلة • عرف معنى القبور •• وادرك سر التحام الجسدين •

ــ احبك •• احبك انت رمزي الوحيد •

ــ أحبك واريدك لي يا مجنوني الكبير •

ــ ما تزالين انانية •• لكنك تعجبيني •

ــ هل ندخل ؟!

ــ هلا دخلنا ؟!

ضمها اليه قليلا •• سارا متعانقين •• رددا :

المنازل عامرة •• ندخل او لا ندخل ؟!

المصابيح مضاءة • • ندخل او لا ندخل ؟!

واختفيا ••

وتلاشى ترديدها •

البرعة الاخيرة [1]

بقلم
عبد الرزاق محسن الرمحي

الساعة العاشرة صباحا والشمس الساطعة تتجه تدريجيا نحو الغرب محاولة الوصول الى كبد السماء ، لتطلق لهيبها المستعر على اجساد البشر النحيلة . اصوات تنطلق من هنا ومن هناك ، ابواق السيارات والموتورات المزعجة تصم الآذان حتى لا يكاد الانسان يميز الاصوات المتصاعدة من كل جانب ، كتل بشرية تأتي وتسير في جميع الاتجاهات موزعة على جوانب الارصفة بغير نظام تصطدم في الدقيقة الواحدة بعشرات الاجساد دون ان تلحظ كلمة اعتذار .. وفي ركن قصي من المكـان ينتصب مبنى صغير ميمما وجهه نحو الحشود المتنوعة يراقب كل صغيرة وكبيرة ، يحتضن شجرة مورقة ظليلة يقف بجانبها اثنان ليسندا ظهريهما الى جذعها الضارب جذوره في الاعمـاق .. وقد علق أحدهما على صدره (طاسة) والآخر (مرفعا) . كانا وحيدين في ذلك الركن الا ان الناس بدأت تتوافد عليـه مشكلة دائرة هندسية حينما انطلق ــ صوت ايقاع البرع مدويا ، معلنا عن وجوده واستعداده ليوم برع ساخن . الحشد ينمو ويكبر وفي كـل

---

(١) لم تنشر ، والبرعة رقصة شعبية يمنية تؤدى بطريقة جماعية .

ثانية يصل شخص او اثنان وبدت الدائرة بعد قليل تضم في مجموعهـا لفيفا من الصور والاشكال والازياء الطويل والقصير ، الابيض والاسود، من يرتدي بنطلونا ومن يرتدي الملابس الوطنية ، الاجنبي والملحـق • تزاحم الركن بالنظارة وايقاع البرع مستمر في الهدير ، الـدائرة تتسع وتضيق الا انها خالية من « الرقاصة » ، معظم الحاضرين له دراية ورغبة لكن الخجل والخوف مسيطر على الجميع • العيون المترقبة تـدور في الجموع باحثة عن الرجل المقدام الذي سوف يكسر حاجز الخوف ويفتتح اللعب لم يتقدم احد •

واخيرا صاح احدهم :

ـ اقدم يا صالح : تقدم صالح ،

ـ بسم الله ••• مع من ••• أين الذي يسايرني ••• وبرز آخر •

ـ انا •••

كانا شابين متقاربين في السن وفي الهيئة فسح لهما الطريق وعبرا الى الوسط بخطى كسولة وعلى شفاههما ابتسامات الحياء • استل كل منهما (جنبيته) وبدأت خطواتهما الوئيدة الرتيبة تتحسس طريقهـا مع ايقاع البرع الصاخب • الانسجام يتنامى في جسديهما القويين فيتحركـان في رشاقة وعنف يصولان ويجولان داخل الحلقة كأسدين مفترسين، حركاتهما دقيقة ومحسوبة يرفعـان ارجلهما ويضعانها معـا ، يتقدمان الى الامام ويدوران الى الخلف بخفة ومرونة فأمتزجا وتحولا الى رجل واحـد • والجمهور منبهر لذلك الابداع مركزا ابصاره الى الاسفل لمراقبـة نقلات الاقدام المنتظمة ومتابعتها ذهابا وايابا وبين الحين والآخر تشذ عن احدهم نظرة الى اعلى لمشاهدة الانفعال المرتسم على وجهيهما المخلوط بـالعرق المنهمر • تسمع من البعض كلمات الاعجاب والتشجيع وحماسهما يندفع حتى يخيل للرائي انهما يلعبان في الهواء • حاول كل منهما ان يثبت قدراته ومهارته في فن البرع فكانا متكافئين لا يفوق أحدهما صاحبه • توقفت

دقات البرع فتوقفا معها وخرجا من الساحة لاهثين من الاجهـاد والتعب يجففان العرق المتصبب عليهما .

استأنف ايقاع البرع صراخه وتزاحـم الراقصون في التوافد على الساحة مجموعة بعد اخرى ، والشمس مستمرة في محاولتها التسلق نحو الزوال لم يكل الجمع من الرقص والتطلع اليه بل زادت رغبات الناس في البقاء مع زيادة ايقـاع البرع المثير الذي كان يصرخ مستحثا الاجساد الواقفـة حوله لتشبع نهمها من الرقص وتطهر كوامنهـا من الانفعالات المشتعلة داخل النفوس . في هذا الجو الملتهب خلت الساحة مـن طالبي الرقص فوقف رجل عجوز في وسطها باحثا عمن يرافقه في البرعة القادمة . في البداية لم يتقدم احد فقد شعر البعض انه غير قادر على مواصلة اللعب حتى نهايته ولم يسكت على هذه الاهانة بل نادى بصوته الواهن عـلى الفارس الذي سينازله .

تقدم اليه شاب بين ضحكات السخرية والاستخفاف لمنازلته استعاد البرع ايقاعه فأبدى العجوز همة ونشاطا من أول حركة له . فكان على الشاب ان يصاحبه في نشاطه فتكلف السرعة واجهد نفسه لمسايرة الرجل العجوز في رقصه وكان واضحا تفوق الرجل العجوز عليه وانتهت البرعة ولا زال العجوز مصرا على الاستمرار ليخيب آمال المتفرجين الذين اشفقوا عليه من التعب عندما تقدم الى الساحة في البداية . طلـب من آخر ان يصاحبه في البرعة التالية فتنافس الشباب على الرقص معه وتقدم واحـدا تلو آخر فيلازمه الواحد منهم حتى يتملكه التعب فيخلفه آخر وهكـذا وهو صامد في الساحة كالفارس المغوار متحديا كل من يتقدم الحلقة من الراقصين . وهناك بين المشاهدين يجلس طفل صغير لم يتجاوز العاشرة من عمره يراقب المشهد من بدايته ويتوق الى التقدم الا انه كان خجلا من ابداء تلك الرغبة خوفا من ان ينهره الحاضرون ، تغلب على خجله وخوفه

وتقدم ولم يعترض عليه احد • كـان المنظر يبعث على الضحـك وعلى الاعجاب في نفس الوقت طفل في مقتبل العمر ورجل في ارذله يتنافسان على التهام الساحة بخطواتهما الرتيبة المتطابقة ينطلقان في جميع الاتجاهات لم يظهر عليهما أي أثر للاعياء زاد من اثارة المنظر اتقان الطفل وحذقه للرقص مما حفز الرجل العجوز الى ان يعطي احسن واقوى ما عنده انتهت البرعة وطلبا المزيد واستمرا على هذا الحال برعة بعد برعة والحاضرون يستمتعون وينتظرون تراجع احدهما واظهار فشله في مجاراة الآخر • ولم يظهر شيء بل كانت دقات البرع تتصاعد وتتعالى لتزيد الرغبات اندفاعا والقلـوب خفقانا والعقول متعة الشمس تزداد اشتعـالا والاجساد المحوطة عـلى الساحة لا تحس لسعاتها فقد ذابت في معمعة الصراع القائم في الـدائرة شاخصة بابصارها وارواحها الى الساحة في ترقب وانتظار نصر اي منهما، ولم يقبل احدهما الفشل ولم يرض لنفسه التقهقر والانهزام رغم الجهـد الظاهر عليهما • وكلمـا اعلن البرع عـن رقصة اخرى زاد حمـاسهما وابداعهما واقترب موعد زوال الشمس العرق يتصبب من الاجساد المنفعلة والرجل العجوز صامد امام ذلك الطفل العنيد وتجاعيد وجهه تتأخذ أكثر وأكثر • يغمرها العرق كجداول ماء ينهمر من محياه آمال الزمن وهما في المعترك وقد اخذ التعب منهما كل مأخذ ، ولم يخف ذلك على النظارة فقد بدأت مفاصل الرجل العجوز تتراخى وحركاته تفقد توازنها وانضباطها مع ايقاع البرع أسفر الاعياء على محياه واغلق عينيه ووقف يهتز في مكـانه فعجزت قدماه عن الاستمرار في حمله فتثنى جسمه شيئا فشيئا وهبط من اعلى قامته الفارعة الطول حتى سقط على الارض فاردا ذراعيه ورجليه كل في جهة وجسده المديد يستحوذ على نصف الدائرة • بينما استمر الطفـل في ادائه دون مبالاة بما يحدث حوله • متباهيا ، مفتخرا ، فاغرا فاه عـن ابتسامة نصر عريضة ••• ابتهاجا بتغلبه على خصمه في الحلقة •

لم يتورع الحاضرون عن اطلاق صيحات السخرية والكلمات اللاذعة والضحك المسموع عند سقوط الرجل العجوز على الارض وابداء الاعجاب والاطراء للطفل المعجزة الذي لا زال يواصل لعبه في الساحة . وفجـأة ساد الصمت والدهشة جميع النظارة وتوقف الضاربان عن الايقاع وعلت الوجوه مظاهر الهلع والاسى والشفقة فقد تبين لهم ان ذلك الرجل العجوز لفظ انفاسه الاخيرة .

وما هي الا لحظات حتى تفرق الجمهور المحتشد وخلت الساحة الا من ذلك الجسد الميت المتصلب تحت تلك الشجرة الوارفة الظلال .

من لغو الصمت[1]

بقلم
احمد الزبيري

الا ما أجمل هذه البلاد ، سماؤها كأنها مغموسة في زرقة الاحلام •
وارضها تبدو مصنوعة من عزيز الاماني وغزيرها سماء مزرق •

وتراب وهاب ، وبين الاثنين شمس فتية تنطلق شبابها الى كل ركن •
ومع كل حين ، كانها خيال ابدي فوق فرس مطواع ، سحرته الارض بأخضرارها الخلاب فانطلق بفرسه الموهوب يجول في كل مرتفع وواد •

والاخضرار ينشر خيره وبهاه ببراعة •
وهنا وهناك تنوع ذكي في الطقس وفي التضاريس الجغرافية •• وفي أنواع التربة الزراعية، فبرد صنعاء يمكن الاستعاضة عنه بدفء الحديدة، وازاء رطوبة الساحل ستجد التعويض في جفاف الداخل واتساع المنخفضات يعطي العزاء عن ارتفاع الجبال •

في وجوه الوديان تلمس التواضع والبساطة ، فاذا رفعت عينيك تلقى التجلد والعلو في غلظة الصخر وشامخات الجبال •

أي أرض هذه ••• وأي ظروف جغرافية وهبت ••؟

---

(١) الجيش (أبريل ١٩٧٥) •

ومع ذلك فان السكان .. اه نعم البشر يختلفون .. انهم شيء آخر هناك ... آه كيف أستطيع أن أعدد.. هناك الف هناك .. فألف عام من ضغوط القهر والحرمان .

وويلات الجهالة والمرض قد خطت الف . وشم في نفوس السكـان ، حتى يخيل لمن قد يراهم لاول وهلة .. يرى ناس اليمن انهم من سكـان كوكب آخر ربما يكون الجحيم ، وليسوا من خصوبة هذه الارض .. وزرقة سماها .. وذكا تضاريسها وهواها .

هذه هي القصة . والمستقبل وحده عنده الخبر اليقين . فعلينـا ان ننصت له وننظر بدايته ، لنقطف من بواكيرها اول الامال في اشراقة مقبلة تورق في الروح الظامئة طري الغصون . وتشع فيهما جميل الاماني .

وعندها سيتأقلم السارق .. ويغرق القرصان . ويذوب الجاهل ويغيب المريض ويموت العوز ، وتنضم اليمن الى ذلك الركن من الدنيا ، الـذي تمشي فيه الامور على طبيعتها وحينذاك .. آه نعم .. ما أجمل الصبر .

على ان المقدرات الصغيرة قد بدأت تظهر ، وتفرض ضياها على السحب ذلك الفتى الذي رفض أن تظل أخته في قبول الجهالة ، فأرسلها برغم أنف أبويها الى المدرسة ... وذاك الموظف الذي فضح اختلاس كبير رؤسائه ووفر لخزينة البلاد ربع مليون ريال او تلك الراعية التي ظنوا فيها جهالـة كيف تعاونت مع البعثة الطبية السويدية بتلك الروح التي تشبه بسالـة المقاتلين فانقذت قريتها من وباء كان يفترس جميع سكان تلك الناحية .

نعم . هناك براعم بدأت تنشط وهناك محاولات بدأت تحبو ، ولكن ماذا يقول ذلك المثل الالماني .

نعم .. لا تمتدح النهار ، قبل ان يأتي المساء .

وعن نفسي ... انني أسأله احيانا عـن نفسي ، واتلفت باحثـا عن

منجزات رجوت ولادتها من شخصي ، فلا اجد شيئا غير الدوامة ، واما المشاريع النضالية ••• والاحلام الخاصة فقد ظل تحقيقها في وادي الخيال ••• أخ يا ربي ••• لماذا ••؟

وهذه السيارة لا تعرفني ، ولا افهمها فقد استعرتها من صديق •• ولم افكر قط في الحصول على مثلها ولم اسأل نفسي : لماذا ؟؟

ربما لان الاصدقاء لديهم الكفاية من السيارات ••• بل وما فوق السيارات وما حولها •• وما لازمها ، وما يلزم لها ولكل اخواتها واهلها وبنيها فمنهم الذي بنى •• والذي اغتنى والذي احتوته أو (ابتلعته) ضيعة في اتساع السماء •

انهم بشر •• نعم بشر دخلوا البلد فوجدوا ان يخضعوا للنواميس الدخيلة التي اغتصبت حياة بعض الناس منهم ، فسقطوا فيما أسموه بـ «التعقل» ••• واعترفوا بالتشويه الذي يأكل هيئتهم ، ويمسخ عبيرها اليمني الى تنانة وجيف •

وربما انني قاومت •• وربما ان الاجتهاد في صد التيار الساقط قد يعلو الى مستوى النضال ، ومع ذلك ــ او برغمه ــ فيبقى السؤال العظيم : ماذا فعلت بتلك المقاومة ••؟

واذا صدقت مع نفسي فان الجواب سيكون : لا شيء •

« هاك يا مصلح مشروعا مباركا : الف مارك شهريا •• واجازة اربعين يوما في جنات «كاليفورنيا» كل عام•• وأعمل عقدا لمدة ثلاثة أعوام•• »

لكن كانت استجاباتي تستقي ذراتها من نبع بعيد •• كانت انفعالاتي محكومة كلها بارادة ذلك النبع فصعرت الخد لذلك المشروع ، ولملمت كتبي ، وملابسي وانطلقت مع اول طائرة بشوق يرعش دمي ••• وآمال تسكر فؤادي • ثلاث حقائب وحزمة آمال •• وأشواق كالنار •

حطيت الرحال ، ثم نثرت الآمال لاختيار ما يمكن تحقيقه منها وطال الاختيار لجميع الاحلام ... و ... خذلتني ... وكلها .

آه نعم كل عيدان الحزمة المجموعة من عميق الادراك للمسؤولية فضحت ، لانها لم تقبل الاشتعال ... فلم يلمع منها عود ... ولم تنطلق شرارة واحدة الى عالم التحقيق ، ثم جاءت النهاية لتسقط بواقيها في وادي النسيان .

وازاء ذلك تحفزت لذيذ الذكريات لتغرد أجمل الوعود ... وتمني روح التقهقر بعذب الانتصارات في بلاد البرد فيما لو عدت ... لو رجعت اليها .

وفوق هذا لاحت المليحة تصفق بنغم بليغ ... وتتلو بابرع فن آيات حب بينات : « ان رافقتك غمامة والشمس في مركز السماء ، او صاحبك حلم ذهبي والليل في أعماق الزمن ، فاعلم انها عظمة أشواق الليل .. » .

أي نغم هذا ... وأي عواطف تغنيه ..؟

ومع خائب الآمال واتساع الحرمان .. واتصال الضراوة للتيار اياه ... التيار الذي يجرف .. ويدفع للسقوط الى تلك البئر الدنسة، واكب هذه اللعانات مرض مرهق يحتاج هو الاخر الى طاقة لمقاومته سواء مادية او معنوية فالمحافظة على الذات واجب .. وواجب ذو اهمية كبرى . لكن شنشنة المصالح .. واتباع أسلوب المقايضة .. ومباركة شريعة الغاب.. يا قوم هذا خراب وتخريب لا استطيع المشاركة فيه الا اذا استطعت ان ألغي عقلي .. وانفي مشاعري الى جزر الجحيم .

فالمسألة فيها ــ على اقل القليل ــ شوية نظر . نعم هو الطبيب البارع . « انا لست معك فيما تقول ... المحافظة على الذات نوع من الواجب .. وفي مثل حالتك يحتاج بذل الواجب الى طاقات مضاعفة فهو يستأهل البذل ، فالمسألة امضاء .. فلماذا تصعب الامور ..؟ » .

نعم •• المسألة امضاء • هكذا يقول ، مجرد امضاء ويحصل على ثلاثة صناديق أدوية بسعر التراب لصيدليته التي تكبر ، وتنتفخ من شحم ؟ هؤلاء الذين يعتصرهم المرض وينهشهم الف عار • أهكذا ترضى الامور ان تسير •••؟

فكيف تكون الجحيم أذن ••؟

ما جئت الا لاضع بلسما يخفف انين جريح •• وما اشتغلت في هذا المركز الا لظني ان في قدرتي منه ان انمي وردة ، احتضنها الى بابك تجفف بعض حزنه •

لا يا دكتور •• لا •• رخيص طلب غالي •• بل انت رخيص طلب شيء مخيف • وهذا يقيني • وهكذا سأتعامل معك •

فليذهب قلبي الى العفاريت ان لم استطع ان امنع هذه الصفقة الوحشية •

لكن •• من هذا الذي يلوح بيده •• تقي ••؟

آه •• نعم فكر التقي هو بعينه وجسده المترهل •

اوقفت السيارة ، ونزلت اليه محييا بدافع التخلق الحميد واستقبلني هو ببشاشته المزمنة المزمنة رغم شيء •

ـ اهلا •• يا مرحبا •• والف مرحب •

ـ ••• وبسيارة ••؟ فانتو قلتو انكم لستم من أهل ذلك ؟•

ـ نعم •• لسنا •• والسيارة ملك صديق استعرتها منه من اجل نزهة قصيرة •

اتسع فمه فوق ما هو عليه وقال بصوت كالكرباج •

ـ آه •• نعم المسألة تبدأ بعاره ••

•• وبعدها تقول وانا لماذا لا يكون لي مثلها •

قطعت صوته ساخرا •

ـ قصدك المسألة تبدأ بعاره ، وتنتهي بعار ••؟

ــ سمي ذلك كيف شئت •• لكن ، ولو قطعت موضوعك ، الرجـل زعلان منك •• لماذا تقلب الامور •؟

ــ البلد كلها مسطولة • والمقلوب يبدو مستقيم •

ــ فلا تحاول ان تكون انت الصاحي الوحيد فيها ، والا اعتبرك الكل المخمور •• والمخمور الوحيد •

ضربت كفا بكف ودرت بعينيَّ حول جبال عصر وانا اجيب •

ــ لست ادري ••

خيّل الي وأنا أدور بنظراتي حول المرتفعات الجبلية التي تطوق صنعاء بأن هناك حلقة في سلاسلها اسقطتها طبيعة التضاريس الجغرافيـة مـن الحساب • وهكذا دون حق •• ولا سبب •• او حتى اخطار مسبق به •

ــ مالك •• فيم تفكر ••؟ اختلقت جوابا •• ثم عذر ، وادرت ظهري وانا الوح له مودعا لاركب السيارة صاعدا في مرتفعات عصر •

وتراءى لي انني سمعت صوته مع أزيز السيارة صارخا •

ــ ألا تتأنى •• الا تتعقل ••؟

★ ★ ★

غرفة العمل •• على نفس الوضع المتروك يوم الخميس :

اوراق مشتتة في اباحية ذات طابع خاص •• ووجوه يوم الخميس هي ذاتها على ما كانت عليه تعكس نفس الورم الذي يكبل روح بنيها •

ــ سلام عليكم •• يا صباح الفل الجميل ••• ما ألطف هندامك ••!

ــ انك فعلا اكثرنا نشاطا •

لا •• لا سلام منير ولا صباح ندي •• ولا هندام جميل •• كل ذلك ليس منه شيء من المقصود بأي من مجموع تلك التحيات •• ان هـو الا زيف ينتزع من الروح كل اخضرارها المعهود ، ويجمد في قوالب مـن الالفاظ المعكوسة •• ومع ذلك ••

نعم ليس هناك الا الامل في مستقبل السنين •

ـ هات الملف حق امريكا •• انتزعته من يد كاتب الارشيف •• واحسست كأنني امسك بنصل •• ثم لـويت به على الهواء في ثلاث استدارات كانما لاحدد نقطة تستند يده ويدي كان الملف قد صار ذا عقل، فقد افلت من يدي مع دورتي الثالثة ليستقر في السلة القائمة في ركن المكتب •• سلة المهملات •

وفغرت أفواه من رأى « العملية » والتمعت عيون من تابعها الى حين استقرار الملف ومن بينها عينا كاتب الارشيف الذي قال معلقا •

ـ ما ألطف الصدف •• فاحيانا ادفع باحد الملفات ليستقر على سطح هذه النافذة ، وكان مكتبه يقع بجانب احدى النوافذ ، فلا افلح الا نادرا أما هذه القذيفة ••

على ان أحد الزملاء الموظفين انتقد الموقف بأكمله وقال مؤنبا :

ـ هذا لعب •• بتلعبو باموال الدولة ووثائقها •• هذا استهتار • اما انا فقد سمرت عيناي على موقع الملف الميمون وغبت معه اللحظات لاستيقظ على كلمات المدير من الباب :

ـ الدكتور فاضل المعبري اتصل ثلاث مرات يسأل عن مذكرته •

خيل الي انه افتعل لحنا خاصا التقطت الملف من « مكانه » ، وسرت به الى المكتب ، ثم أمسكت غلافيه بكلتا يدي : هذا هو الملف •• وبدأت افرز اوراقه •• وهذه هي المذكرة •• وهنـا في آخرها يجب ان اضع اسمي •

ـ ماسمكم الكريم •• به فلان الفلاني ••! هاه انتوا ذي ••

ـ لا لست انا لم امض ولم ارض •••

ـ فلماذا كان امضاكم اذا موجود •• نعم في نفس المذكرة •

ــ المحافظة على الــذات •• فانا قلبي فيه خطأ •• والدكتــور كبير ويساعدني •• فقلبي ••

ــ هل هذا عذر يكفي لسلب الآخرين قلوبهم ••؟
ــ قلت الك الدكتور •••

لم اسمع بقايا صوت المدير ، فقد استمرت اعماقي في صوتها ••• في اصواتها هذا الامضاء عليه ستة اشهر سجن هناك •• في بلاد البرد •
نعم لكن هنا معناه المحافظة على الذات ••؟
« قلبك فيه عطل •• وانا الذي سأزيله ، فلا تدفع العطل الى المزيد منه •• ألا تعقل ••؟ » •
ثلاثة صناديق قيمة محتوى كل منها عشرة آلاف ريال تحصل على الثلاثة مجتمعة بثلاثة آلاف •• طيب والمرضى والجوعى الا من ينصرهم•؟
تشارك يدي في تسهيل هذا الابتزاز ••؟
لاحت عروض العمل في الدار الفيدرالية للنشر بالمانيا الغربية •• ثم علت بعدها تصفيقات الصديقة الذكية المثقفة نعم ماذا لو •••؟

★ ★ ★

ــ وعليكم افضل السلام واعقله نعم •• هو يشير الى مرامــه بهذه السبل •
ــ كيف قلبك •• اخذت الحقنة •؟ هــززت رأسي شاكرا هــذا الاهتمام ثم انتظرت ان يفتح الباب بلغة مباشرة ، لكنه استمر في الالتفاف
ــ القلب •• القلب اهم عضو في الانسان •• انه الآلة الميكانيكية التي تمد جسده بأسباب الحياة •• هات ذراعك نقيس الضغط •• مددت لــه يمناي في توان واعماقي تزفر عصيرا من اللعنات والالم • وراح هو يتابع التفافه :

ـ واجب البقاء ليس ميسورا لكن للاذكياء الطموحين أمثالـك لا يكلف ذلك شيئا يذكر •

لم أتمكن من متابعة الضغط على نفسي ، خوفا على قلبي ، ففتحت لطوفان العصير من مشاعر المقت والالم فتحت له فجوة صغيرة :

ـ يكلف امضاء •• مجرد امضاء •

رمقني بنظرة مرابي • ثم هز رأسه في صمت وهو يتابع جس النبض في دمي وفي قلبي ، فزدت الفجوة اتساعا :

ـ انت تريد امضائي على مذكرتك لتتابع علاجي ••؟

انخفض جهاز القياس الذي يقيس به درجة ضغط الدم في عروقي ، فأشار بعينيه الى ذلك ••• وقال بابتسام سفاح :

ـ انتهينا •

ـ مـم ••؟

ـ من قياس ضغط الدم •• والاحوال عموما لا تبدو سيئة •

سقطت موجة باردة على اعصابي ، وقمت من سرير الفحص بشعور من يقوم من المشرحة •

وعلى الباب احكمت سترتي ثم القمته الفجيعة ـ لا اعتقد اننا انتهينا•

ـ لماذا لا سمح الله ••؟

فأجبت بصوت كاللعنات •

ـ لقد استقلت من الوزارة •

لعلع صوته كهدير الجن •

ـ كيف •• لماذا •• متى •• وهل ••؟

ـ أمام سؤالك حول : هل• فجوابي لا• وأما متى : فهذا النهار أما لماذا ، فبسبب التعاقد مع عمل بالخارج احسست انه ذاب بكل محتوياته،

فلم يبق الا صوت أنفاسه تتدحرج الى أذني في أنين كما لو كانت رئتاه تتوسلان الى قطرة من الهواء النقي .

ــ لكن لم .. راين ..؟

ــ هناك .. حيث تمشي الامور على طبيعتها قلت ذلك ، ثم طفقت خارجا وانا اصرع الباب خلفي كأني ألطمه .

وبرزت يداه من هيئته المغلفة ببياض اللباس ، ولوح بها كغريق يتوسل لعون .. وصاح بكل هيئة :

ــ ناهي .. طيب .. وحسابنا .. تتركه ليوم القيامة ..؟

فالتفتت ، وانا واقف واجبت بصوت يقيني :

ــ لا مانع .. فليس هناك اعدل من حساب يوم القيامة .

القادمون الى الجبل الاخضر [1]

بقلم
علي احمد الاسدي

في زمن ما .. بمكان ما ..

الزمن .. لا ادري مـاذا كان يسمى .. فلنسمه « عصر قراصنة الزهور » اما المكان فهو كوخ بخارج قرية صغيرة تلفها صحراء شاسعة ..

بهذا الكوخ الذي بين اغصان الشجر اليابسة والذي كان محـاطا بحديقة جميلة تملؤها الزهور والرياحـين وبعض الاشجار ذات الثمـار الطيبة عاشت ارملة كانت تدعى « ميمونة » .. وكان لهذه الارملة ولدان « دهمان » وكان آنذاك قد بلغ الثانيـة عشرة من عمره ، امـا الصغير « حازب » فكان عمره خمسة اعوام .

استطاعت الام « ميمونة » ان تعيش مع ولديها في هناء .. وآمـال المستقبل الذي رسمته بمخيلتها يجدد نشاطها ويزيدها سعادة تمنح الجزء الاكبر منها لولديها ..

آمال المستقبل كانت .. تلك الصحراء القاحلة التي كانت الام تراها وقد تحولت الى حقول ووديان واكواخ محاطة بحدائق يانعة .. ويسكنها مجموعة من البشر الصالحين .

(١) اليمن الجديد (اغسطس ١٩٧٦) .

هكذا كانت عيناها الحالمتان تتسع لضم تلك الصحراء بهذا الخيـال الواسع ..

عاد « دهمان » ذات يوم من الحقل .. وفي الطريق رأى فرسان ملك القراصنة يمتطون خيولهم عائدين من اتجاه الكوخ .. كانوا يطلقون في الهواء صيحاتهم وقهقهاتهم المخمورة .. احدهم كان ممسكا بسيف ملوث بالدم ..

تنحى الصبي عن طريقهم وتابع آثارهم حتى وجد نفسه امام الكوخ.. فوجيء حينما رأى الحديقة وقد كسرت اشجارها وعبثت حـوافر الخيول بأزهارها ..

كل شيء كان يبدو حزينا .. حتى فرسه فقد انزوت بطرف الحديقـة تاركة رضيعها رابضا بجانبها يجتران مرارة مميتة ..

تطلع بعيدا ليرى اخاه « حازب » فوق التلة لا يلوي على شيء غـير اللعب والجري ..

أحس برعب يجتاح كيانه ..

ــ أمي .. أمي ..

قالها وهو يتابع خطواته البطيئة الخائفة الى داخل الكوخ .

ــ أمي .. أمي ..

لم ترد عليه أمه .. بل لم يسمع اية حركة ، وخيل اليه انه يسمع ازيزا حادا يخترق رأسه ..

ــ اين انت يا أمي ..

وبالرغم من جزعه فقد استطاع اخيرا ان يسمع انات خافتة ومتلاحقة لم يتمكن في البداية من تحديد مصدرها ..

وكالمخبول اخذ يتنقل من مكان لآخر والى ان رأى امه مرمية بركن الحديقة الخلفي ..

تقدم ليرى وجها اقتلعت منه العينان بوحشية وكانت الدماء تتـدفق وتصدر صوتا كصوت ماء يغلي في اناء ..

الوجه كان مخيفا كالموت ..

تجمعت بداخله كل ما يملكه انسان من ذعـر وجزع وصاح بصوت طويـل :

ـ أمي ....

ارتمى على صدرها ثم أخذ يتأملها وملء عينيه تعاسة وحقد وألم ..

احس بأن الخوف يتلاشى وظل شارد الذهن ويتخيل ذلك السيـف الملوث بالدم ..

حمل أمه الى داخل الكوخ والسيف يتراءى بين عينيه ..

ـ أمي من الذي فعل بك هكذا ..؟

الجواب كان ألم وصمت ودموع امتزجت بلون الدم .. كانت تنحدر من مآقيها كسائل يشبه غسيل اللحم ..

ظل واجما بجانب أمه يتحسس اشياء جديدة بداخله .. حقـد ، وغضب ورغبة في القتل ..

★ ★ ★

سمع « دهمان » وقع اقدام اخيه تقترب من الكوخ .. فـأسرع اليـه ...

قال دهمان لاخيه قبل أن يدخل :

ـ أذهب ورتب أزهار الحديقة ..

ـ لكنها مكسرة ..

ـ حاول اصلاح كسورها ..

جرجر الصغير نفسه وعلى وجهه البريء استفهامات كثيرة ..

بقي الصغير « حازب » يتأمل الحديقة في أسى وقنوط .. لكنه أصر على ان ينتشل الزهور من بين التراب ويحاول معالجة كسور الاغصان .

ولما جاء الليل عاد الى الكوخ بنفس متكسرة كأغصان اشجار الحديقة .

أظلمت الدنيا وميمونة مع ولديها كل يجتر ألمه في صمت قاتل لا يسمع فيه غير اصوات رياح شديدة ..

الظلام .. والالم والرياح .. جميعها كأنها كانت تؤدي رقصة منتظمة على ايقاع نغمات قيثارة حزينة ..

ــ أمي .. أمي ..

بالرغم من ان الشمس قد بدأت ترسل دفئها .. الا ان « دهمان » كان يرى كل شيء حوله اسود لا يتحرك .. كأنه كان يرى كل شيء بعيني أمه ..

وقف الصغير « حازب » مشدوها امام وجه أمه .. ثم سألها وهو يتقدم اليها :

ــ أين عيناك يا أمي ؟

نهضت الام بلهفة الى صغيرها وضمته الى صدرها بشدة ، ورسمت على شفتيها ابتسامة فيها لون الدم ..

ــ يا صغيري لقد سقطت من على شجرة عالية .. وكان ما كان .. والآن أذهب وألعب فوق التلة ..

ظل الصغير صامتا يتأمل وجه أمه ..

التفت « دهمان » الى اخيه :

ــ هل سمعت « يا حازب » ، أذهب العب فوق التلة ..

ــ لا .. سأذهب الى الحديقة لآتيك يا أمي ببعض الفواكه والزهور .. وركض مسرعا نحو الحديقة ..

تقدم « دهسان » الى أمه ، وسألها ما حل بها ..
قالت له :

ـ أذهب يا ابني الى وادي الاعشاب ، واتني بحليب الصقر الرابض فوق الجبل الاخضر .. ثم أذهب الى خلف الجبل واجمع كمية من ثمار الشجرة القابعة في عمق البحر ..

ـ هل ستشفين يا أمي ؟
ـ نعم يا ابني ..
ـ لكن قولي لي من الذي فعل بك هكذا ؟

ـ الآن يا ابني يجب ان تعلم ان ملك القراصنة أمر جنوده بقتل أبيك امام كل ابناء القرية .. وبعد القتل .. طردوني من منزلي بالقرية .. كل هذا لان زهرة صغيرة كانت قد نبتت في حقلنا .. بعدها اخذتك وسكنا هذا الكوخ ، اما اخوك فكان لا يزال في احشائي ..

ـ بالامس يا أمي رأيت قراصنة الزهور وكانوا عائدين من اتجاه كوخنا .. أهم من فعلوا بك هكذا ؟

ـ نعم ..
ـ كيف .. لماذا ؟
ـ جاءوا يا ابني .. قالوا لي .. ان روائح ازهار حديقتنا اخذت تنتشر في القرية .. وقد بدأت هذه الروائح تصل الى جبل القراصنة ..
قالوا لي أيضا .. انك تزرع الارض ثمارا لا يأكلها الا الملائكة ..
لم يفهمني احد منهم .. وانا احاول ان اشرح لهم معنى الزهور والروائح الطيبة ..
وبسيف جامد اقتلعت عيني اليمنى .. بين عاصفة من الصيحات المفزعة .. وانا اصرخ اصرخ ألما .. حينها امتدت يد باغ منهم بأظافر وحش عات وانتزع مني عيني الاخرى .. وانا اصرخ .. أصرخ ..

والآن اذهب يا ابني فحليب الصقر سيبرىء وجعي ، وستأكل أنت وأخوك من ثمار تلك الشجرة وتصبحا أقـوى منهم جميعا •• بعدهـا ستفلحان الارض كلها وتمتلىء بالثمار والازهار والاكواخ ••

ــ حالا يا أمي •• اني ذاهب •

ــ أسرج فرسك قبل أن تذهب ••

أمسك دهمان بصدغي أمه وطبع قبلة على جبينها ، ثم شرع يسرج فرسه وفي عينيه بريق من أمل وملأ كيانه أحلام تهزه وتدغـدغ مشاعره الانسانية •• وانطلق مبتدأ رحلته الطويلة جدا ••

★ ★ ★

أيتها السماء من اجل الحياة الطيبة الهائئة •• من اجل الحب •• من أجل الزهور •• من اجل بني الانسان جميعا •• أمنحي هذا الصبي حنانك ورحمتك •• ومدي اليه بمساعدتك واشمليه بالرعاية والعطف ••

وتمر السنون والانتظار يزيد من قلق الام « ميمونة » بالرغم من ان الرحلة ستأخذ وقتا أطول ••

وفي ليلة ممطرة باردة •• سمعت « ميمونة » حركة مخلوق قادم •• خرجت ، من الكوخ وقلبها يخفق ، تنادي ابنها وهي تجري في اتجاه الحركة •• مخترقة الظلمة والمطر برعده وبرقه وعواصفه • •

كانت تجري والحركة تقترب •• خيل اليها انها تسمع صوت ابنهـا ينطلق من بين هدير الرعد •

ــ لن أعود يا أمي •• لا أستطيع العودة ••

الحركة تقترب أكثر •• ويتضح صوت •• انه صهيل لفرس •• وشيئا فشيئا تبينت العمياء ان تلك الحركة كانت خطوات الفرس •• لكن تلك

الخطوات أصبحت على غير عادتهـا •• تـدل على ان الفرس أصبحت عرجاء ••

وتقدمت الفرس وهي تلهث •• وأخذت « ميمونة » تتحسسها •• لكن « دهمان » لم يكن موجودا ••

صرخت بشدة •• حاولت ان تصرخ ثانية •• لكن لسانها أصبح ثقيلا لا يقوى على الحركـة •• حينها عرفت أنها فقدت القـدرة على النطق وأصبحت بكماء ••

اختلطت الدموع ذات اللون الدمـوي مع قطـرات المطر ، وغسلت جسمها وارتمت على الارض لا تعي شيئـا •• غير أن صوتا ظل يتـردد بداخل جمجمتها ••

ــ لن أعود يا أمي •• لن أعود بحليب الصقـر •• اغفري لي أيتها الام العميـاء فالسماء لم تمنحنـي شيئا من الرعايـة •• اغفري لي •• اغفري لي ••

ومع الفجر نهض « حازب » من فراشه ، ولما لم يجد أمه في الكـوخ خرج ليسمع صهيل الفـرس جرى الى اتجاه الصوت ليرى فرس أخيه واقفة وبجانبها ترقد أمه ••

تقدم وأسند أمه الى ركبته ••

ــ ما بك يا أمي ؟؟

★ ★ ★

حاولت الام أن تتكلم دون فائدة •• وحاولت مرارا أن تحرك لسانها لكنها لم تنطق حرفا •• بينما كان « حازب » يحملق في وجهها في ذعر ••

ــ أيتها السماء ماذا فعلت بك هذه الام المسكينة ••

تطايرت قطرات الدموع وهي تهز رأسها بصورة « هيستيرية » •• خيّل الى الفتى أن صهيل الفرس يملأ الصحراء غضبا وقنوطا وألما ،

التفت الى الفرس وقد قطب حاجبيه واضعا يديه على أذنيه ، ليجد جرحا عميقا باحدى أرجل الفرس •• وكانت الدماء تطفح من الجرح•• وليتأكد أيضا من أن أنياب وحش كانت قد تركت تلك الثغـــرة التي تطفح منها الدمـــاء ••

لكن ذلك لم يمكنه من معرفة الحقيقة كاملة ••

ويوما بعد يوم والحزن يخيـــم على الكوخ الصغـــير •• ولم يعد « حازب » يهتم بشيء غير ترتيب الحديقة واعادة رونقها اذ كان يجد في ذلك شيئا من التسلية ••

★ ★ ★

أخذ الناس في القرية الصغيرة يتكلمون عن تلك الليلة المطـــرة •• وأهم شيء في الحديث كان عن السيل الغاضب الذي اجتاح جبل القراصنة وأغرق كل من فيه ••

وحينما سمع « حازب » هذا الخبـــر أشرق وجهه ، وأحس ان شيئا ثقيلا بدأ يتزحزح من صدره •• لكن قسطا من ذلك الشيء الثقيل أسرع ما عاد القمر مكانه حينما رأى وجه أمه •

ذهب الى الحديقة ليجد الزهور والرياحين منتعشة ، فقطف مجموعة منها وناولها أمه التي أخذت تجمعها ربطا صغيرة ••

وجد « حازب » ان جمع الزهور عملا تجد فيه أمه قليلا من التسلية فكان يقطف لها الزهور وهي تجمعها ••

ولما تراكمت باقات الزهور أخذها ووزعهـــا على أبناء قريته الذين أقبلوا على شرائها منه ••

ومنذ ذلك اليوم و « حازب » يمارس بيع الزهور فاشتهر باسم بائع الزهور ••



الشمس كانت على وشك الغروب •• حينما كان « حازب » عائـدا الى كوخه حاملا أشياءه التي اشتراهـا •• وبينما كان سارحا مشغول الذهن بحالة أمه المؤلة •• سمع صوتا رقيقا يناديه :

ـ يا بائع الزهور ••

التفت ليرى فتاة رثة الملابس هزيلة الجسم يكسو بشرة وجهها الجميل لون أخضر غير طبيعي ••

ـ نعم ماذا تريدين أيتها الفتاة الغريبة ••

ـ أريد زهورا •• لكنني لا أملك نقودا ••

ـ لا تهم النقود •• لكنني الآن لا أحمل زهورا ••

ـ انني بحاجة اليها يا بائع الزهور •• لقد أتيت من مكان بعيد من أجلهـا ••

ـ لماذا ؟

ـ لانثرهـا على قبر أبي وأمي وأخي •• انني آتي الى هنا في أول يوم من كل عام لاشتري منك الزهور •

ـ وستعودين بالزهور الى ذلك المكان البعيد ؟

ـ من هم ؟

ـ أبي وأمي وأخي ••

ـ كيف ؟!

ـ لان ملك القراصنة قد اتهم أبي وأمي بحفر الارض للحصول على الماء من جوفها لسقي حقولهم الجافة •• لذا فقد حكم عليهم بالاعـدام سحبا على عربته ••

ولم تتوقف العربة الا بمكان قريب من هنا وكانا قد فارقا الحياة•• حينما كان أخي يلهث وراءهما وما ان وصل حتى سارع في حفر قبر لدفن جثتيهما لكنه قبل أن يشرع في الدفن فوجىء بالحراب تنهال عليه من كل صوب ••

ولما عرفت القصة جئت ووضعت الجثث الثلاث جنبا الى جنب بداخل الحفرة التي كان قد حفرها أخي •• ودفنتهم •• ومن حديقــة الكوخ القريب من هنا أعطتني امرأة طيبة زهورا ورياحين من النوع الذي تبيعه •• أخذتها ونثرتها على القبر ••

ـ لا تبتأسي أيتها الغريبة •• لكنك لم تقولي لي عن اسمك ••

ـ اسمي « اروان » •

ـ هيا يا « اروان » الى ذلك الكوخ وخذي من أزهــار حديقته ما تشائين ••

ـ أتعيش بذلك الكوخ الجميل ؟

ـ نعم مع أمي وفرسنا العرجاء وابنها ••

ـ أهي أمك تلك ؟

ـ اذن هيا ••

ـ هيا •••

مضى « حازب » مع « اروان » ولما وصلا الى الحديقــة وجدا الام تجمع الزهور كعادتها ••

ـ ها هي أمي يا « اروان » ستعطيك أي نوع من الزهور ••

تطلعت الفتاة الى وجه الام وأسرع ما أغمضت عينيها في ألم وأمسكت بكلتا يديها على رقبتها لتبتلع مرارة المنظر الذي هز جسدها •• ثم همست في أسى :

ـ يا الهي انها تلك المرأة الرحيمة ••

وتقدمت اليها ••

ـ كيف حالك أيتها الام ••

جاءها الرد من « حازب » ••

ـ انها لا تتكلم أيضا أيتها الغريبة •

ـ أتعني ••؟
ـ لا أدري شيئا •• لكننا تعودنا الحياة هكذا ••

★ ★ ★

ـ يا للقسوة ••
صمتت الفتاة للحظات وفي أعماقها حسرة •• لكنها سرعان ما قالت « لحازب » :

ـ حياتكم بسيطة وجميلة بالرغم من المأساة ••

ـ يكفي أيتها الفتاة ان أمي تمنحنا أحيانا ابتسامة تشمل الكوخ والحديقة وأنا والفرس وابنها بسعادة لا حد لها •• والآن هل تريدين ان تعيشي معنا ؟

أصغت الام الى حديث الشابين باهتمام وارتسمت على شفتيها ابتسامة بينما كانت « اروان » تتأمل كل شيء حولها دون ان ترد قال لها « حازب » أيضا :

ـ ستذهبين كل يوم لتنثري الزهور على كل القبور ان شئت ••
نهضت الام وأخذت تتقدم نحو الفتاة ••

ـ ها أنا أيتها الام •• أنا « اروان » هل نسيتني ، هل نسيتي الزهور التي نثرتها على القبر •• « انا اروان » ••

بحنو وفرح ضمت « ميمونة » الفتاة وكانت شفتاها ترتعشان •
تقدم « حازب » وسأل أمه :
ـ هل سمعت حديثنا يا أمي •

هزت الام رأسها وقد اتسعت ابتسامتها وسقطت دموع الفرح على

خديها كانت الدموع هذه المرة بيضاء كالزلال ــ ابتسم الجميع وحاولت الام أن تتكلم ولما لم تستطع قال « حازب » :

ــ أعرف ما تريدين يا أمي ، تريدين أن تقولــي بأن علينا ان نملأ الكوخ صبيانا وبناتا ...

ابتسم الجميع ودخلوا الكوخ .. وكانت الفرس مع ابنها يشاركانهم الفرحة وقد انقشعت ملامح الحزن مع ملامح الفرس وأخذت تداعب ابنها وكأنها تقول له سننتظر الصغار القادمين لنحملهم ليأتوا بحليب الصقــر الرابض فوق الجبل الاخضر ...

الثائر الصغير

بقلم
شفيقة أحمد زوقري

احتفلنا بالامس بذكرى الرابع عشر من أكتوبر .. ذكرى ثورتنا المجيدة .. هذا اليوم العظيم ، جعلني أتذكر ذلك الماضي البعيد الذي مر بي منذ كنت طالبا صغيرا حتى صرت محاميا كبيرا .

كنت في طفولتي أعيش في لحج الخضراء الجميلة ، كان أبي مزارعا بسيطا يعمل طوال يومه في مزرعة السلطان فضل ، لا يعود الا في المساء، وكان يعود في المساء متعبا من كثرة العمل ، وقلة الرزق ، الرزق .. أي رزق ذاك الذي كان يعود لنا به ؟ كان قليلا جدا ، لذلك كنا نكتفي بالاكل وقتا واحدا كل يوم . لا تستغربوا يا أعزائي ، اذا كنا نأكل وجبة واحدة فقط في اليوم . أما في الصباح فقد كنا ، ان لم نجد شيئا نأكله ، نكتفي بحبة تمر وجرعة ماء . وكنت قبل دخولي المدرسة أذهب مع والدي في الصباح الباكر لاعود لاساعده في أعمال الزراعة حتى الظهر ، فاذا تكرم وكيل السلطان ومنح والدي بضعة دراهم ، مقابل عمله ، في ذلك اليوم ، فقد كان والدي يدسها في يدي ويقول لي : اسرع بها يا سالم الى أمك لتشتري لنا شيئا للغداء .. وأحضره لي ولا تتأخر يا ولدي ..

وكنت أسرع أنا بالنقود الى أمي الطيبة القلب . التي كانت تبكي من

(١) التربية الجديدة (يونيو ١٩٧٥) .

شدة فرحها بتلك الدراهم القليلة.. وهي تقول لي وهي تبتسم : سنتغدى اليوم يا سالم .. سنتغدى يا ولدي ..

وكانت أمي تسرع باعداد طعام الغداء بينما أقوم أنا بمساعدتها .. وبعد الانتهاء من اعداد طعام الغداء كانت أمي تلفه لي في ربطة صغيرة وأهرع أنا به الى والدي ثم أجلس معه على الارض لنأكل غداءنا بفرحة وسرور .

وجاء اليوم الذي توقفت فيه عن الذهاب مع أبي الى مزرعة السلطان، فقد دخلت المدرسة . فرحت كثيرا بالمدرسة .. وكنت أواظب على الذهاب يوميا اليها .. كنت في السنة الاولى الابتدائية .. وكنت كثير الاهتمام بدروسي ، مواظبا على المذاكرة ولكن حادثا بسيطا لم أهتم به في البداية الا انه أثار حقدي فيما بعد ، فجّر ثورتي ، ذلك أن في نهاية السنة الاولى وزعت علينا الشهادات المدرسية .. وكنت أحسب أن يكون مركزي الاول في الصف .. ولكن النتيجة كانت غير ما توقعت فقد ظهرت واذا مركزي الثالث في الصف .

الثالث ، تصوروا الثالث .. وحزنت وبكيت ولكن المدرّس قال لي: ماذا تشتهي يا سالم ؟ هل كنت تنتظر المركز الاول ؟ أو الثاني ؟ أجبت : نعم وبكل تأكيد .. أجاب : أنت غلطان يا سالم : فالرتبة الاولى لحامد ، ابن السلطان فضل ، والثانية لسعد ابن الامير محسن .

وخبأت حزني في صدري ، كتمته وأخفيته .. كما أخفيت حقدي على كل من حامد وسعد ، وأضمرت ثورتي على ذلك المدرّس .. لم أكن أعرف حتى ذلك الوقت بأي صفة أصف المدرس لصغر سني . ولكن غضبي وحقدي لم يذهبا ، وثورتي لم تهدأ فقد تكرر ذلك في سنوات دراستي الاخرى : الثانية والثالثة والرابعة، كان مركزي في الصف دائما.. دائما بعد أولاد السلاطين والامراء الذين كانوا يتحصلون على الاولوية

في الصف . كنت كثيرا ما أشكو لوالدي هذا الظلم فيرد أبي قائلا : أصبر يا سالم وكل ظلم وله نهايـة . وكنت أرد عليه قائلا : ولكن الى متى يا والدي ؟ وابن السلطان دائما في المقدمة .. ابن السلطان مفضل دائما في الصف.. ونحن أبناء الفقراء الفلاحين الكادحين أليس لنا سوى الفضلات، ألسنا مثلهم ؟.

ويرد والدي : كلا يا بني .. تقضي الظروف السيئة أننا لسنا مثلهم، وأسكت ..

وفي نهاية المرحلة الابتدائية جاء مديـر المدرسة ليخبرنا بأنه قد تم اختيارنا نحن الخمسة الاوائل للدراسة الاعدادية ووافـق والدي على مواصلـة دراستي ، وفرحت أنا كثيرا بذلك النقل .. كنت أعتقـد ان الافضلية ستكون للجميع ، ولكن فرحتي ضاعت .. واشتد حقدي .. زادت ثورتي اشتعالا .. لم أعد أتمكن من الحصول حتى على المركـز الثالث .. كلا .. كلا .. لم يعد لي حق فيه وأصبحت باستمرار العاشر في صفي ، لماذا ؟ وأنا كثير المذاكرة ، شديد المواظبة والاهتمام بدراستي، لماذا ؟ وأنا يحق لي أن أتحصل على المركـز الاول في صفي .. فأنا أشد التلاميذ اهتماما ، وأكثرهم اجتهادا وحرصا على متابعة دروسي .. لماذا اذن ؟ لماذا ؟

وجاءني الجواب على الفور سريعا : (لان أولاد السلاطين والامراء من مختلف المناطـق كلهم يدرسون في هذه المدرسة) .. ولا يحـق لي بطبيعة الحال ، أنا ابن المزارع العامل في حقـل السلطان ، أن أطمح في مراكز عالية تفوق مراكز الامراء .. وذات ليلة ، وكنت حينذاك في السنة الثانية من المرحلة الاعدادية ، تحدثت الى نفسي، تحت ضوء القمر وقلت: الى متى سيستمر هذا الظلم ؟ الى متى سنكون تحت قسوة السلاطين وظلم الامراء ..؟ لماذا نخدع أنفسنا بالصبر ، وبالسكوت عن هذه الاعمـال

الجائزة ؟ أنا أتحصـــل على الفضلات في الرتب في مدرستي ؟ أنا ؟ كلا لست وحدي بل وكل أولاد المزارعين الكادحين .. أمثالي ، ممن آباؤهم أمثال والدي.. ووالدي لا يأكل هو ووالدتي الا القليل لان دخل والدي محدود جدا بدراهم قليلة معدودة يستلمها نظير العمل الكثير ، الشاق ، المضني الذي يقوم به ما دام صحيحا مستمرا في عمله أما اذا مرض وتأخر عن الذهاب الى المزرعة في أحد الايام فان وكيل السلطان يقطع من أجره الدراهم التي كان يجب أن يستلمها عن ذلك اليوم وكان ذلك يعني أن نعيش يوما كاملا بدون طعام ، لولا عطف جيراننا الفلاحين الطيبين الذين ما كانوا يتركوننا نجوع فيمدون لنا أيديهم بما يتيسر لهم من الطعـــام ملتزمين بحق الجار ..

وأمثال والدي كثيرون جدا .. فالمزارع يتعب لكي يعيش ، ولكنه اذا مرض يجوع واذا استمر في مرضه يموت . اما السلطان فيعيش في سعة ورفاهية . يأكل ما يلذ له ، ويشرب ما يطيب له بدون حساب ، واذا مرض يحضر الاطباء لمعالجته واستعادة صحته . كل هذا بدون حساب ومن يقدر على محاسبتـــه ؟ هل نسكت على ذلك ؟ ولكن لماذا نسكت على الظلم لماذا لا نصرخ في وجـــوه السلاطين الظالمين ؟ لماذا نسكت على العبودية ؟ وصرخت : لماذا ؟.. لماذا ؟.. وسمعت صوتا من داخلي يرد عليّ .. وأنت لماذا تسكت على الظلـــم ؟ لماذا لا تصرخ ؟.. لقد كانت نفسي في صراع شديد هي التي تتكلم ، وهي التي ترد ، الا انني سكت حينئذ ، وقررت شيئا في نفسي ..

وجاء صباح اليوم التالي وجمعت بعض الزملاء ممن هم مثلي من أبناء الكادحين الفلاحين وتحدثت اليهم بما في نفسي .. أخبرتهم مما أعانيه ، بما نعانيه نحن في مدارسنا بسبب المراكز الاولوية التي كان يتحصل عليها أبناء السلاطين بدون عناء ، ووضعنـــا في مراتب دنيا دائما ، نحن أبنـــاء الفلاحين ، برغم اجتهادنا برغم مواظبتنا واهتمامنا بالدروس .. وتحدثنا

أيضا عن الفرق الواسع الكبير بين السلاطين والمزارعين : السلاطين يعيشون في هناء ونعيم ، والمزارعون يعيشون في شقاء وجحيم ، فروق كبيرة واسعة بينهم وبيننا ، حتى المدرسة تتحكم فيها تلك التفرقة الطبقية : هذا الاول في الصف لانه ابن السلطان ، وهذا الاخير في الصف ، رغم اجتهـاده ، لانه ابن المزارع فلا يحق له أن يتحصل على مركـز أعلى من مركز ابن السلطان او ابن الامير ..

وأعجب كلامي زملائي أبناء الفلاحين ، وأصبحنا نجتمع كل يوم سرا وتتشاور في أمورنا ومشاكلنا تلك . وازداد عددنا .. وأخيرا قررنا أن نثور ، في وجه من سنثور يا أصدقائي الاعزاء ، طبعا ليس أمامنـا سوى أبناء العائلات الكبيرة .. أبنـاء السلاطين ، والامـراء والحكـام .. وواجهناهم بالامر .. اتهمناهم بالجبن .. بالضعف وعدم الاعتماد على النفس لان الانسان الذي يعتمد على نفسه هو القوي .. ونحن أبنـاء الفلاحين أقوياء لاننا لا نعتمد على مراكز آبائنا ومناصبهـم ، بل نعمل ونكد ونتعب حتى نحصـل على ما نريد بعرقنا .. بقوتنا .. بذكائنا .. أفهمنا أبناء السلاطين ان التفرقة الطبقية لا بد ان تذهب وتزول ، لان ابن السلطان لا يفضلنا بشيء بل قد يكون مثلنا ويجب أن يكون مثلنا .. بل ويجب أن يتحصل فقط على المراكـز التي تتناسب واتتاجـه وعمله في مدرسته .. وكل واحد منا يجب أن ينال حقه .. نصيبه كاملا في هذه الحيـاة ..

وسخر منا أبناء السلاطين وشكونا الى آبائهم .. وشكونا الى مدير مدرستنا أيضا .. ولكن المدير لم يعاقبنا على أعمالنا تلك .. ناشدنـا بالهدوء والنظام في المدرسة ، دون الاشارة الى أحاديثنا مع أبناء السلاطين .. لماذا ؟ لانه لو قام بتأنيبنا أو عاقبنا لثارت ضجة في مدرستنا والمدارس الاخرى .. وثار أبناء الكادحين أمثالنا في جميع المدارس عندما يعلمـون بالخبر وما كان يود أن يبدأ التمرد من مدرسته .. ولكن السلطان فضل

كان قد قرر أمرا في نفسه فقد استفسر عن الامر كثيرا وعندما عرف انني أنا صاحب هذه الفكرة •• قرر استدعاء والدي اليه في قصره •• وذهب والدي اليه ••

كان خائفا مرتبكا في بداية الامر وهذا ما علمتــه منه •• وقد ادعى لوالدي انه استدعاه ليكافئه على أعماله الكثيرة النشيطة في المزرعة •• واخلاصه في العمل ، وقد استغرب والدي من فعله •• ولكن تعجبه لم يطل ، اذ أخبره في نهاية المقابلة ان عليه ان يمنعني من الكلام الكثير في أمور لا تخصني وان يمنعني من التهجم على أبناء السلاطين في المدرسة ، والا فلن يحصل خير ••

كان مدير المدرسة محايدا في تصرفاته •• لا يساعد أبناء السلاطين ولا يحاربنا • بعكس بعض المدرسين •• فالمدرس أحمــد كان كثيرا ما يشجعنا ، وكان يهمس لي : استمر يا سالم في ثورتك •• حاربهـم •• واجه أبناء السلاطين بحقيقة آبائهم ولا تخف •• ولا تخش شيئا فنحن معكم •• وأعمالكم هذه جــزء من النضال •• وشجعني كلام الاستاذ أحمد ، ولكني ازددت حماسة عندما سمعت مدرس اللغة العربية الاستاذ محمود : كان غاضبا حانقا من أعمال السلاطين وكم مرة قال لنا : يجب أن نقضي على هؤلاء السلاطين •• يجب أن نثــور في وجوههم ونحاربهـم بالكلام عن أخطائهم في كل مكان •• كل الشعوب العربية ناضلت في سبيل الحصول على حريتها وأبناء الشعوب العربية المناضلة كان من بين قادتهم طلاب واعون ومدرسون مسؤولون فناضلوا يا أبطال لاسترداد حقوقكم المغتصبة ، وبعد ذلك لتحرير وطنكم من هذا الاستبداد البغيض •

وازدادت ثورتنا اشتعالا وكثر عددنا •• وأصبــح السلاطين أكثــر انزعاجا واضطرابا وكذا كانت الحال في المدرسة •• وقد شمل الاضطراب فيما بعد المدينة والريف واستمرت تنقلاتنا يوميا بين الريف والمدينة •

ولكن جاء يوم خفت فيه ثورتي وقلت حماستي في بداية الامر ، فقد اعتقل والدي ، ماذا تعني كلمة (اعتقل) يا ترى ؟ فقد تردد على ألسن الجميع •• ان أبي قد أعتقل ••

وذهبت الى مدرستي مستفسرا والى الاستاذ محمود بالذات •• فرد علي (أعتقل) تعني يا سالم ان والدك قد سجن •• أعتقل تعني : سجن •

ثم خفت ثورتي وكادت تنطفىء في ذلك الوقت •• أبي يسجن لماذا ؟ ماذا عمل ؟ هل سرق ؟ هل اعتدى على أحد ؟ هل قتل ؟ يجب أن أعرف السبب اذن •• وانشغلت بمشكلتي بمحاولـة زيارة أبي في سجنه •• فتخلفت عن الاجتماعات التي كانت تعقد في الخفاء •• وقلّت حماستي ، وأنا أفكر كثيرا بأبي ، كيف حاله يا ترى ؟•• وأمي المسكينة ، تجلس في الدار حزينة مهمومة مفكرة في حال والدي •• وأخيرا زرت أبي في سجنه وبكيت لمرآه من بعيد ، ولكنه عندما رآني اقترب منه تشجع ونفض عنه ذلك الحزن وابتسم لي وهو يقول : تشجع يا ولدي فايماننا قوي •• وكل أزمة الى فرج قريب •• ولن يضيع الضعفاء مثلنا الى الابد وكان سؤال يدور في بالي وأبي يتحدث اليَّ ثم سألتـه : ولكن من الذي اعتقلك يا والدي ؟•• من الذي أمر بسجنك ؟•• فرد والدي قائلا : أولا تعرف ؟ انه السلطان فضل • قلت : السلطان ؟• يا ويله •• ولكن لماذا ؟

رد والدي : لاجلك سجنت يا ولدي •• ولكن لا تخش عليَّ واستمر في نضالك مع اخوتك يا ولـدي •• استمروا من أجل تحريـر الارض والشعب يا سالم ••

وعدت لما كنت عليه من سابق نشاطي ، فبعد زيارتي لوالدي أصبحت أكثر تحمسا ، بالامس أثّر فيَّ كلام الاستاذ محمود واليـوم يؤثر علي حديث والدي القصير وهو في سجنه •• ولم يكن والدي هو الوحيـد المسجون ، كان أمثاله كثيرين •• سجنوا بسبب ثورة أبنائهم ضد أبناء

السلاطين •• وقد أشيع بيننا أننا اذا كففنا عن نشاطنا ضد أبناء السلاطين فلسوف يفرج عن آبائنا • الا أننا لم نكف عن أعمالنا وانما ازداد نضالنا توسعا وتأججا •• وأصبحنا نخطط ونمهد للثورة الحقيقية •• بمواجهة السلطان وأعوانه ومن عرفنا أنهم كانوا يقفون في نصرتهم •

وانشغلت كثيرا بالتنظيمات التي كنا نقــوم بها للثورة في وجــوه السلاطين وعملائهم وأعوانهم لنسترد منهم حقنا الضائع •• ونصــون مصالحنا الحقيقية وننهض بشعبنا •• ونرفع مستواه من جميع النواحي•• ورغم انشغالي بكل هذه الاعمال وبدراستي أيضا فقد كنت لا أتأخر عن زيارة والدي في أيام الزيارة المحددة •• وقد كانت حالته لا تسر •• ففي الفترة الاخيرة هزل جسده وضعف بصره حتى أصبح لا يعرفني الا اذا اقتربت منه كثيرا وسمع صوتي •• وقد ساءني ما رأيت •• وتمنيت أن أفديه بروحي •• بحياتي ولكني لو ضحيت بحياتي لاجله فهل يستــرد صحته وقوته •• وهل يكف السلطان عن ظلمه وقسوته ؟•• كلا •• بل انه كان سيزداد قسوة وظلما وبطشا بنا •• وسيسخر منا •• ومن تراجعنا •• وخوفنا •• وتخاذلنا •• ولن أكون قد عملت شيئا لاخواني وأبنــاء وطني •• ومشكلتي الخاصة ما كانت لتعني شيئا أمام المشكلة العامة •• المشكلة الكبرى فكان يجب أن أضحي في سبيل بلادي ، وشعبي ••

زميلي عبد المعطي كان عكسي تماما • فقد جاءني ذات يوم حزينــا مهموما لسجن والده وقال : أنا آسف يا أصدقائي لن أتمكن من الاستمرار معكم •• والدي سجنه السلطان ، وأخبره انه سيفرج عنه اذا كففت أنا عن أعمالي النضالية معكم •• وسخرنا من ضعفه وخوفه ، وحاولنا افهامه بأن السلطان كاذب مخادع •• ولكنه رد ثائرا : لقد سجن والــدي •• وغدا يمــوت •• ألا تفهمون ذلك ؟•• لن يرد عليَّ أحدكم والدي لو مــات ••

وصرخت فيه : ما بالك يا عبد المعطي •• لقد أصبحت أنانيا •• ليس والدك الوحيد المسجون ولا والدك الوحيد الذي سيموت •• هذه المشكلة أصبحت مشكلتنا كلنا •• آباؤنا يسجنون وآباؤنا يموتون •• من أجل مَن ؟ من أجلنا كلنا •• من أجل استرداد أرضنا •• من أجل تحرير شعبنا •

وتخلى عبد المعطي عنا •• ولم يفرج عن والده •• ومات أبي •• وهزني موته واشتعلت ثورتي بشدة حزني •• وقررت أن أنتقم لابي من السلطان فضل •• ليس لابي فقط •• بل للجميع •• ومن جميع السلاطين ••

واندلعت الثورة من جبل ردفان المجيد وخرج الجميع ثائرين من البيوت •• ومن المزارع •• ومن الكهوف •• هاتفين بالسلاح •• بالذخيرة •• نحمي أرضنا الكبيرة •

وكان ذلك في الرابع عشر من أكتوبر عام ١٩٦٣م حين اندلعت الثورة في وجوه السلاطين والعملاء والمستعمرين •

وقتل بعض السلاطين •• وهرب البعض الآخرون منهم • وكان السلطان فضل ضمن الهاربين •• هرب السلطان فضل خائفا مرعوبا •• لم يعد يهدد ولا يتوعد • وعاش الشعب اليمني في كفاحه ونضاله ضد المستعمر حتى انتصر وانتزع استقلاله في الثلاثين من نوفمبر عام ١٩٦٧م وعاشت جمهوريتنا الفتية ، جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية في ظل التنظيم السياسي الجبهة القومية منتصرة مستمرة في نضالها بفخر واعتزاز •• لتقوى مكانة اليمن وشعبها بين بلاد العالم وشعوبها المناضلة التقدمية من أجل الرفاهية والسلام •

وكانت دراستي في ذلك الوقت •• وقت النضال المسلح واشتعال الثورة ، قد توقفت وضاعت سنة من حياتي الدراسية •• ولكنني لم أضع

الوقت ، ودرست ، وتفوقت ، ونلت منحـة دراسية الى الخـارج بعد استقلال وطني •• وها أنا أعود اليه بعد فراق دام بضعـة سنوات الا انني أصبحت بعده محاميا مواصلا كفاحي في خدمـة وطني وشعبه في الدفاع عن مكتسبات ثورتي •• ثورة شعبي •• هذا الشعب المكافح •• المناضل •• فلكم تعذب وكم تألم وكم حزن لاستشهاد الكثير من أبنائه••

ولكن كل هذا يهون في سبيل •• الحرية •• العزة •• والكرامة ••

لذلك ، يا أعزائي ، كلما مر عام •• ومر بي الرابـع عشر من شهـر أكتوبر فانني أقضي فترة من الزمن أتذكر فيها حياتي الماضية •• عندما كنت طالبا ، ولا ألبث أن أتحسر على وفاة والدي الا انني أعود فأبتسم للانتصارات الاخيرة التي حققناها لبلدنا ، وها هي أمي العجوز بجواري مغتبطة على السرير ، تبتسم لي باعياء لتقدم سنها ، الا انها فرحةباستمرار لانتصار الثورة ونجاحها المتصاعد .

انتهـت

محتويات الكتاب